رحيل في بدايات الألفيّة
. الجزء الأوّل .

نهاية القرن

روايه

صدقي شعباني

ماستر

رحيل فى بدايات الألفية
الجزء الأول
نهاية القرن

صدقى شعباني

تصميم الغلاف
بيشوى ظريف

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ١٠٨٧١/٢٠٢٠م

ISBN: 978-977-85710-7-3

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـداء

إلى والدي/

الّذي خاب أمله فيّ حيّا، وأرجو أن تصله روح هذه الكلمات، فتقرّ بها عينه وهو ميّت ويدرك أنّه رغم ما كان بيننا من المسافـات الّتي كانت تقف حائلا دون تقاربنا، فإنّي لم أكن لأتوقف لحظة عن التّفكيـر فيه ومحاولة إسعاده، ولكن على طريقتـــــي.

تصديـــر

** «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)»

قرءان كريم

** ٣وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. ٤وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. ٥وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. ٦وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». ٧فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. ٨وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.»

العهد القديم

الجــزء الأوّل

- الأسماء -

((١))

- بدر -

(يضيق به المكان ، لا يدري ماذا يفعل تحديداً، رغم أنّ الفضاء يعجّ من حوله، الرّائحون والغادون، في حركة دؤوب، لا يهدأون أبدأ، ومنهم من يلمّ به، فلا يلقي إليه بالا، كأنّه يسرح بخياله، في مكان آخر، قصيّ ، بعيد، أحيانا ينبو به المقعد الّذي يجلس عليه ، يتحامل على نفسه، يزيح الكرسيّ عنه برفق، تحمله قدماه المتعبتان إلى أوائل العتبة، يتباطأ، يستند إلى حافّة الباب دون أن ينتبه إلى الأصوات الّتي لا شكّ أنّها كانت تخترق أذنيه اختراقا، والرّوائح المتنافرة، تأتيه من سوق ميدان العتبة القريب، ومنعطفات الموسكي، وأصحاب النّصبات الصّغيرة المنتثرة هنا وهناك، بعضها لا يبعد عن الوكالة كثيرا، منها ما هو على مرمى حجر، يعرف أصحابها جيّداً، ولطالما تعاطى مع بعضهم فيما مضى، ياه! الزّمن! ذلك وقت مضى، منذ وفاة والده انقلب كلّ شيء فيه رأسا على عقب، عاداته القديمة، صداقاته، هنا، في الميدان، ضحكاته المجلجلة، المدوّية، ونكاته الّتي لا تنقطع، مشاكسته لفتحي، أشهر سائق في الوكالة، حديثه مع مفتاح بلهجته الّتي تقترب كثيرا من لهجة أهالي طرابلس الغرب، مفتاح سائق أيضا، ارتبط مع الوكالة منذ ما يقرب من عشرين عاما، صار لا يستغنى عنه، علاقته معروفة مع الشّيخ محمّد السّويسي .رحمه الله.، هو الّذي شغّله، عامله كواحد من أبنائه، بدر وعبد المنعم؛ الآن، الذّاكرة .ذاكرته .مجرّد بلقع، صفصف يسيطر عليه الإعتام، بات غير قادر حتّى على استعادة ألصق الأشياء به، حتّى إنّه غدا لا يذكر اسمه إلاّ كما يذكر شيئا بعيدا لا علاقة له به،

تطيف به حالات هيمان، يشطّ به خياله، فيودّ لو فرّ بجلده، ترك كلّ شيء وراءه ، قبل أن تتطوّر به الحالة إلى ما هي عليه الآن، عرض على أخيه عبد المنعم أن يسلّمه الوكالة، قال إنّه تعب، ويرغب لو يرتاح، قال سيذهب بعيدا إلى مكان ما، لم يخف عبد المنعم قلقه ، سأله إلى أين ، قال لا أدري تحديدا، لكنّي أحسّ رغبة قاهرة في الهجاج، تحوّل قلق عبد المنعم إلى خوف حقيقيّ، بات يراقبه، يتبعه كظلّه، لا يترك له الفرصة للابتعاد عن مرمى عينيه، بدر هو الأكبر، نسخة عن أبيه ووريثه، وعبد المنعم هو أصغر الأبناء، لكن من يراهما الآن، يدرك أنّ كلّ الأمربات بيد عبد المنعم، هو المتصرّف الحقيقيّ، يستقبل الزّبائن، يتّفق معهم، يحدّد لهم موعد السّفر، ويهيّء الميكروباصات قبل انطلاقها في موعد محدّد لا تخطئه أبدا، السّابعة من مساء كلّ يوم!!... مزيج متنافر على وجهه الدّائريّ الصّغير، تلك الملامح الرّقيقة الحلوة، وهذه الغبرة المنفّرة الّتي صارت لا تفارقه، اضطراب حركات يديه، وهو يرفع أصابعه في بطء إلى مستوى رأسه، فيتخلّل شعره، زائغ البصر، كأنّما يستعيد مشهدا بعينه، كان آخر ما انطبع في ذاكرته قبل أن تكتنفه حالة الشّرود والهيمان، حدث غير مرّة أن استفاق مفتاح من نومه على الكنبة وراء المكتب في مواجهة الباب، كانت تأتيه، كأنّما من بعيد، من مكان مجهول ، أصوات ملتاعة، مندغمة، كان .في البداية .يتصوّر أنّها بقايا الأصوات الّتي كان سمعها أثناء النّوم، فلم يعرها اهتماما، ولكن مع الأيّام ، صار يمطّ أذنيه كلّما سمعها، فكّر: تلك الأصوات لم تكن غير آهات ممطوطة، متفجّعة، على غير مبعدة منه، كان ذلك بدر، ماذا به، همّ غير مرّة أن يسأله، أقبل، كان يقترب منه، ثمّ ينأى، ما له هو وذاك، ربّما تكون تلك مجرّد حالة من حالات القلق، الّتي لا يكاد ينجو منها أحد، لكنّ النّبر الحزين، الحروف المبتورة، الّتي .لشدّتها وحدّتها .كان يخيّل إليه أنّه يرسلها من أعماق أعماق قلبه ، «مسكين بدر، مسكين!» هكذا كان يقول لنفسه، حينما نزل القاهرة

أوّل مرّة، وقرّبه الشّيخ محمّد السّويسي منه، حيث كان يرسله بحاجات البيت إلى أهله، وفي الكثير من الأحيان كان يعزم عليه أن يتناول طعامه معهم، فهو كما كان يقول له .واحد من أبنائه، بل أكثر من ابن بالنّسبة إليه، فهو الّذي احتمل معه تعب السّنين ونهض بالوكالة كما لم ينهض بها أحد من النّاس، وصبر، لا أحد يجرؤ مثله على ترك أبنائه وزوجته، الأسابيع الطّوال دون زيارتهم والاطمئنان عليهم، مثله، لذلك عرف له الشّيخ حقّه، وحتّى قبل أن يموت، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان آخر ما انزلق من بين شفتيه، وهو يسرّ إلى ابنه بدر: «مفتاح، يا بنيّ، واحد منكم... استوصوا به خيرا، لأنام في قبري هادئا، مرتاح البال!!»... في البيت، كما في الوكالة، انتهى إلى الاستنتاج أن لا أحد مثل بدر، في حيويّته، هدوئه، حنوّه على الجميع، على والدته السّتّ توحيدة وأخواته البنات، درّية وزينب ونعمة، يبسط جناح رعايته على الكلّ، هكذا ربّاه أبوه منذ صغره، على المسؤوليّة، كان يأخذه إلى الوكالة حتّى من قبل أن يبلغ، كان يعدّه لليوم الّذي كان يعتقد أنّه سيأتي حتما، حينما تنقطع به السّبل، الموت نهاية كلّ حيّ، في السّنوات الثّلاث الأخيرة قبل وفاته، بدأ يستشعر ذلك التّعب الفجئيّ، لم يكن لمرض ألمّ به، ولكنّها بوادر الموت، بدايات المغادرة إلى عالم آخر، هو قطعا عالم غير العالم الّذي اعتاده، صار يلزم الفراش حينا، ويذهب إلى الوكالة حينا آخر، ولكنّه في كلّ ذلك لا يني يسأل عن بدر، إحساسه بالموت قرّبه منه أكثر، إذا التقيا أفاض إليه، يكثر من وصاياه الّتي باتت لا تنتهي، يبدأ بالوكالة وينتهي بها، صحيح أنّه لم يترك شيئا إلاّ أوصاه به، ولكن كانت الوكالة تسيطر عليه أكثر من غيرها، كانت أكثر من مصدر للرّزق .بالنّسبة إليه .. كانت تراث العائلة، رائحة المرحوم والده، والده عبد الرّحيم السّويسي، المهاجر الأصيل، الرّحّالة الّذي طاف كلّ برّ مصر من أقصاها إلى أقصاها، مذ غادر السّويس غداة اندلاع الحرب الأولى... ياه! الزّمن! ماذا تبقّى من ذلك الزّمن الآن؟ أين الشّيخ محمّد

السّويسي؟ بل أين تلك القعدات الحميمة الّتي كانت تجمعهم جميعا، بما في ذلك مفتاح، في صالة البيت الكبير في اللّيالي الشّتائيّة الطّويلة، حول كؤوس الشّاي، على أنغام الماضي يرتّلها الشّيخ على مسامعهم، كان كلّ عالم محمّد السّويسي محصورا في القاهرة، على خلاف والده عبد الرّحيم، لم يسافر، لم تطأ قدماه مجاهل بعيدة، أو تغرّب، كلّ شيء أسلس إليه قياده بالوراثة، ولكن من يسمعه يتحدّث، ويفيض في الحديث، يظنّ أنّه لم يترك بلدا إلاّ زاره، ولا مدينة من مدن الأرض إلاّ وألمّ بخفاياها، الّتي لا يعرفها إلاّ الضّالعون، يروي عن السّودان، ذوي البشرة المدبوغة، عن جزر إفريقيا النّائية، وسومطرة، والهند، وساحل العاج، وقد يحدث أن يقصّ الحكايات عن رحلات إلى الصّين على طريق الحرير... يشرئبّ بعنقه إلى البعيد، تطيف بعينيه غشاوة، أيّ أرج يغزو أنفه، أيّ سحر يأتيه من وراء تلك النّظرات الشّاردة، هل كان يبحث في فضاء الذّاكرة عن شيء ما، هل له تلك المقدرة العجيبة الّتي لا يتمتّع بها إلاّ الملهمون على استكناه خبايا المجهول؟ العجيب أنّه قابع، لا يريم من مكانه، لا يكاد يتعدّى حدودا رسمها لنفسه منذ أن انتهى إليه أمر الوكالة، كلّ خلطائه من القاهريّين، باعة الميدان القريب، بعض الطّارئين من المسافرين من بلدان أخرى، وناس غرباء كانوا يلمّون به من حين لآخر، لا يعرفهم أحد، ولم يحدّث عنهم أحدا، حتّى أبناؤه لا يعرفونهم، سأله بدرعنهم غير مرّة، وعبد المنعم، إلاّ أنّه كان يلتوي عليهم، نبرته إذا أفاض تسيل حنينا، ترقّ حتّى أنّها لتكاد تشفّ عن رغبة ما في التّماهي مع حدود الكون والعالم، لم يسمع قطّ يذكر أحدا بسوء، كان قلبه الكهل لا يتّسع لغير الحبّ والرّقّة، كان الماضي يطارده دائما، حلقات الذّكر الّتي ما انقطع عنها إلاّ بعد أن تقطّعت به السّبل، وألمّ به العجز والوهن، الأولياء والشّيوخ، عتبات النّجف الأشرف، هل كان زارها حقّا؟ أم أنّه الحنين الّذي يصوّر الحقيقة على خلاف ماهي عليه في الواقع!!... القاهرة العظيمة، في الصّباح

غيرها في المساء، وفي اللّيل غيرها في كلّ فترة من فترات النّهار، عالم يملؤه الضّجيج والعجيج، وتحاصره اللّهجات، وتزدحم فيه المناكب بالمناكب، والأجساد بالأجساد، لا شيء فيه يشبه شيئا آخر، يمتزج فيه الحاضر الصّاخب بالماضي العريق، تشي به تلك المنائر المملوكيّة، الّتي تطالعك من كلّ جانب، وأكثر ما تتراءى لك من على أسوار القلعة الخالدة... هذه القاهرة، أحبّها الشّيخ محمّد السّويسي، أكثر من أيّ شيء في حياته، وانتقلت عدوى هذا الحبّ إلى أبنائه الواحد تلو الآخر، حتّى البنات، اللّواتي لم يمنعهنّ تحجبّهنّ داخل البيت الكبير من زيارة المشاهد العلويّة، في الأعياد والمناسبات، بدركان أكثرهم عشقا للقاهرة بحكم ملازمته لأبيه، تشرّب حبّها قطرة قطرة، أحبّ ميادينها، أرباضها، مقاهيها، الّتي ما منها مقهى إلاّ وينسيك المقهى الآخر، الزّوايا الحميمة، المتخفّية وراء تطاول البنايات العملاقة العظيمة، الصّخب، الّذي كان يؤكّد استمرار الحياة، والوجوه الّتي كانت تنوء تحت ضربات الجوع، إلاّ أنّ البسمة الحلوة لا تفارقها أبدا... ياه! أيّتها القاهرة، أين أنت من هذا القلب الآن، هل بقي منك شيء لم يمّح في هذه الذّاكرة الّتي غدت أشبه ما يكون بالخرابة المهملة المنسيّة؟... في موقفه، بين الإقدام والإحجام، ما يمنعه من الهروب، من الفرار، أنّ عيني عبد المنعم المتيقّظتين تراقبانه، هو يعلم ذلك، رغم أنّ أخاه لم يكن بالوكالة، ولا في أيّ مكان قريب من الوكالة، كان ينظر ولا يرى، عيناه مشدودتان إلى نقطة مستحيلة، لا يحدّها إلاّ الحاجز القائم أمامها، رنّ جرس الهاتف، استمرّ الرّنين، لا يبدو عليه أنّه سمعه، في لحظة ما تناهى إليه صوت مفتاح:

.عبد المنعم على التّلفون!

ردّ عليه في تبرّم دون أن ينظر إليه:

. وماذا يريد؟!

.قال إنّه يريدك.

لم يجد في نفسه الرّغبة لمواصلة الحديث، سكت، عاد إلى حالة الشّرود الأولى، ويبدو أنّه قد نسي تماما أنّ مفتاح كان يخاطبه، الصّمت، السّكون، حتّى ولا نأمة في الوكالة، كأنّ داخلها معزول عن الغليان في الخارج، الباب صفيحة كبيرة من الفولاذ ترفع إلى أعلى عند فتحها، وفي الإغلاق تسحب إلى أسفل، في المقدّمة، إلى يمين الدّاخل، مكتب عبارة عن طاولة من الخشب، قد غطّت سطحها خرقة من القماش، عليها تلفون وبعض الدّفاتر والفواتير، ولا شيء غير ذلك، وراء المكتب تماما كنبة كبيرة ينام عليها مفتاح في بعض الأحيان، أو عبد المنعم إذا اضطرّ أن يقضي فترة الظّهيرة بالوكالة، هناك مروحة كهربائيّة، وكرسيّ إلى اليسار، لا يندر أن يأتي مسافر فيدعى إلى الجلوس عليه، تتّصل الوكالة، بباب صغير بمطعم خلفيّ، يؤمّه بعض المسافرين الّذين غالبا ما يغادرون في المساء على إحدى ميكروباصات الوكالة... الأنظار، تلك الّتي كانت تتطلّع إليه عن قرب، تتفرّس فيه دون خجل، تحدّثه دون تكلّف، أصبحت ترمقه من بعيد، كأنّها تخشى أن تقترب منه فيعرض عنها، أو يتجاهلها، محروس، ذلك الفتى الصّعيديّ، القادم من سوهاج، يحمل فقره وخلّته، وبعض الأماني في أن يصبح شيئا ما، في عالم القاهرة المائج، ساعده الشّيخ محمّد السّويسي، بماله، كفله، حنا عليه كما تحنو النّاقة على الفصيل، لم يمرّ عليه يوم كهذه الأيّام العجاف، الّتي يحسّ بها تضيّق عليه الخناق الآن، وتحاصره من كلّ جانب، لم يعرف في القاهرة غير ميدان العتبة، وفي ميدان العتبة. على شسوع مداه واتّساعه. لم يعرف فيه غير بيت الشّيخ السّويسي، والوكالة، حيث فتح في إحدى زواياها كشكا صغيرا لبيع السّجائر والشّاي، وبعض الأشياء الصّغيرة الأخرى، الّتي كانت تدرّ عليه مبلغا لا بأس به، في زمن ليس بالبعيد، كان يغادر غرفته الصّغيرة في سطوح إحدى العمائر، تملؤه حيويّة كان يستمدّها من أنسه ببدر،

وخلوّه إليه في غفلة من الزّمن، في ساعات الصّباح الأولى، حيث يهرع إليه، في يده كوبا الشّاي، وعلبة السّجائر، يطلق تحيّة الصّباح بلهجته الصّعيديّة الّتي لم تغيّرها سنواته السّبع الّتي قضاها بالقاهرة، ويقرّب الكرسيّ من المكتب، ثمّ يعلن بنبرة حلوة لا تخلو من بعض السّخرية العذبة: «الوليمة جاهزة، يا سي بدر!»، ترنّ ضحكة بدر مليّا في الوكالة، ويبادله سخرية بسخرية: «إذا كانت هذه وليمة، فماذا تكون الوليمة الحقيقيّة؟!»؛ كانت تلك لحظات نادرة، تتبادل فيها النّكات، وتختصر فيها الحياة إلى صوتين متقاربين، لا تعكرّهما جلبة أو ضوضاء... محروس كان يضحك دائما، لا يحزنه شيء على الإطلاق، ولا يحلو له شيء كالمزاح، ينظر إلى بدر معاتبا، ويقول: «أنت، يا سي بدر، لا تنظر إلى الأشياء إلاّ في ظاهرها فحسب؛ هذه الوليمة الّتي لا تعجبك هي الوليمة الحقيقيّة، يكفي أنّها تقرّبنا من بعض، فنتحدّث خلالها دون تكلّف، ولا مواربة... تجمعنا كلمة طيّبة، وتفرّقنا كلمة طيّبة!!»، ما يفتأ بدر أن يضمّ صوته إلى صوت صديقه، فيعترف له أنّه كان يريد إغاظته فحسب، فيدنو منه ويتناول كوب الشّاي شاكرا، ويدخل يده إلى جيبه فيخرج علبة سجائره، يسحب سيجارة يقدّمها إلى محروس، قائلا: «عزمتني على الشّاي، وأنا بدوري أعزمك على سيجارة!»، تندّ عن محروس ابتسامة ذات معنى، فيردّ عليه: «أنت لا تعزم، يا سي بدر، ولكن يعزّ عليك أن أقدّم إليك شيئا، فلا تردّ الكرم بالكرم، أنا أعرف طبعك، فلا داعي للمراوغة...»، ثمّ يصمت قليلا، تسرح عيناه في المدى كأنّه يستعرض شريطا من الذّكريات الّتي عفت، ويختم حديثه قائلا: «أنت، يا سي بدر، كما يقولون، نسخة من أبيك، ومن شابه أباه فما ظلم!»... ما أبعد بدر عنه، في هذه اللّحظات، ما بينهما كما بين السّماء والأرض، يعزّ عليه ابتعاده، رغم قرب المسافة الّتي تفصلهما عن بعض، ولكن ما حيلته، لا أحد أضرّت به هذه القطيعة كما أضرّت به هو، فقد في بدر كلّ شيء، فقد تراث السّويسي، الكنّ، الصّحبة، وفقد فوق

كلّ ذلك حلمه الّذي طالما منّى نفسه بالظّفر به، نعمة، أصغر البنات، كان يدرك أنّها تبادله حبّا بحبّ، وأنّها تميل إليه أكثر من غيره... تنتهبه الحسرات، يبكي مصيره بعد أن أضاع كلّ شيء، ولا يملك إلاّ أن يرسل تلك النّظرة الأسيانة إلى باب الوكالة حيث يقف بدر كالخيال، آه، ما أشقاه بنفسه، وما أشقى نفسه به!!... الأسرة، ماذا تعني هذه الكلمة، الأبناء، الزّوجة، آه لشدّ ما ينسى!!، هل أحبّ أحد من النّاس زوجته مثلما أحبّ هو زوجته؟!! نفح الحبّ الّذي كان يجتنيه. قبل الزّواج. في الزّوايا المعتمة، تحت السّلّم، المواعيد المضروبة في الخارج، بعيداً عن أعين الرّقباء، همسات الغرام، غمرات الدّموع، القصائد الّتي كانت تترجم عنها النّظرات أكثر من الكلمات، اشتباك اليدين، رجفة الخدود، وبدر لم يحبّ في حياته فتاة كما أحبّ سكينة، وسكينة لم تحبّ في حياتها أحداً كما أحبّت بدر، حتّى ذهب حبّهما مضرباً للأمثال؛ هذا الاختلاج ليس اختلاج الحنين، هذا الضّياع، المدى يضيق أمام عينيه، يودّ لو يتشظّى، لو تذرّيه هذه النّسمات الرّقاق الّتي تتردّد أنفاسها داخل الوكالة وخارجها، الحزن لا يفعل كلّ ذلك، لا، إنّه ليس الخوف، أو التّوجّس من شيء ما، لا تكون تلك إلاّ حالة من حالات العطالة القاتلة، ربّما ينتظر حدوث شيء ما، أيّ شيء، يخشى دائما النّظر إلى خلف، وإذا نظر إلى أمام فاصطدمت عيناه بالكوبري الإسفلتيّ، وتلك الأجساد المتعرّقة الّتي يزدحم بها الميدان سرعان ما يشيح بعينيه إلى الأعلى، يحسّ بقدميه ثقيلتين، كالرّصاص، يداه متهدّلتان، متعبتان، جسده ينوء به، كأنّه محتضر في لحظات النّزع الأخيرة، ما آخر الكلمات الّتي يودّ أن يفضي بها، ولمن يفضي، قطعا ليس ذلك عبد المنعم، ولا والدته السّتّ توحيدة، الّتي ما انفكّت تبكيه بدمها ودموعها، لأنّها فقدته مرّة، وإلى الأبد، سوسن الصّغيرة، فتاته الغريرة ابنة الثّلاثة عشر ربيعا، ذات الشّعر الذّهبيّ، والعينين الزّرقاوين الرّائقتين، أوولده مجد، لا، لا، فلتأت النّهاية، فلتنطبق السّماء على الأرض، فليس له ما

يفعله هنا، قاهرة صباه تتلاشى الآن أمام عينيه، شيئا فشيئا، كلّ شيء ينهار، ينهار، إلاّ صورة والده، تطفو على كلّ ما عداها، في لحظة يودّ لو يمرّر فوقها كفّه، ليزيل عنها ما علق بها من الغبار، يودّ لو منحته السّماء أجنحة شفيفة ليتطاول حتّى يبلغ تلك اليدين المتعرّقتين، فيشبعهما تقبيلا، وينهنه على صوت دموعه، وتلك النّبرة الغريبة الّتي تسيل على شفتي والده:

.لو تعرف معنى الدّموع، يا ولدي، لما توقّفت عن البكاء أبدا... لكن، لم يفتك شيء بعد، لأنّك منذور لسرّ غير السّرّ، وحياة غير الحياة، فلا تبتئس، ولا تندم!!

((٢))
. السّويسي .

أشياء كثيرة... كثيرة جدّا تتخايل أمام عينيه الكليلتين الهرمتين، أشياء لكثرة ما ألحّت عليه أصبح يتفاداها كما لو كانت كابوسا، وهي في الحقيقة أشدّ عليه من الكوابيس الّتي أصبحت لا تخلو منها ليلة من ليالي شيخوخته الطّويلة المؤرّقة... جرّب في البداية أن يفكّر بهدوء، أن يتوخّى سياقا ما، وأن يرتّب الأشياء كما كان يفعل في أواخر صباه وأوائل شبابه، كان يسترجع الأحداث في ذاكرته ويسجّلها، يدوّن كلّ شيء، ودائما وفق تسلسل زمنيّ دقيق ومضبوط، وكان دائما ينجح في ذلك، بل إنّه اعتاد هذا الضّرب من السّلوك، حتّى صار شاغلا لذيذا كثيرا ما كان يملأ به أوقات الفراغ الّتي ما كان أثقلها وأمضّها!!... نفس الهواية صارت الآن هاجسا، والأشياء الّتي كانت تتبادر إليه في تسلسلها ومنطقيّتها غدت همّا أثقل عليه من هموم القلب، تشاكسه، تتضخّم، تتكوّر، تتمطّط، وتتمدّد، وهي خلال ذلك كلّه لا تأخذ صور الأشياء العاديّة، بل تداهمه في شكل نقاط سوداء متداخلة تومض سريعا في مدى رؤيته المضطربة، ثمّ تختفي، وما تفتأ أن تعود لتمارس نفس اللّعبة الجهنّميّة... الفراغ، كلّ ما يحسّه الآن إمّا ضرب من الفراغ أو مشتقّ منه، لا أصوات، حتّى ولا نأمة تشي ببداية الحديث ومولد الكلام، وهو لا يكترث لهذه الأصوات إن وجدت، ولا لهذا الكلام الّذي سوف لن يزيده إلاّ اضطرابا ينضاف إلى اضطرابه الأوّل... نادرا ما تطأ قدماه أرض العلّية إلى النّافذة المقابلة، وهي ليست نافذة بقدر ما هي كوّة صغيرة لا تفتح على غير الظّلمة والصّمت... كانت تلك مقبرة

بلا قبور، لا شواهد، لا أشكال لمعالم ما، ولا حتّى رائحة الموت الّتي لا يخطئها أيّ أنف، أهل الحيّ اختاروا ذلك، أرادوا أن يمحوا كلّ أثر لموتاهم حتّى لا يكلّفوا أنفسهم عناء زيارتهم في كلّ مناسبة... وهو إن انتقل إلى تلك الكوّة، فلا ليمدّ طرفه إلى ما وراءها، فقد أصبح تقريبا في عداد العميان، وإنّما ليتخلّص من تلك الأشياء اللّعينة الّتي كانت تملأ عليه خواء ذاكرته... أغلب الوقت في السّرير، لا ينتقل منه إلاّ إلى تلك الكوّة، بحكم العادة يذهب إلى هناك، العادة وحدها رسّخت المسار في ذهنه، يزيح اللّحاف عن جسده الضّامر الضّعيف، يتحرّك في شبه نصف دائرة إلى اليمين، يعتمد بيديه على الحشيّة، ويتقدّم باتّجاه الحافّة، حتّى إذا ما استشعرت قدماه المحرشفتين برودة البلاط، استقام بجذعه المهدود، وخطا خطوات متعثّرة متلكّئة إلى ملجئه الأثير... كثيرا ما تساءل بينه وبين نفسه: ما الدّافع الّذي كان يقوده إلى هناك؟! أهو ذلك الشّعور الغريزيّ باقتراب الموت؟! أم هو شيء آخر لا يفهمه؟!... تسعة وسبعون، بل ثمانون إلاّ أشهرا قلائل، لا يدري كيف انطوت، عبرت كما تعبر خاطرة، أو حلم جميل، انتهبته المشاغل، استغرقته الحياة، كرّس نفسه للعائلة، للزّوجة، والأبناء، والوكالة، فنسي نفسه، أحيانا، في لحظات الخلوّ، وما كان أندرها، يشعر بوخزة ندم، يحسّ أنّه مقصّر، ليس في حقّ من هم في كفالته، وتحت رعايته، فهو والحمد لله. كما كان يقول. «كفّى ووفّى»، بل نفسه ما يشعر حيالها بالتّقصير، منذ صباه كان مختلفا، لم يكن ميّالا إلى اللّعب كبقيّة الأولاد من لداته، يحلو له الذّهاب إلى وكالة أبيه في السّويس، يجلس على دكّة قريبة من المكتب، ويمدّ طرفه إلى تلك الباصات الصّغيرة القابعة في الرّحبة، من حين لآخر كان يدخل زبون، فيتفرّغ له والده، يسأله عن وجهته، ويتّفقان على الثّمن... كان يرى والده يسلّم الزّبون إيصالا بالمبلغ وموعد السّفر... كان يجهل كلّ شيء عن لحظة السّفر تلك، لأنّ كلّ شيء كان يتمّ في المساء، وهو يغادر إلى البيت مع والده

عند الظّهيرة، تلك لحظة سيعتادها فيما بعد، سيتآلف معها، وتصبح من أحبّ اللّحظات إليه... وهو في قمّة الانسجام مع زوجته، يرتاد ذرى النّشوة، يحدث أن ينكص، أن يتشظّى، وبدل أن يذوب داخل الجسد اللّدن السّاعي إليه، يحوشه بعيدا، يصدّه بفظاظة أقرب إلى العدائيّة، يستقبل بوجهه الحائط المواجه، تفرّ من عينه اليمنى دمعة كبيرة ما تفتأ أن تنحدر حتّى تتخلّل لحيته الغزيرة الصّهباء. يغمغم بحسرة:

«آه، يا سويسي، ماذا فعلت بنفسك!!»

العالم، عالمه القديم، الضّوضاء الّتي قلّما كان يخلو منها يوم من أيّامه، والعلاقات الّتي فاقت الحصر منذ أن فتح الوكالة بالعتبة، والأصوات الأثيرة، تلك الّتي كانت تصله من الميدان القريب، مزيج من نبرات شتّى تضوع بروائح الزّمن، وهي تنادي على الحلاوة البلدي، والكنافة، والأشياء الصّغيرة الأخرى، بطاقات للذّكرى، أقلام حبر، مصاحف مزوّقة، في حجم الكفّ، كلّ ذلك عفى الآن، كما عفى كلّ شيء من قبل، الحبّ والرّغبة ودعة السّكون!!... لسنوات قليلة فقط، كان الميدان . ميدان العتبة . كلّ شيء في حياته، وكانت الوكالة حلقة الوصل الّتي تؤكّد انتماءه إلى هذا الميدان، غير بعيد عنه، يضطرم كون القاهرة العظيم، يشعر أنّه مرتبط به بأسباب وثيقة العرى، لاتنفصم، في قعدته الصّباحيّة، وهو جالس على كرسيّه أمام باب الوكالة، قدمه اليمنى تحت باطن فخذه، لم يكن يتبادر إلى ذهنه أنّه غريب عمّا حوله، وأنّ ما حوله غريب عنه، بل أنّه كان يعتقد أنّه كان يعرف كلّ سرّ من أسرار هذه المدينة الفاتنة القلّب، وأنّ كلّ شخص، حتّى ولو لم يكن رآه من قبل مألوف لديه، معرفة قديمة، يحدث أن يبتسم في وجه شخص ما، يبدي انعطافا، تبدو منه رغبة في الحديث، أمام دهشة الطّرف الآخر واستغرابه. بعضهم سأله:

. هل تعرفني؟!

يكتفي بالابتسام، لا يجيب، ربّما شيء في داخله كان يدعوه إلى ذلك السّلوك، إحساس ما بالرّحيل إلى الآفاق البعيدة والأقاصي لامتناهية الشّسوع رغم مكثه ولزومه المكان، ذلك ما كان يدفعه إلى الهشاشة، إلى السّؤال في الكثير من الأحيان، الوجوه الّتي تمرّ أمامه كلّ يوم، المناكب المتدافعة، والأصوات الّتي أصبح يميّز جرسها وحدّة نبرها رغم اختلاطها، تثيرفيه مكامن ما، عواطف خالجته في هذا البلد أو ذاك... يتردّد على الوكالة، كلّ يوم عشرات الزّبائن، كلّهم مجرّب، ما منهم واحد إلاّ وقد قام بعدد لا يحصى من الرّحلات، ولكنّهم حين يتحدّثون إليه يحسّون أنّهم لم يسافروا، أنّهم لم يفارقوا أوطانهم البتّة، يحدّثهم عن بلدان كثيرة زاروها، عن أشياء صغيرة دقيقة، لا ينتبه إليها عادة، يستغربون، يندهشون، يسأل بعضهم بعضا: هل زرنا فعلا هذه البلدان؟... ما زاد في استغرابهم، ما ضاعف بلبالهم أنّه مقيم، منذ صباه وشبابه لم يغادر دربه إلى أيّ مكان، يتفادى أسئلتهم، لا يجيب عن استفساراتهم، وبدل ذلك يزوغ، يذكر لهم أسماء غريبة، يورد لهم تواريخ قديمة، تنتمي إلى عصر دابر، مدن لم يسمعوا بها من قبل، وعرفوها منه لأوّل مرّة، أسماء لأماكن لم يكونوا يعتقدون أنّها موجودة أصلا، وأكّد لهم وجودها... وهو من البيت إلى الوكالة، وخلال قعداته الصّباحيّة المسائيّة على كرسيّه الخشبيّ يراقب عالم الحاضرة الكبير، يحلم، يحيك في خياله دروبا لرحلة قادمة، رحلة طالما تمنّى لو كانت رحلته هو!!

.آه ، يا سويسي!!

تندغم الصّور في ذهنه، تتفتّت عرى الذّاكرة، أحداث تبرق للحظة أمام عين بصيرته، ثمّ تتلاشى، لو كان يرى على الأقلّ، لو كان يملك أن يتحكّم بالمشهد المحيط به في العلّية، سيكون بإمكانه أن يضيء المصباح، وأن يغافل هواجسه، يداريها بالتّركيز في شيء

ما، سيغادر السّرير ويجلس على الدّكّة المركونة إلى جانب الجدار، أو يقصد المشربيّة، فيبلّ ريقه بشربة ماء باردة، سيكون بإمكانه أن يفعل أيّ شيء حتّى يخلّص نفسه من أحابيل هذه الكوابيس الّتي ما تفتأ تلاحقه... يرفع يده، يمرّرها أمام وجهه، تنطلق من بين شفتيه غمغمات تشي بانخذاله وقهره، قدره أن يتعذّب، أن ينسحق وحيدا، في هذا المكان، وسط ظلمة تآمرت عليه منذ أن بدأ ينطفئ نور عينيه شيئا فشيئا... قال له بدر، ابنه البكر، لا تصعد وأنت في هذه السّنّ، ستكون الوحدة قاسية عليك، هنا على الأقلّ أنت معنا، بين أبنائك وأهلك، غير أنّه أصرّ، ألحّ حتّى علا صوته، وأبدى حنقا، فرضخوا وتركوه وشأنه، آه، لكم كان متطرّفا، لكم قسا على نفسه، قال لبدر أريدك أن تنزع باب العلّية، اكسره، ضع مكانه حجرا، لا أريد أن أرى أحدا، ولا أريد أن يراني أحد، وانصاع بدر لأمره، ولكنّه اتّخذ في العلّية منفذا سرّيا، دون إعلامه بذلك، كان يتردّد عليه من حين لآخر، يحمل إليه طعامه وشرابه، كان يظنّ أن الجوع والعطش سيكسرانه، سيحطّمان كبرياءه، ولكنّه كان مخطئا، الطّعام والشّراب اللّذان كان يحملهما إليه كانا يظلاّن على حالهما، لا يمسّ منهما شيئا... من أين يشرب؟! من أين يأكل؟! أيعقل أن يظلّ كلّ هذه المدّة بلا مأكل ولا مشرب؟!! بدر كاد يجنّ، احتار في أمره، ومع الأيّام صار والده . في نظره . لغزا يعسر على الفهم... ينكفئ على نفسه، يتكوّر بجسده الضّئيل، خمدة تعتريه ولا يستطيع مقاومتها، تنغل داخله، ويحسّ بها تسري مع الدّم إلى أخمص عظامه، لم تجد البطّانيّة نفعا، أمام شتاء هذا العام، يواجهه ببقايا صبر ورحلة ثمانين عاما، شدّ اللاّسة على رأسه، قلوظ حولها العمامة، زحف بإعياء، تحت اللّحاف، في لحظة ما، ودّ لو يقول شيئا، ولو إلى نفسه، ودّ لو يتحدّث مع شخص ما، ودّ لو يصرخ بملء فيه، أخرجوني من هنا، فقد سئمت، كنت مخطئا، ترى أين بدر؟! أين أبناؤه...؟! الحقائق تغيم أمام عينيه كما يغيم كلّ

شيء آخر، والفرق بين الوجود والعدم، والموت والحياة، ليس سوى اختلاف في الأسماء، هل تزوّج حقّا وأنجب؟! هل كان له أبناء؟! لكن لو كان له أبناء، لما تخلّوا عنه، كانوا زاروه ولما تركوه وحيدا!!... يتقلّب، بتأثير الوهن والضعف، ينضاف إليهما ألم الشّيخوخة، البرد قاتل، يحاصره، يقتحم عليه البطّانية، ويخترق ملابسه إلى شغاف القلب، يلوّث روحه، وهو لا يملك إلاّ أن يستسلم... ألم يكن هو الّذي صدّ بدرا، وأغلظ له في القول؟ ألم يكن هو الّذي أوصد جميع السّبل في وجهه؟!! فلماذا يحتجّ إذن؟! لماذا ينكسر ولم تعد تفصله عن النّهاية سوى خطوات؟

.المرض، لعنة الله على هذا المرض!!

كان يسأل نفسه، من حين لآخر، في الأوقات القليلة الّتي كانت تزايله فيها الهواجس، ويخلو فيها إلى دعة تذكّره بدعة سني عنفوانه وشبابه: أين بدر؟... كان يعلم أنّه كان يزوره، كان يقتحم عليه عزلته على أطراف أصابعه، محاذرا أن يزعجه، يطمئنّ عليه، كان دائما أقرب أبنائه إليه، ليس فقط لأنّه ابنه البكر، بل لأنّه كان له مثلما كان هو لأبيه، هادئا، رصينا، يفعل ما يؤمر به، بغير كلام كثير... فأين ذهب بدر؟ بل أين ذهب الجميع؟... مجرّد أصوات تأتيه من تحت، ضعيفة، وانية، أشبه بالصّدى أو الرّجع، تتناهى إليه، يحاول أن يميّزها، كان يتمنّى أن يلمس فيها أصواتا مألوفة طالما ألفها، يستنفر ذاكرته، هذا صوت... عبد المنعم! لا، لا، صوت عبد المنعم خشن نوعا ما، أجشّ، وهذا الصّوت أقرب إلى النّعومة!!... ينتظر برهة أخرى، يوشك أن يغادر سريره، إلاّ أنّ البرد وجسده لا يطاوعانه... هذا صوت... فتحي، لا يذكره إلاّ والسّيجارة في فمه، صامت أغلب الوقت، لا تعرف متى يختفي ومتى يظهر، غير أنّه إذا أخذ مكانه وراء عجلة القيادة، تحوّل إلى إنسان آخر، مغاير، مخالف، هو أشطر سائقي الوكالة، الكلّ يعترف له بذلك،

حتّى الزّبائن، أوّل سؤال يطرحونه إذا دفعوا وتسلّموا الإيصال: من السّائق لهذا المساء؟ يبدون ارتياحا إذا سمعوا اسمه، ويغادرون وهم يعلمون أنّ السّيّارة ستنطلق في الوقت المحدّد، وستصل بسلامة الله في موعدها المحدّد أيضا... لا، لا، هذا ليس صوت فتحي، إنّه يعرف صوته جيّدا، ولا يمكن أن يخطئه أبدا... فأصوات من هذه؟! أصوات من؟!... أحيانا ينتابه إحساس، مجرّد شعور غريزيّ، بأنّه النّاجي الوحيد من كارثة ما، وأنّ ما يجوز على غيره لا يجوز عليه، لا يدري تحديدا، يجهد أن يستغرق، يطلّ من بوّابة ذاكرته على مملكة الزّمن، ألا تكون قد أخذته سنة من النّوم؟! ألا يكون قد عبر في نومه سنوات وعقودا، وخلال ذلك كلّه، راحت أجيال وتبدّلت أشياء؟!... كان شعورا طاغيا، ملحّا، ما يفتأ يلاحقه، وكلّما تناهت إليه تلك الأصوات الغريبة من تحت ازداد اقتناعا بصدق ذلك الشّعور!!... ينتابه خوف ممزوج بنشوة إذ يتبادر إليه ذلك الإحساس، كان يودّ لو كان بجانبه أحد ما ليفضي، يفصح عمّا بداخله، كان سيقول إنّ الله أخيرا عوّضه خيرا، وإنّه لا يحرم من شيء إلاّ ليعطي شيئا آخر، يأخذ باليمين ويعطي بالشّمال، سبحانه في علاه، حالة هي أقرب إلى حالات الإلهام والنّبوءة، لم توافه من قبل، ولم يفكّر فيها إطلاقا، إذ كان السّعي منه أمكن، والجهد أضنى، ألم يكن الأولى لو وهب ما كان سيوهب وهو فتى، في مقتبل العمر؟ لكن لا بأس، المهمّ أنّه منح شيئا، وأنّ ما منح ليس مثل كلّ ما يمنح، أن تمنح الزّمن، أن ترى بعيني وجهك وعين بصيرتك، هذا ما لا يتهيّأ لكلّ النّاس، يأخذ المخدّة فيقرّبها إلى مسند السّرير، ويسحب نفسه باتّجاهها، ويريح رأسه عليها، تشرئبّ عيناه المنطمستان نحو السّقف الّذي كان يبدو له لوهلة عدائيّا، محايدا، تطيف به خمدة، يغيض الدّم في أعماقه، يتمكّن منه دوار، تنبس شفتاه في وهن أصواتا مندغمة، وفي لحظة استسلام، تداهمه صور، لم تكن في يوم من الأيّام أشدّ وضوحا منها اليوم... تمتدّ أمامه المسافات، صحارى قد سفعتها

شموس صيفيّة حارقة، تشمخ قباب، وبنايات، وتضطرب أرجل عبر الأزقّة والممرّات، أشياء لم تعتدها قطّ عيناه، أصوات ولهجات لم يستأنس بها، لكنّه كان يحسّ إحساسا غامضا أنّها ليست غريبة كلّ الغرابة، وأنّه قد يكون سمعها في يوم ما، أو صادفته في مكان ما، لكن لا يدري تحديدا كيف كان ذلك، أو كيف حدث ذلك، يدرك لاجدوى الأسئلة، عدم فائدتها، يعرف أنّ جريه وراء استفسارات ما، لجاجته، قد تفسد عليه ألق اللّحظة وسناءها، بادر، استوفزت فيه كلّ جارحة من جوارحه، فتوّته الدّابرة تحلّ فيه فجأة، وهنه، ضعفه المقيم، يزايله كلّ ذلك إذ يرى تلك الوجوه، تطيف به، تبشّ، تهشّ له، تسأله عن الصّحّة والأحوال، ينعقد لسانه برهة، تفور في رأسه أسئلة شتّى، كيف يجيب؟، ماذا يقول؟، يحيطون به، يتبسّطون له كي تزايله دهشته، هل يفهمون عليه إذا تكلّم؟، هل يحاول تقليد لهجتهم المفخّمة ولغتهم المقعّدة؟!!، على قدرحرجه كانت سعادته، أخيرا يظفر بصحبة ما، صحيح يكتنفها التّناقض، هذا ممّا لا شكّ فيه، لكن من شأن هذه الصّحبة أن تحطّم حاجز الوحدة الّذي يسيّج حياته.

.أنا أبو عبد الله!!

ليست هذه المرّة الأولى الّتي يسمع فيها مثل هذا النّداء، نداء يجلّ عن كلّ وصف، كأنّه آت من الأعالي، أو نابع من أعماق ذاته الخفيّة، تلتبس عنده الرّؤية الآنيّة بمجهول مطلق كلّما سمعه، وتعتريه أريحيّة، لا يذكر أنّها استخفّته حتّى وهو يتوقّد فتوّة وعافية، كيف يصفه، أيّ الكلمات تستطيع أن تحيط بمداه ومراميه، يستنفر مطلق الكينونة، يلج دهاليز الصّمت بداخله، كان يريد أن يسبغ عليه نعوتا ارتبطت لديه بأحبّ الأشياء وأقربها إليه، حلقات ذكر صباه، مرابع الشّمل الصّوفيّ، حيث الإيقاع المنغّم يتماهى مع هزّات الرّؤوس وحركات الأبدان، والشّيخ يدور ويدور، فينبثق النّور، ويتضاعف، ويستحيل

الحوش الكبير في الدّاخل إلى حركة واحدة، ونغمة واحدة، وشوق واحد... وصوت واحد تردّده نسمات الفجر الأولى: الله حيّ، الله حيّ... لا يذكر تاريخا محدّدا، أو يوما محدّدا لأخذه العهد، عهد المحبّة، كلّ ما يذكره تلك الأصوات، تلك الأصوات فقط، أصوات إذا كان لها مثيل، فهذا الصّوت الّذي يسمعه الآن، يحسّ بالخدر حيالها، ليس ذلك الخدر الّذي يسبق قشعريرة الخوف، وإنّما خدر لذيذ يختصر مطلق الشّوق والتّجلّي... أوائل المساء، بدايات اللّيل، موعد لم يخلفه طوال أربعين عاما، يتهيّأ له بقلبه ونفسه وجوارحه، يحرص أن يلقي بكلّ شيء خلف ظهره، وأوّل ما ينسى أقرب شيء إليه، وهو الوكالة، يضع لاسته على رأسه، يلبس جلبابه الأبيض، ويرخي شاله المزركش على عنقه، زوجته إذا رأته على تلك الهيئة لا تسأله، تعرف وجهته مسبقا، يجذب الباب جذبة خفيفة، ويستقبل الشّارع الطّويل المترب، لكم استغرق فنسي نفسه!! لكم ألمّت به حالات السّعي، وهو سار، فخضّت جسده الضّامر هزّات التّرانيم، وهي تأتيه عبر حنينه المسافر إلى عتبات الحوش، وانتظام حلقة الذّكر! لكم نأى في غيابه وحضوره على حدّ سواء، يلقاه من يعرف، يسلّم عليه، لكنّ لبّه مشغول، ذهنه ساع وراء لحظات الشّطح... يشرد برهة أمام سموق النّخلة، يسرّح طرفه في جدائلها المتهدّلة، ثمّ يلج العتبة إلى فناء الحوش... يسبق الجميع حتّى يختلي لحظة بشيخه، يخفّ إليه، يهرع، يحتضن يده النّحيلة المتغضّنة بين يديه فيلثمها ويقرّبها من جبهته، لا يتكلّم ويترك شيخه يبدأ الكلام دائما... يجلس على مبعدة يسيرة، يطأطئ رأسه، يلمس الشّيخ فيه حرجا ووجلا، فيبتدره بكلمات عذاب ونبرة أعذب:

.هيه، كيف أصبح حبّنا في قلب مريدنا؟!!

يرفع رأسه، يخفضه ثانية، ثمّ يرفعه ويخفضه، ويقول هامسا:

.وماذا يملك المريد من نفسه غير حبّ شيخه وأهل ولائه!!

لا يزيد كلاهما على ذلك، فما بينهما كان موصولا دون كلمات، يكفيه من قعدته تلك أن يلطو بجانيه، يتنسّم ذلك العبير وتلك الرّائحة الّتي كانت تملك عليه كلّ أمره، تأتيه من كلّ مكان، شذاها العبق ينبعث حتّى ليمتزج في أنفه برقاق النّسمات، ويجوز إلى كيانه مع مسرى الدّم، ينظر ناحية الشّيخ، وقد امتدّ بصره إلى نقطة غير مرئيّة في الفراغ، تستقرّ نظراته على تينك الشّفتين الرّقيقتين، وهما لا تنيان تتحرّكان دون توقّف، ترى أين يجوز الآن؟ أيّ الأماكن تستقبل النّفحة؟... كان يعرف أنّ شيخه يديم السّفر، لا يستقرّ به حال، رغم أنّه لا يرى إلاّ وهو ملازم لمجلسه، وقد نما إليه ذلك بمحض الصّدفة، حتّى أخصّ الخلصاء يجهلون هذا الأمر، لم يطّلعوا عليه من قريب أو بعيد، وهو الوحيد الّذي علم، ولمّح إلى الشّيخ مرّة، فأوقفه، نصحه بالتزام الكتمان إذا كان ينوي مواصلة الدّرب حقّا، الطّريق صعب، قال له، ومن أخصّ خصائص المحبّة الكتمان، أشار إلى الحسين، استدلّ بالمأثور من أقوال المتقدّمين، كان الشّبليّ يردّد: أوّل المحبّة حرق، وأوسطها غرق، وآخرها قتل، والحسين قتل لأنّه لم يكن قادرا على الكتمان!!... ذات يوم، بكّر في المجيء، على غير العادة، ألفى الحوش ساكنا، والفناء ما تزال به آثار اللّيلة السّابقة، جاز إلى الخلوة، كان الباب مواربا، ولكنّه لم يكن مغلقا، كاد يرتدّ على عقبيه، استدار، خطا خطوة إلى الأمام، إلاّ أنّ صوتا مهينما رقيقا استوقفه، تسمّر في مكانه، تملّكه اضطراب، هل يقدم أم يحجم؟ ألا يمكن أن يكتشف الشّيخ الأمر، فيعاتبه؟ ألا ينقض العهد إذا غلب فضوله على اتّزانه...؟! مدّ رأسه في حذر، بهر عينيه نور علويّ غريب، رأى شيخه يرتفع قليلا قليلا حتّى صار بين أرض الخلوة وسقفها، أوشكت أن تخرج من فمه آهة، أمعن النّظر ثانية، لابت عيناه هنا وهناك، ولكن لا أثر للشّيخ، دفع الباب، نادى بأعلى صوته، فأجابه صوت:

.عد إلى دارك، فشيخك في «الدّيوان»!!

لا يظلّ في ذهنه من آثار الصّوت سوى الكلمة الأخيرة، ولوقعها في نفسه حنين وتوق، كانت الكلمة . فيما مضى . لاتعني له شيئا، مجرّد احتمال لدلالة لا تختلف عن باقي الدّلالات، قد تثير فيه نوعا من الاحترام تجاه الشّيوخ والأولياء، لأنّه تربّى في كنف أب شيخ، وقور، ووالدة مسنّة، لا تلمّ بها ملمّة، أو يعتريها أيّ عارض من العوارض إلاّ هرعت إلى مزارات الأولياء وأهل الطّريق، هناك تدعو وتطيل المكث، وقد كانت غالبا ما تأخذه معها... يحلو له أن يترك والدته بجانب المحراب، يغافلها، فيختفي وراء السّناجق الكثيرة، تسطع أنفه تلك الرّائحة، هي نفس هذه الرّائحة الّتي تطالعه في خلوة شيخه، يضوع بها كلّ شيء داخل الحوش، على صغر سنّه، كان لا يني يسأل نفسه: لماذا يبدو كلّ شيء أخضر هنا؟ وقد ألحّ عليه هذا السّؤال لكثرة ما فكّر فيه، خصوصا وأنّ كلّ الأشياء خارج المقام كانت تتحدّاه بصفرتها الفجّة القاتلة، سأل والدته، حاولت أن تجيبه، غير أنّ المعنى الّذي كان يتردّد داخلها كان أكبر بكثير من الكلمات المسكينة الّتي اهتدت إليها أخيرا، انتظر والده حتّى آب من الوكالة، وتناول غداءه، واستراح، وسأله نفس السّؤال، بنبرة طفوليّة فيها الكثير من الفضول، ابتسم والده حتّى بانت نواجذه، استدار قليلا فصار في مواجهته تماما، وردّ على سؤاله بسؤال:

.ولماذا تسأل؟

.أريد أن أعرف!؟!

.ولماذا تريد أن تعرف؟

.أريد أن أعرف وكفى!!

استحالت ابتسامة والده إلى مشروع ضحكة كادت تنطلق على سجيّتها لولا أن تطلّع إليه فوجد وجهه يكتسب جدّية غريبة لا تتلاءم

مع سنّه، هل كان يعلم ما سيؤول إليه أمره؟ هل كان ذلك السّؤال فاتحة لنبوءة في عالم الغيب ستصدّقها الوقائع في يوم ما؟!!

قال والده:

.الأخضر، يا ولدي، لون مبارك!

سأله:

. ولماذا هو لون مبارك؟ وهل الأحمر لون مبارك؟ والأصفر؟ والأزرق؟

ضحك والده... تريّث قليلا... تشاغل بمداعبة حبّات مسبحته... قال أخيرا:

.الأخضر لون يحبّه الله، يا ولدي!!

... يثّاقل إذ يقدم، يرى الباب يورد و يصدر، شوقه يزداد حتّى ليكاد ينوء به جسده، أين هو من صحبة الأولياء، أين هو من بلوغ ذروة النّشوة، وبلوغ النّفحة، هو بجسده هنا، أمّا قلبه، روحه، فهناك، ترفرف فوق قباب النّجف الأشرف، كان «الدّيوان» لا يعني له شيئا، فصار يمثّل كلّ شيء في حياته، فيه يلتقي ساداته، وسادات ساداته، يتواجدون، تفيض لديهم أشواق عام بأكمله من التّنائي والبعد، صحيح أنّ قلوب الأولياء موصولة، وأنّ تدانيهم واقع وإن بعدت الشّقّة، إلاّ أنّ الفراق صعب، والمسافة شاطّة ... بحار تطوى إذ يلتقون، تغدو المحيطات لاشيئا، والمسافات مجرّد فواصل، قال لشيخه مرّة:

.سمعت شيئا، وأريد أن أتأكّد من صحّته.

ابتسم شيخه ابتسامة وادعة كأنّه حدس ما يجول بخاطره، ثمّ سأله بعفويّة لا أثر فيها لتكلّف:

.وماذا سمعت؟

قال:

.سمعت أنّ الدّيوان يجتمع بأمر مولانا الوليّ الأكبر!

تململ الشّيخ في مكانه قليلا... زوّى ما بين حاجبيه، ثمّ قال بنبرة يغلب عليها النّصح والحزم:

.هذه أشياء لا يسأل عنها، يا ولدي.

ثمّ صمت قليلا وأضاف:

.إذا أردت أن تصل، يا ولدي، فلا تسأل!!

آه، لكم كان يمقت الصّمت! لكم كان يضيق به! منذ صغره، كان يريد أن يفهم، كان السّؤال طريقه إلى الفهم، بغريزته كان يدرك أنّ أوّل الطّرق المؤدّية إلى المعرفة أن تسأل، فلم يأمره شيخه بالكفّ؟! لم يشدّد على الصّمت؟! في البدء، حاول أن يقاوم، تنازعته أهواء التّحدّي والمشاكسة، إلاّ أنّه وجد نفسه فجأة يهمد، حلّ به فيض من سكون وطمأنينة، كان يجد لهما لذّة لا تضارع... تغيّر كثيرا، أجل هو يدرك ذلك، وما بقي من السّويسي القديم الجسد والملامح، أمّا روحه، أحاسيسه، هذه المشاعر الّتي تزدحم الآن داخله فانطبعت فيها صورة الشّيخ وتخوم الحوش، يبتسم إذ يتذكّر ما كان عليه حاله، يستغرب، يحيّره التّغيّر، ويتراءى له التّبدّل لغزا من الألغاز العصيّة... يخضّه الحنين، تقتحمه الذّكرى، يحاول أن ينسى فلا يقدر، وبدلا من ذلك يجد الدّموع تغزو عينيه، دون أن يملك لها ردّا، قد تكون هذه دموع الشّوق، وقد تكون . بكلّ بساطة . نذير نعيه، أو لم يقولوا قديما إنّ الإنسان إذا أحسّ بدنوّ أجله، تشفّ روحه، ويصبح أشبه ما يكون بطفل صغير، أقلّ شيء يبكيه، وأقلّ شيء يسبّب له فرحة لا يدري مصدرها، أقرب ما تكون إلى مياه ملحيّة، هذه الدّموع، حرّى، تكاد تحرق ما تبقّى من إهابه الذّاهب، تأتي فجأة، على غير انتظار، تدهمه، تحطّم بوّابة عينيه، تهدّ مصاريعها هدّا، وسرعان ما تنفجر، كأنّما كانت حبيسة سجن لطالما اشتاقت أن تخترق قضبانه، لكم حاول أن يصمد، غير مرّة استجمع ما تبقّى لديه من قوّة دابرة، كان يهمّه

أن يبرهن أنّه حتّى في أواخر أيّامه سيظلّ سيّد نفسه، سيظلّ شجاعا لأنّه كان كذلك دوما، لكن تنهار آخر معاقله، ولا حرج عليه في ذلك، فالذّكرى الّتي تهيجه الآن هي ذكرى الأحباب، تلك الذّكرى العابقة بشتّى الرّوائح الحبيبة إلى نفسه، آه، سحّي أيتها الدّموع، سيلي بهدوء على الخدّين الخاسفين، وتخلّلي اللّحية الصّهباء الّتي لم يبق منها غير شعيرات ذابلة ذاوية، يتقلّب على جنبيه، أصبح السّرير لا يحتمله، تنبو به هذه الحشيّة واللّحاف، تتوارد عليه أصوات، هي نفس الأصوات، وتحاصره مشاهد الماضي، يرى كأنّها في الطّرف المقابل، بمجرّد أن يتحوّل إلى الكوّة، ويشرئبّ بعنقه الضّامر، سيرى ببصيرته كلّ شيء، ويسمع بأذنيه الأصوات الأثيرة الّتي دبرت، وانطوت مع الأيّام والسّنين، آه، يا سويسي، ما قيمة حياة بلا ماض، بلا حنين، ولا ذكرى، ما قيمة الحياة بلا أمل في لقاء من تحبّ، تخونه قواه، يحاول أن ينهض، يميل جذعه إلى الخلف، تتسارع دقّات قلبه، فيرتمي على السّرير، وقد دهمته موجة ممضّة من السّعال، يصرخ في داخله، في صمت، في حياء: سيّدي أبا عبد الله ، مدد!!.

((٣))
.عبد المنعم.

...اليوم قائظ، الحرارة تتسرّب من أكثر الأماكن امتناعا في الوكالة، على الكنبة، وراء المكتب، تمدّد مفتاح، على الأرض شبه العارية هناك مرمدة بها عدد لايحصى من أعقاب السّجائر، مفتاح مدخّن نهم، عادة اكتسبها من امتداد المسافات، ومع التّدخين القهوة السّادة، زاد الطّريق، تمائم الصّحراء، النّوم وحده ما يمنعه من ممارسة غوايته القاهرة، غطيطه يتردّد رتيبا داخل الوكالة، في شخيره خشخشة أسيانة، ربّما جرّاء التّعب والوصب، الحركة انقطعت أو كادت، وآخر الطّارئين طواهم الزّقاق الضّيّق، وحده عبد المنعم، مواربا في طيّات السّكون، مستندا إلى الجدار وراءه، يفكّر ولا يفكّر، حاول أن ينام، لكنّ النّوم يجفوه، كأنّ بينه وبينه أميالا وأميالا، هاجس مضن يطيف به لكن يحاول تأجيله، كلّ همّه الآن أن يسيطر على مشاعره حتّى يستطيع أن يفكّر بهدوء، يجب أن يحسم الأشياء بينه وبين نفسه بعد أن فقد كلّ معين، رباطة الجأش مطلوبة في مثل حاله، يضعف إذ يتذكّر والدته السّتّ توحيدة، نظراتها الهائمة وهي تتطلّع إليه، دموعها، توسّلاتها الصّامتة، يتجلّد أمامها إذا ضمّتهما المقصورة الصّغيرة الّتي اختارتها سجنا لها منذ أن حلّ ببدر ما حلّ به، لا تنفكّ تسأل عنه، تلجّ في السّؤال، لا تهدأ حتّى ترى عبد المنعم، فإذا رأته كان أوّل ما تبادره به: أخوك، يا ولدي! يستنفر كلّ طاقته، يعتصره ألم لا يطاق، وهو ينبس بتلك الكلمات المسكينة الّتي لا تمتّ ولو بحبال واهية إلى جوهر الحقيقة: اطمئنّي، يا أمّي، فبدر بخير!! تحاصره،

تسلبه كلّ ما يملك من وسائل الدّفاع، وهو يروم أن يغافلها، أن يحيد بها قليلا، إلاّ أنّها لا تستسلم، قلب الأمّ، حدسها، خشيتها، آه من خوفها الّذي لا يسكن: فلماذا لا يأتي؟ لماذا لا يأتي إليّ أنا، أمّه، يا ولدي!! قل لي إنّه سيأتي، يا بنيّ!! وتخونها قواها فتنخرط في بكاء صامت ممضّ... أمام هذا المنظر الّذي أصبح شبه يومي لا يملك إلاّ أن يهرب، هو مثلها، يتعذّب من الدّاخل، يتمزّق، بدر شقيقه، عماد البيت والوكالة، وهو «رجل العيلة»، لم يحسّ في يوم من الأيّام بما يحسّ به الإخوة عادة من الغيرة تجاه بعض، أحبّ بدرا، كان حبّه إيّاه مزيجا من الحبّ والاحترام، ولطالما فاخر بأنّ له أخا مثل أخيه، وحتّى عندما كان يرى ميل والده إلى شقيقه الأكبر كان يتغاضى عن ذلك، يتظاهر بعدم الاهتمام، رغم أنّ زوجته كانت تنبّهه إلى كلّ كبيرة وصغيرة: والدك يحبّ أخاك أكثر منك، كلّ شيء لبدر، وكلّ عمل يكلّف به بدر، كأنّك لست ابنه أيضا، أيرضيك، ربّما أوصى له بكلّ شيء من دونك، هنا كان الدّم يفور في عروقه، ينتابه غضب أعمى، فيصرخ في وجهها: وما يهمّك أنت من كلّ ذلك؟ بدر أخي، وأنا راض بكلّ ما يفعله أو يقرّره والدنا حتّى ولو حرمني من كلّ شيء!! في اللّحظة الأخيرة يمسك إذ تمتدّ يده إليها لتصفعها، لا يريد أن يراه ولده الصّغير يضرب والدته، في النّهاية زوجته لم تعد جزءا من الحقيقة، إلاّ أنّه لا يهتمّ بهذه الحقيقة، فكلّ همّه أن يرى العائلة متماسكة، وأن يرى كلّ فرد فيها بخير، فماذا يساوي هو من دونهم، يكفي أن يرى نفسه بينهم، يضطرب بينهم، يسمع دعوات والدته تشيّعه إلى الباب: الله يرضى عنك، يا ولدي! الله يجعل لك في كلّ خطوة سلامة! أن يرى أخواته البنات يهرعن إليه إذ يجلب لهنّ ما يحتجنه من الأشياء الّتي كنّ يوصينه بها، يغطّي وجهه بكفّيه، يمنع نفسه من البكاء رغم حاجته إليه، لا يجب أن يبكي، فبكاؤه. إذا اختار أن يبكي. يمكن أن يقضي عليه إلى الأبد، فإذا قضي عليه سيقضى على كلّ من هم وراءه، سيصمد حبّا وكرامة لوالدته وأخواته وزوجة أخيه

وأبنائه... يتململ في مكانه، همّ بأن يوقظ مفتاح، فحيطان الوحدة الصّمّاء تحاصره من كلّ جانب، لكن هب أنّه أيقظه فماذا يمكن أن يقول له، قطعا لا شيء، فهو يحسّ بداخله فراغا قاتلا، أدخل يده إلى جيب بنطاله، كانت علبه سجائره فارغة، حتّى ولا سيجارة واحدة، عرك العلبة بقسوة بين يديه ورمى بها بعيدا، ندّت عن شفتيه تكشيرة قاسية وقذف .في غيظ .شتيمة كبيرة، حبا على ركبتيه ويديه بمقدار ما بلغ علبة سجائر مفتاح، سحب سيجارة في هدوء ثمّ عاد إلى مكانه، أشعل السّيجارة وهو يتأمّل عود الثّقاب المشتعل بين إصبعيه، قرّب السّيجارة إلى شفتيه وجذب نفسا عميقا، وقد أغمض عينيه، كأنّه لايريد لتلك اللّحظة الفاتنة أن تفسدها عليه أفكاره السّوداء، شفط من السّيجارة مرّة ثانية وثالثة، وفي كلّ مرّة يستشعر ذلك الخدر اللّذيذ الّذي كاد ينسى طعمه منذ ابتدأت محنته، رنت على شفتيه ابتسامة باهتة، لا حياة فيها وهو يرمق مفتاح، الّذي أحدث تقلّبه على الكنبة صوتا مشرشرا أشبه بصوت المنشار، قام، رمى بالعقب في طريقه، ثمّ داسه بقدمه دون شفقة، كأنّما كان يتمثّل فيه عدوّا غير منظور هو سبب كلّ تعاسته وحزنه، اتّجه صوب الباب الخارجيّ ومدّ طرفه إلى أقصى نقطة طالتها عيناه الذّابلتان، لا شيء في المدى، في هذه السّاعة من النّهار، سيكون عليه أن ينتظر ساعتين على الأقلّ حتّى يشهد الحياة تنبعث من جديد في الميدان، لم يأكل شيئا، كان يشعر بالجوع، لكن لا رغبة له في الأكل، تعمّد أن يغادر البيت في ساعة مبكرة حتّى لا يبتلى بمقابلة والدته الثّاكل، كانت الحارة ما تزال غارقة في تلك الغلالة الشّفيفة الملتبسة ببدايات خيوط النّهار الرّقيقة، عندما أسلمه الباب إلى أزقّة باب الشّعريّة، كان كلّ همّه أن يصل إلى قهوة عنتر، على إحدى نواصي الشّارع ، في سني شبابه المبكرة، كان يوالي غدواته على هذه القهوة تملأه حيويّة الخليّ، يأتيه النّادل بقهوته السادّة، والأركيلة، ولا يدعه حتّى يطمئنّ إلى أنّ الخرطوم قد أخذ مكانه من فمه، يستغرق

لحظات ريثما تصل إليه عبر الهو أنغام الحاكي تعطّرها مسحة الماضي الأثيل، لا شيء يفتنه مثلما كان يفتنه ذلك الصوت، صوت «السّتّ»، يحبّذ أن يكون متوحّدا، متباعدا كي لا يعكّر عليه أحد صفوه، يضطرّ أحيانا إلى تغيير مكانه، يدعو النّادل، يأمره أن يحمل المنضدة إلى مكان بعينه كان يحدّده له، عبر الهو، في دهليز شبه مظلم، ينتهي بباب من خشب الصّندل، يتقدّمه النّادل، يدخل في هدوء، يستقرّ أخيرا، وحينما يهمّ النّادل بالخروج ينفحه بعض القروش ويأمره أن يزيد في الصّوت، يتفرّغ تماما إلى أركيلته، ينسى ما وراء هذا العالم الصّغير، مدركا أنّ الوكالة في أيدي أمينة، إن لم يكن بدر، فهو مفتاح أو فتحي، الماضي، أوه، كم مرّ عليه وهو يشتاق إلى جلسة من تلك الجلسات الحميمة، فلا يظفر منها بغير تلك الطّلّة المرتجلة، الّتي غالبا ما كانت تنتهي به أمام القائمة، حيث يومئ إلى النّادل في صمت، فيأتيه بفنجان القهوة، يحسو حسوات متسارعة، يستعجل الخروج كأنّه يؤدّي واجبا مقيتا، لا بدّ منه، لكن لماذا كلّ هذه العجلة؟! هل كان يستعجل حقّا الذّهاب إلى الوكالة؟ إنّه يكابر، بلى إنّه يتصرّف بحكم العادة، وهو أعلم النّاس بنفسه، فقد بدأ يدرك أنّ كلّ شيء في حياته قد غدا عبئا عليه، حتّى أفكاره غدت تؤذيه، وجسده الّذي بات يرهقه بالسّهر والأرق، متى ينام؟ متى ينهض؟! لقد كانت تمرّ عليه أوقات عصيبة لا يذوق فيها طعم النّوم البتّة، لا يطيف بالبيت إلاّ إذا توهّم أنّ والدته قد أخلدت أخيرا إلى النّوم، وأنّها لن تطلبه أو تعذّبه بأسئلتها الّتي لا يجد لها مخرجا سوى تلك الأجوبة المطمئنّة الكاذبة... زوجته صارت لا تراه إلاّ بين «الحين والمين»، كأنّها ليست زوجته، يكدّ ذاكرته إذا مرّ خاطرها برأسه، يجهد أن يتذكّر بعض ملامحها الفارقة، يحاول أن يستحضر منها تلك الرّائحة الّتي كانت تستبيه قبل زواجه وبعده، صحيح كانت تشاكسه أحيانا، تتحدّاه وتتربّص له، وتسعى إلى مطاولته فيما كانت تظنّه حقّها، إلاّ أنّه مع ذلك كان لا يصبر على فراقها، كانت جلّ أيّامه

اختصارا للحظة اللّقاء بها، وكان ذلك اللّقاء، في كلّ أطواره، سعيا إلى مواصلة يسقط فيها العتاب واللّوم، ولا يعود يذكر منه إلاّ العبق الآسر الّذي كانت تهاني توثقه به... يطرد كلّ شيء بتلويحة يسيرة من كفّه، كان يشعر أنّ رأسه تثقل بفعل الحرارة، وأفكاره المشوشّة المضطربة، خطا خطوة إلى الخارج، واتّجه صوب المجاز الضّيّق الّذي كان عمّ حسنين يعرض في جانب منه بضاعته الّتي لا تعدو أن تكون بعض أشياء للذّكرى، تمهّل قليلا قبل أن تأخذه قدماه إلى أحد شوارع القاهرة، لم يكن يدري ماذا يفعل، لكنّه أحسّ برغبة قاهرة في الهروب، لو رآه أحد معارفه، وهو يكاد يجرّ قدميه جرّا، ثمّ وهو يقلّب طرفه من حين لآخر في المكان كأنّه لا يعرفه، أو كأنّه طارئ ينزل القاهرة لأوّل مرّة، لظنّه ممسوسا أو مجنونا، دلف إلى شارع كبير، كان كلّ شيء ما يزال هادئا، السّاعة لم تجاوز الثّالثة بعد، نظر إلى ساعته دون أن يتمعّن جيّدا في الوقت، كانت أشعّة الشّمس تنصبّ على رأسه انصبابا، إلاّ أنّه لم يكن يشعر بشيء من لهبها، بعد لأي غدا خطوه أكثر تعثّرا، وقد أوشك غير مرّة أن يسقط، رأى بعض أصحاب المتاجر يفتحون متاجرهم، وتناهى إليه من بعض الشّرفات صدى ضحكات تحملها نسمات الخماسين الحارقة، في وقت ما توقّف، تطلّع إلى واجهة خشبيّة كتب عليها بأحرف عربيّة متعثّرة لا تشبه في شيء تلك الواجهات الأخرى الفخمة الّتي كانت تتصدّر أكثر محلاّت القاهرة رقيّا وفخامة: قهوة ياسين أبو العينين، انتابه شعور غامض هو مزيج من الارتياح والجهامة، مال إلى اليمين قليلا، وعبر الشّارع إلى الجهة الثّانية، ولج من باب وطيء آيل للسّقوط إلى داخل المقهى، كان المقهى شبه خال، ومع ذلك فقد آثر أن يحتلّ أكثر الأماكن تباعدا، شيء ما كان يدفعه إلى النّفور، حتّى أنّه لم يكن يفكّر في استدعاء النّادل، الّذي جاء يسعى وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة الّتي تشي بظفر من نجح أخيرا في تصيّد زبونه الأوّل:

.ماذا تريد أن تشرب، يا أخينا؟

رفع رأسه ببطء شديد إليه، دهش للوهلة الأولى، وكاد يسأله ماذا يفعل هنا لولا أن تذكّر في اللّحظة الأخيرة أنّه غادر الوكالة، وهو الآن داخل مقهى ربّما يدخله للمرّة الأولى رغم أنّه لا يبعد كثيرا عن ميدان العتبة، ابتلع ريقه بصعوبة، وأومأ إلى النّادل إيماءة يسيرة بيده، انسحب النّادل وهو يسعى جاهدا لإخفاء امتعاضه، «ما فائدة الزّبون إذا لم يطلب شيئا؟!»، ساءل نفسه، غير أنّه في النّهاية آثر أن يصبر عليه قليلا... خلا إلى نفسه، ارتاح إلى السّكون الّذي كان يلفّه، في الدّاخل، لا أثر لوطأة الحرارة، بل مسحة من الرّطوبة ليس إلاّ، ثقل جفناه، فأغمض عينيه، وقد حملته أفكاره إلى مجاهل بعيدة، حلّ بخاطره الصّبيّ الصّغير الّذي كانه، في رحبة الحوش الكبير قبل أن يحوّله والده إلى البيت الحاليّ، بطابقيه الاثنين، لن ينسى طلاّت والده، وهو يؤوب من الوكالة بعيد الظّهيرة بقليل، بجلبابه الجوخ، وطربوشه الأحمر، وشاله المزركش وقد تهدّل على كتفيه العريضين تهدّل الأهداب على عيني جارية حسناء، كان يأسره شموخه أكثر من أيّ شيء آخر، ذلك الشّارب الكثّ، وتلك اللّحية المثلّثة الخفيفة، كان يمرّبه كالطّود، دون أن يعيره ولو التفاتة، وربّما ذلك هو ما حبّبه فيه أكثر، استحالته، تباعده، وتفرّده، كأنّه من كوكب آخر، نما ونما فيه حلم أن يطاول ذلك الصّرح العظيم، تمنّى أن يظفر ببعض الحبّ الّذي كان يدّخره كلّه لأثيره بدر، أخوان من أمّ واحدة وأب واحد، لكنّ القدر يأبى إلاّ أن يعطي واحدا، ويحرم الآخر، الغريب أنّه لم يكن يشعر بتلك الغيرة الّتي غالبا ما يستشعرها الصّغار، وتكبر مع الأيّام، لتتحوّل في داخلهم إلى قوّة مدمّرة قاهرة... حين كان يرى والدته ترنو إليه في حزن من بعيد، كان يدرك ما تحمله نظراتها من الرّثاء، على حداثة سنّه، فكان يتفاداها، يظهر أمامها دائما عكس ما يشعر به أحيانا من المرارة، هذه المرارة الّتي لم تكن تلمّ به إلاّ إذا أصرّ والده على تجاهله، في مرّات قليلة، بل نادرة، كانت والدته تضبطه وحيدا، عيناه معلّقتان في المدى البعيد،

وشفتاه الرّقيقتان النّديّتان تضطربان تحت وطأة بعض دموع غالبا ما كانت تنحدر على خدّيه دون إرادته، تقترب منه، فتمسح على رأسه بيدها، ثمّ تنحني عليه، يهتزّ جسده الصّغير من وقع المفاجأة، كأنّما طالته موجة كهربيّة لم تكن في الحسبان، كان أوّل ما يفعله أن يخفي وجهه حتّى لا ترى آثار الدّموع في عينيه، يغتصب من داخله ضحكة لم تكن تتناسب مع ضآلته وقماءته، كلّ ذلك حتّى لا تكتشفه، اعتادته والدته، واعتادت معه سلوكه الّذي كان يبدو شاذّا لمن لا يعرفه، أمّا هي فقد كانت تدرك تمام الإدراك، أنّ عبد المنعم، رغم صغره، كان يحمل قلب رجل كبير في داخله، يحبّها كما يحبّ والده، إلاّ أنّ الفرق أنّها كانت تبادله هذا الحبّ بحبّ أعظم منه، حتّى أنّها لم تكن تحبّ أحدا في العائلة محبّتها إيّاه، عندما بلغ سنّ الرّجال، بدأت نظرة والده تتغيّر تجاهه، إلاّ أنّها لم تتبدّل تماما، قنع منه بالنّظرة الحانية، وسؤاله عنه كلّما تأخّر، تحوّل ذلك الحبّ المستحيل الّذي حمله إليه طوال سني طفولته المبكرة، وأمنيته في أن يطاول ذلك الصّرح الّذي كان يراه دائما قصيّا ومتباعدا إلى إجلال واحترام فاق كلّ الحدود، يصرّ أن يدخل عليه في خلوته، بدل والدته، فيخدمه كما كانت ستخدمه، ويقف أمامه متخشّعا، خفيض الرّأس، دون أن ينبس ببنت شفة، وحينما يومئ إليه، يقترب منه فيحتضن يده المتغضّنة بين يديه الفتيّتين فيقبّلها، ثمّ يسحب الباب وراءه في رفق، وهو يدعو له بطول العمر، يشعر أنّ الكون لن يسعه من الفرح، يدور حول نفسه، فإذا ما صادفته والدته في طريقها، ضمّها إليه، وقبّلها بين عينيها، ولا يهدأ حتّى يتبسّط مع أخواته، ويضاحكهنّ، ويقول لبدر: إنّه يحبّه، يحبّه كثيرا، تعوّد بدر نزواته تلك، غير أنّه كان يميل إلى مشاكسته، فيسأله، وما المناسبة؟ كان يكيده، يردّ على مشاكسته بمشاكسة مماثلة: وهل يجب أن تكون هناك مناسبة حتّى يحبّ الأخ أخاه؟!!... عاد النّادل من جديد، يحمل طبقا عليه فنجان من القهوة، وكوب ماء، وضع الطّبق

على المنضدة أمامه، ثمّ تركه غارقا في هواجسه، لم يكن قد رآه وهو يتّجه صوبه، ولم يتفطّن إليه حين عاد إلى مكانه بجانب القائمة، بدأت الحركة تدبّ في المقهى شيئا فشيئا، وبدأ السّكون والهدوء يتلاشيان، مخلّفين وراءهما مسحة من الحزن الشّفيف، الّتي لم تنجح الضّوضاء الّتي بدأت تحطّ بثقلها على المكان في محوها، توزّع بعض الزّبائن على المناضد المتفرّقة هنا وهناك، وجاء بعضهم فجلس إلى جانبه، انطلقت الضّحكات من حوله، وامتزجت الرّطوبة الّتي غدت أشدّ وطأة برائحة السّجائرودخان التّمباك، أحسّ أنّه لن يستطيع الإخلاد إلى نفسه فترة أطول من ذلك، وهو ينشد الوحدة، كان في حاجة إلى عزلة النّسّاك، إلى شيء من سكينة تحمله خارج حدود القاهرة، ربّما في مكان آخر، بقعة ما، ربّما كان قرأ عنها في بعض المواطن، كان يعتقد دائما أنّ للإنسان حالات تشفّ فيها روحه، يتسامى فيها خياله، فيرى ما لا يرى الآخرون، فكأنّما تنكشف له حجب الغيب، ويرحل إلى عوالم خفيّة، ينعدم فيها العارض والمحمول، يمتزج فيها بكائنات هي خلاف ما يعرف من الكائنات الآيلة الفانية، لا تعب فيها ولا نصب، ولا أحزان، ولا هواجس، يكفي أن تتمنّى فتتحقّق كل أمانيك، يكفي أن تتخيّل شيئا فتراه أمامك، كأنّ هناك جنّيا موكلا بخواطرك، آه من ذلك الإحساس ما أحوجه إليه الآن! ما أحوجه إلى أن يطلّق عالمه ولو لبعض الوقت! تكاد رأسه تنفجر، وهو لا يدري إلى أين يذهب، سيكون من العبث أن يعود الى البيت الذي تنتظره فيه خلاصة مأساة ليس لها حدود .... ألمّ بالكثير من أطوار أبيه ، عرف فيه نزوعه إلى أهل الطّريق ، إلمامه ببعض المنقطعين عن الدّنيا ، الّذين طلّقوا الحياة طلاقا لا رجعة فيه ، وهو حين يستحضر أوضاعا بعينها ، وأصواتا بعينها ، ويذكر ضياعه ، وعدم قدرته على «الرّسوّ على برّ» ، يودّ لو كان واحدا من المنقطعين ، يودّ لو كان مريدا ، ربّما يعتب على والده . إذا فكّر يوما في العتاب . لأجل هذا السّبب فقط ، عدم اصطحابه في تلك الزّورات المسائيّة إلى

حوش أهل الطّريق ، الآن فات الأوان ، لا يمكنه أن يصل ما لم يتّصل في حياته أبدا ، الشّيخ محمّد السّويسي ، والده ، آثر بدر في كلّ شيء ، ولم يؤثره ، ولكنّه لا يحمل أيّة ضغينة له ، إنّه مجرّد عتاب ، وهو عتاب أفرزه قهر شديد ، وحصار أشدّ .... عند الباب ، وهو يهمّ بالخروج، شعر فجأة بقبضة ثقيلة تشدّ على ذراعه في حزم ، حين التفت، طالعته عينا النّادل العدائيّتان ، فتح فمه ليتكلّم ، إلاّ أنّ صبيّ القهوة لم يمهله:

. الحساب!

. أيّ حساب؟!

. القهوة!

. أيّة قهوة؟!

. الّتي جلبتها لك!

أدرك أنّه لو استمرّ على تلك الحال فلن يتخلّص منه أبدا ، سيجيب ، ولكنّ النّادل سيسأله من جديد ، ولن يعتقه إلاّ اذا دفع حساب القهوة الّتي لم يشربها ، أدخل يده إلى جيبه ، أخرج ورقة نقديّة أعطاها إيّاه حتّى من قبل أن يتثبّت فيها ، دلف إلى الخارج ، تناهى إليه صوت النّادل:

. ألن تاخذ بقيّة الحساب؟!

ولكنّه لم يلتفت إليه ، وواصل طريقه ، لا يدري إلى أين ، سيكون خيرا له أن يترك لقدميه أن تقوداه ، هكذا أفضل ، فربّما إذا فكّر فلن يهتدي إلى وجهة بعينها ، لأنّه لا يرغب في الذّهاب إلى أيّ مكان ، غدت الوكالة بعيدة ، بعيدة جدّا ، في دائرة وعيه ، والبيت هو الآخر ، غدا مجرّد نقطة ، بلا شكل ولا لون ، ترك الشّارع وراءه ، وانحاز إلى عطفة بعض الأزقّة ، استقبله المجاز الضّيّق ، أحدث نعله صوتا حين احتكّ بالبلاط النّديّ ، ثاب إلى نفسه ، تطلّع إلى يمينه فهالته أكوام الزّرابي

الّتي كانت متكدّسة عند مدخل بعض المحلاّت ، عطفة الظّاهر بيبرس، سمع ضحكات وانية يردّدها الصّدى من جوف المحلّ ، لم يمكث طويلا ، تقدّم إلى الأمام ، فطالعته في نهاية الزّقاق ، عربة قديمة، وحصان، كان من حين لآخر يدسّ رأسه في كيس من الخيش ، ثمّ يرفعه وقد امتلأ فمه بحفنة من البرسيم ، ذكّره المشهد بآخر قديم ، ربّما في دارهم القديمة، أو في أحد التّرع ، لا يذكر من المشهد إلاّ إطاره العامّ ، وحتّى هذا الإطار قد يكون مجرّد وهم من الأوهام الكبيرة ، انعطف إلى اليمين ، وسار إلى الامام قليلا ، كانت أشعّة الشّمس الّتي بدأت حدّتها تخفّ شيئا فشيئا تتكسّر على واجهات بعض البيوت العتيقة، أمعن النّظر في الحيطان ، كانت ألوانها حائلة ، وقد تقشّر طلاؤها في الكثير من الأماكن ، لا يذكر أنّه قد زار هذا المكان من قبل، لكنّه لا يختلف كثيرا عن الأماكن الأخرى في باب الشّعرية ، أو شارع الجيش، أو السّيّدة زينب، كان القدم يقترن في ذهنه دائما بالعراقة، وكان يحنّ إلى الماضي لأنّه لولاه لما كانت هناك ذكرى، وكانت هذه الذّكرى هي ما يوحي بالعراقة، لا يعرف لماذا يحسّ أنّه مجبر على أن يعيش حاضره رغم زهده فيه، شيء مقدّر عليه، ولا خيار له في ذلك، أحبّ طفولته الأولى، وأحبّ أشياء أخرى جميلة في طفولته، أحبّ حيّهم القديم، أحبّ دارهم على صغرها، وربّما لو خيّروه بينها وبين قصر من القصور الّتي كان يسمع عنها في حكايات ألف ليلة وليلة، ومغامرات السّندباد، وطرائف الملوك والسّلاطين، لما اختار عنها بدلا، هي مرتع حبوه، وهي مصدر الرّوائح الملغزة في داخله، الّتي يحسّ لها كلّما استثاره الشّوق بشيء من الوجد الّذي لا يعرف كيف يعبّر عنه أو كيف يصفه، هو ذلك المزيج من أرج لأخلاط شتّى، فيها من العود والمسك، والعنبر والبخور، روائح لا يعرف سرّها إلاّ ذلك الشّيخ في حيّهم، أبو نهلة، بائع الطّيب والعطور، ليس هناك نوع من الطّيب إلاّ ويعرفه باسمه، ولا يذكره إلاّ ويذكر معه خصائصه، ترى أين هو الآن، وهل ما يزال حيّا؟! كان الشّيخ موجودا

قبل ولادته بسنوات طويلة، وظلّ كما هو، شامخا، لا تفارق البسمة محيّاه، حتّى ليخيّل للنّاظر إليه في لحظة من اللّحظات أنّه لن يشيخ أبدا، ولا يمكن لمثله أن يموت، عندما قرّر الشّيخ محمّد السّويسي المغادرة، حين أزمع الرّحيل، جاء أبو نهلة إلى الدّار، حزن كثيرا، ولكنّه ضحك كثيرا أيضا، ولم يغادر حتّى تغدّى وشرب شايا كثيرا وروى من الطّرائف ما يثير الدّهشة والتّعجّب، زار بلدانا لا يحصيها العدّ، مرّة يقصدها تاجرا ومرّة أخرى للفرجة، قال إنّه قرأ في صغره عن ابن بطّوطة، واستهوته رحلته الّتي قرأها عشرات المرّات، وقد آل على نفسه .إذا شبّ .أن يقتدي به، وقد حالفه الحظّ، وتيسّرت أحواله، توفّي أحد أعمامه، وترك له ثروة لا بأس بها، ودكّانا لبيع العطور، كان شابّا آنذاك، ولم يكن يميل إلى العمل، ولكنّه كان مسكونا بحلم الرّحيل، حزم أمره للسّفر حتّى من قبل أن يفكّر في الوجهة الّتي يقصدها، لم يترك قافلة من القوافل المتّجهة إلى إفريقيا إلاّ صحبها، زار السّودان برّا، وأمعن في السّفر شرقا حتّى انتهى إلى الحبشة، والصّومال، وكينيا ثمّ واصل رحيله غربا إلى ساحل العاج، كان على وشك التّوجّه إلى جنوب إفريقيا حين وصله نبأ وفاة والدته، رجع إلى بلده، وقد ناط تجارته وأمواله بأحد معارفه المقرّبين، لم يحضر الدّفن رغم تعجّله وحرصه، كلّ ما فعله، هو زيارة القبر، مات والده وهو ما يزال صغيرا، لذلك لم يكن يعرف معنى الدّموع، ومعنى أن يفقد الإنسان عزيزا عليه، من ذلك الماضي لا يذكر سوى شيء واحد، جريه إلى باحة الحوش، مخلّفا الصّياح والنّدب وراءه، لطوّه عند عتبة باب إحدى الغرف، وسكونه، لا يدري أيبكي أم يفرح، وحتّى إذا واتته الدّموع وبكى فإنّه قطعا لن يعرف سبب ذلك البكاء، وإذا ما ضحك، فلن يتوصّل إلى سبب ذلك الضّحك أيضا ، كان عالمه صغيرا آنذاك ، أصغر بكثير ممّا يبدو عليه في الواقع، لا يكاد يتجاوز ذلك الحوش الّذي ولد فيه وترعرع، وتلك التّرعة حيث كان يلعب مع لداته في الصّباحات المبكرة والأماسي

الرّاحلة، وكبر وكبر عالمه بكبره، وبدأ ذلك العالم الصّغير الّذي اعتاده في صغره ينحسر أمام العالم الجديد الّذي بدأ ينمو من حوله، عرف حيّه زقاقا زقاقا، وعطفة عطفة، وشارعا شارعا، وفي كلّ مرة كان يكتشف شيئا جديدا، حتّى عثر بكتب الرّحالة، ووالى سفراته إلى خارج مدينته، هذا الشّسوع، هذا الامتداد الغريب الّذي كان يفاجأ به حيثما اتّجه، وتلك المسافات الّتي لم تكن تتوقّف أبدا، تسيل على كلّ شيء، تنساح أمامه، حتّى لتكاد تصيبه بالغثيان، في وقت ما صارت مدينته مجرّد ذكرى، حيّه غدا أشبه بمسّ الحنين، لا يكاد يذكره إلاّ إذا أخلد إلى بعض الرّاحة، وقلّما كان يفعل ذلك، تمرّ عليه أيّام، يقضي النّهار بمكان، ويدركه اللّيل بمكان ثان، تجارته أصبحت مجرّد تعلّة لتنقّلاته الكثيرة، ولكنّ السّبب الحقيقيّ وراء سفراته، أنّ المكان صار ينبو به، أنّه تعتريه حالات من الاكتئاب إذا مكث، يصير أشدّ لجاجة، يغضب لأيّ سبب من الأسباب، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يفتعل خصومات ليس لها داع، ما يكاد يمرّ عليه يوم أو يومان حتّى يحزم أمره، يلملم متاعه القليل، وفي أيّة لحظة، يغادر، لا أحد يعلم برحيله في الكثير من الأحيان، «إنّه لغز!!»، هكذا كانت تقول عنه زوجته، الّتي عاشت معه مثلما تعيش المطلّقات، اللّواتي رزئن في أزواجهنّ، وهنّ ما يزلن في شرخ الشّباب، نادرا ما كان يقربها، على جمالها، ولولا أنّ الله أسعفهما بشهر العسل، لما أنجبت منه، نهلة هي ابنته الوحيدة، وهي أيضا النّبت الوحيد الّذي طلع به في هذه الدّنيا، ولمّا لم يكن له أولاد ذكور، فقد أطلق عليه أهل الحيّ «أبو نهلة»، في البداية، كان يضيق بهذا الإسم، إلاّ أنّه مع الأيّام اعتاده، كما اعتاد أشياء أخرى كثيرة، في الحيّ، كان هناك كثيرون أمثاله، يحبّون السّفر، منهم من صحبه في بعض سفراته الكثيرة، ومنهم من ولّى قبلته بلدانا أخرى، هؤلاء كان الواحد منهم لا يعود إلا وقد تزوّج وأنجب، على الرّغم من أنّه قد يكون خلّف امرأة وأولادا وراءه، أمّا هو فقد كان عازفا عن كلّ شيء، ولم يكن ذلك

العزوف سببه النّفور والاكتفاء، ولكنّه بكلّ بساطة لم يكن يجد الوقت الكافي ليفعل مثلما كان يفعل الآخرون، كانت المرأة في حياته فقط مجرّد علامة، لا بدّ منها لكي يسكت ذلك الفحيح الّذي كان يتردّد في جسده الفتيّ الفائر، وعندما هدأ ذلك الفحيح، وسكت عنه ذلك الجوع، غدا السّفر كلّ شيء في حياته... عند القبر بكى كثيرا، سجد أمامه، وقد اعتمد بكفيّه على الأرض المتربة، خنقته العبرات، وعربدت بداخله آلاف الكلمات إلاّ أنّ غصّة تسدّ حلقه كانت تمنعه من البوح، ولم يكن أحوج منه الى البوح كما كان في تلك اللّحظة، كانت والدته في أتمّ عافيتها حين غادر، تحدب عليه كما يحدب العصفور على فرخه الصّغير، كان وحيدها، وكانت تخاف عليه من هبّة النّسيم، تقلق عليه، تسأل عنه، إلاّ أنّ أمرها لم يكن يعدو حدود ذلك القلق، صحيح، عارضته وعاندته حينما قرّر السّفر، ووالى غيابه إلى أماكن لم تكن تعرف عنها شيئا، إلاّ أنّها مع الوقت صارت تدعو له، وتنتظر عودته، ألفت وحدتها، عزلتها، كانت تعتصم بالصّلاة، والتّسبيح، فإذا ما أعياها ذلك دعت الله أن يردّه سالما، تصبر، تتجلّد، الغريب أنّ ذلك الصّبر وذلك التّجلّد لم يكونا لياخذا من صحّتها، كانت تأكل إذا جاعت وتشرب إذا ظمئت، وهذا ما كان يشعره ببعض التّأسّي، حتّى ماتت، لم يكن يتوقّع موتها في ذلك الوقت بالذّات، كان يؤمّل أن يرجع فتستقبله بما كانت تستقبله به كلّما أمعن في الغيبة، ولكنّ الخبر أفزعه، هاله، طالما كان يؤمّل أنّ القدر إذا حمّ، فعلى الأقلّ ستقضي في رعايته، وتحت سمعه وبصره، أما وقد وصله خبر نعيها على البعد، في صحارى الغرب الإفريقيّ، فقد ضاعف ذلك من حزنه وجزعه... إلى أين؟! وما تشبّثه بالماضي والذّكرى إلى هذا الحدّ؟! ألم يمت الشّيخ محمّد السّويسي؟ وهذا شقيقه بدر ذهب إلى حيث لا يدري كما تذهب الورقة في مهبّ الرّيح؟! وهذه القاهرة، هو ليس فيها أكثر من عابر من آلاف العابرين، وهو أسوأهم حظّا، فهؤلاء على الأقلّ إذا أصابهم السّأم أو

الملل، أو أخذ منهم التّعب، قصدوا إلى دورهم وبيوتهم، وهناك سوف لن يجدوا من يسألهم أين ذهب فلان، أو أين اختفى علانّ، ينامون في هدوء إذا أكلوا، يسرّون عن أنفسهم، وإذا ما رضي أحدهم عن نفسه ضمّ زوجه إليه، وغاب معها وراء حدود اللّذّة الّتي لا تحدّ، فكّر كثيرا: لماذا لا يفعل مثلهم؟! وما يمنعه ممّا يريد؟! أهي والدته حقّا؟! هل هي السّتّ توحيدة؟! أم شيء آخر، لا يعرف كيف يترجم عنه، أو يتخلّص منه؟!... لا يعرف هل يواصل طريقه، أو يتراجع إلى الخلف، توقّف قليلا ريثما يحزم أمره، اخترقت أذنيه للحظة أصوات تأتيه من قريب، وعندما التفت رأى شابّا ما يزال في مقتبل العمر وهو يمسك بكلتا يديه باب أحد الميكروباصات، وهو يصيح: عتبة ، عتبة!! هذه الأصوات لا تكاد تتوقّف أبدا في ليل أو نهار، دائما هناك أناس، أناس كثيرون، لا يهدأون البتّة، إمّا آتون من مكان ما، أو ذاهبون إلى مكان ما، وهو الآن واحد منهم، إلاّ أنّه لا يدري إلى أين يذهب، لم تكن الوكالة تبعد عنه إلاّ مقدار رمية حجر، والدّنيا من حوله بدأت تتلفّع بغلالة الأصيل، فسيكون عليه إذن أن يعود؛ ولكن هل غادر الميكروباص في موعده المعتاد؟ ما يزال هناك وقت! نظر في ساعته، كانت السّاعة تشير إلى السّادسة إلاّ ربعا... حثّ خطاه بعد أن عبر الشّارع إلى الجهة اليمنى، كان الرّصيف ضيّقا جدّا، وكان عليه أن يفسح لنفسه طريقا بين تلك الكتل البشريّة المتدافعة، سطعت أنفه روائح التّمباك المنبعثة من بعض المقاهي المحاذية للرّصيف، وطرقت سمعه فوضى أصوات مشوّشة، مختلطة بفرقعة حجر الدومينو، فيما مضى كانت تأسره تلك الأصوات، ويرتاح لمنظر تلك المقاهي، وواجهات المحلاّت، ومصاريع الدّكاكين المفتوحة، وأكوام البضائع المبعثرة هنا وهناك، ولا يعدم في أحايين كثيرة متعة الإشراف على كلّ ذلك من مجلسه على ناصية إحدى المقاهي، يتطلّع إلى الرّائح والغادي، ويرقب النّساء المنقّبات اللّواتي كنّ يصحبن بناتهنّ، فيخمّن بنظرة ثاقبة إلى البنت مدى جمال

أمّها، لم يرث هذه الخصلة عن أبيه، وإنّما اكتسبها في القاهرة، مكوثه السّاعات الطّوال بالوكالة، يعالج عبء الرّتابة إذا لم يكن هناك زبائن، فراغه إلى نفسه في الكثير من الأحيان، إذا لم يكن هناك أحد سواه، كلّ ذلك كان من شأنه أن يكسبه عادات جديدة، لم يكن ميّالا بطبعه إلى كثرة المخالطة، وكان فيه شيء من انطواء، فلا يلذّ له إلاّ الوقوف بباب الوكالة، يسرّح طرفه في المشهد الممتدّ أمامه، ومع الأيّام صار يختصر ذلك المشهد حتّى غدا كلّه وجه امرأة، كان يحسّ جوعا مقيما بداخله، وكان يفسّر ذلك الجوع. حتّى يبرّر عدم خيانته لزوجه. أنّه تزوّج عن غير حبّ، وأنّه. على عدم رضاه. قد انصاع إلى رغبة أبيه الّذي لم يكن يملك أمامه إلاّ الرّضوخ والطّاعة، سمع الكثير عن أشخاص لا يكادون يفرغون من زواج، حتّى يملّوا ويبدأوا رحلة البحث عن امرأة جديدة، في السّويس كما في القاهرة، أشخاص منهم من بلغ من العمر عتيّا، تجاوزوا مرحلة الشّباب بسنوات، ولكن ظلّت فيهم غلمة لاتخفى، كان مجرّد ذكر امرأة بإسمها، أو عبور إحداهنّ على مرأى من أعينهم المتصيّدة، أو هفوّ ريح أنثى عن قرب، كافيا بأن يقلب كلّ شيء رأسا على عقب، ولعلّ بعضهم إذا ضاق صدره، أو أعجزته الحيلة، لجأ إلى واحدة من تلك الدّور العريقة في اصطياد زبائن اللّيل والنّهار، حيث غالبا ما تبدأ الرّحلة في الصّالة، صحبة المعلّمة، وتنتهي في الفراش، وما بين هذه وذاك ، تلك النّشوة الّتي قلّما كان يجرّبها، ولكن لا يخلو في داخله من الحنين إليها، يودّ لو أسعفه الحظّ ليتزوّج على هواه ووفق رغبته، دون وصاية من أحد، حتّى ولوكان ذلك الواحد أباه، الّذي لم يكن يعدل به أحدا، في أويقات صفائه، وإخلاده إلى نفسه، يتراءى له عالمه حكاية من الحكايات الّتي تعجّ بها كتب السّيرة والتّاريخ، يستحضر نفحات بعينها، يرسم حدود مملكته على إحدى ضفاف بعض الأنهر، ربّما النّيل، أو الفرات، أو سيحون، أو بلخ، ويتخيّل قصرا يعطيه من الأسماء أعذبها وأقربها إلى القلب، الخلد، أو

الذّهب، أو القصر الأبيض، أو قصر العقيق، تفضي أبهاؤه إلى غرف من زبرجد، ومقاصير من الذّهب الخالص، وتقود الأبهاء والمقاصير إلى شرفات تتلوها شرفات، وتفتح الشّرفات على أريج الرّياض والحدائق، بين أزهار، وعلى توقيع زقزقات العصافير. ياه! في حياة والده، كان يخشى أن يتأخّر عن البيت فيسأل، يكره أن يقف أمام والده وقفة المساءل، لما في المساءلة من إحراج، وربّما اتّهام، إن لم تفصح عنه الكلمات الصّريحة، فستفضحه النّظرات والملامح العابسة، لكلّ ذلك كان يعرض رغم توقه، قد تأتيه المباذل دون أن يطلبها، فيتنكّب عنها، يهرب، وفي القلب غصّة، في الفؤاد شوق لا تعدله كلّ أشواق المحبّين والمتيّمين، كان يظنّ أنّه بوفاة والده ستتاح له الفرصة من جديد، وسيتدارك من أمره ما كان فاته، ولكن ذهبت كلّ أمانيه أدراج الرّياح، أصابه فتور، ثقلت همّته، وغدت رغباته أنقاضا متهالكة، لا تغني شيئا، يكتفي بمجرّد النّظر، يطيل التّحديق من بعيد، يرقب عن كثب، كالرّسّام الّذي يرغب في الإلمام بجميع جوانب المشهد، وليست له من غاية إلاّ إجادة محاكاة الأصل، متجرّدا من كلّ عواطفه، أو الواصف الّذي يطلب منه إبداء رأيه في الجارية فيقول عنها إنّها جميلة، دون أن يتعدّى اللّفظ حدود اللّفظ إلى ما دونه من النّشوة والغواية، النّساء جميعهنّ سواء، والدته كأخواته، وزوجته كأيّة امرأة أخرى، لا يكاد يميّز بين عاطفة الأمومة، وعواطف الأخوّة والزّوجيّة، ولحسن حظّه أنّه أنجب قبل أن تتداخل عليه المفاهيم والأشياء، صارت زوجته تبادر إذا أنست منه إعراضا أو تنكّبا، تدنو منه، تتلطّف في اقترابها، تمسك كتفه بحنوّ، وتجذبه إليها، تبسط كفّها على وجهه، تمرّر أصابعها على عينيه، تلمس بأطراف أناملها وجنتيه الخاسفتين، تهمس في غنج: ألا تنظر إليّ! تداعب كلماتها مشاعره الرّاكدة، ويجد نفسه فجأة ينظر إليها، تدنو منه أكثر، تهمس ثانية: قبّلني! يحجم قليلا، تعيد: أريدك أن تقبّلني! يرتعش، قشعريرة تهزّ كلّ جسمه، تقرّب شفتيها من شفتيه،

وفي اللّحظة الأخيرة، تتعمّد المماطلة حتّى تمنحه وقتا كافيا للاستجابة، تقبّل جبينه، وجنتيه، أرنبة أنفه، وفجأة يدنو بدوره منها، يمسك وجهها بين يديه، يدفس أنفه في وجهها، يسطعه أريجها، يقترب منها أكثر، ويلتحم الجسدان، ينصهران، يحسّ بحرارة غريبة تغزو كلّ جسده، وكلّما اتّحدت به، فاضت أوصاله، وسالت روحه، الخدر، الضّياع، رحلة اللاّعودة، وهووهي ، جسدان اثنان وروح واحدة، كانت تتلاشى مع كلّ أنّة، وتتشظّى في كلّ نفس من أنفاسهما الحارّة... آه ، إنّه يقدم ويحجم، يسرح بعيدا، ثمّ يثوب إلى نفسه حيران ملتاثا، بداخله يتمنّى لو امتلك زمام كلّ النّساء، يتمنّى لو كان مثل الّذين سمع عنهم كثيرا، الّذين ملكوا الجواري والحرائر، الغواني والسّراري، الّذين تحدّثت عنهم كتب التّاريخ بكثير من المبالغة الممتعة، وفجأة إذا عاد فاصطدم بصخرة الواقع كان عاجزا حتّى عن مجرّد التّفكير بزيارة واحدة من تلك الدّور الّتي لم تكن تبعد عنه الاّ بمقدار ما يكفي لإغماضة العين وفتحها... قادته قدماه إلى الوكالة من جديد، لاحت له أنواروانية، كانت تصارع أسراب الظّلمة المتكاثفة، وبدا له المكان خاليا رغم حركة السّيّارات الكثيرة الّتي كانت تعبر الشّارع على الضّفّة الأخرى، وجموع الرّاجلين الّذين حانت ساعة عودتهم إلى دورهم بعد انتهاء دوامهم، لم تكن لديه رغبة في النّظر إلى أيّ شيء، وكان شاغله أن يستحضر بعض ما سيقوله للجماعة إذا سالوه عن سبب تأخيره، دلف إلى الدّاخل، لم يكن هناك أحد، وقد ضاعف ذلك من استغرابه، ثمّ ما لبث أن تذكّر الرّحبة في الخلف حيث تقبع ميكروباصات الوكالة، فكّر أنّ مفتاح وفتحي قد يكونان يضعان اللّمسات الأخيرة قبل انطلاق الرّحلة، وضع حاجات المسافرين في مكانها، استعجال البعض ممّن آثر الانتظار في بهو أحد المقاهي القريبة، تفقّد الجوازات، وما إلى ذلك من الأشياء الصّغيرة الأخرى، كان يسمع لغطا وأصواتا من حين لآخر، وقد تبيّن في تلك الأصوات صوت فتحي، لا بدّ وأنّه يدخّن، فقد كان صوته

مشروخا، وهو ما ينفكّ ينفث دخان سيجارته سيّما إذا كان الدّور عليه ، يرى أنّه لزام عليه أن يكون جاهزا، وإحدى علامات الجاهزيّة بالنّسبة إليه أن يكون ممتلكا لجميع أسلحته، وعلى رأسها دائما علبة سجائره وقدّاحته... اطمأنّ قلبه قليلا، واستسلم إلى دعة السّكون، وهو يجلس إلى المكتب، ثمّ وهو يقلّب أحد المستندات دون أن يكون لديه أدنى فكرة عمّا فيها... تنهّد، أطلق زفرة حرّى، جذب سيجارة من جيبه، أشعلها، سرّح طرفه في المدى أمامه، جذب نفسا، ومع الدّخان انطلق صوته بجمجمة مبهمة:

.كم أنا بائس!!

((٤))

. بين زوجين .

...فرحتها الأولى ، بعد سنتين كاملتين من عقم، حار فيه الشّيخ السّويسي في البداية، ثمّ الأطبّاء الّذين زارهم وإيّاها، ووالى زياراتهما إليهم، حتّى انتهى بهما الأمر إلى الرّضوخ والتّسليم، حين حار الطّبّ في أمرهما، أزمعت أمرا، حزمت همّتها، طوت سريرتها على قرار لم تطلعه عليه، خشيت إن أخبرته أن يعارض، أن يتّهمها بالكفر، رغم أنّها كانت تفكّر فيه أكثر ممّا تفكّر في نفسها، الأولاد، الخلفة، شيء. يعلم الله. أنّها لا تطلبه لنفسها، وإنّما تختصّه به هو، وحتّى من قبل أن يتزوّجها، بل حتّى من قبل أن يتقدّم إليها، آلت أليّة على نفسها أن تنذر نفسها لمن سيكون زوجها في المستقبل، وحينما واتاها حظّها، وعرفت أن بعلها يندر مثيله بين الرّجال، بعدما خبرته في الكثير من المواطن، انضافت إلى حرمة وعدها الّذي أخذته وهي خليّة البال، حرمة ثانية، هي حرمة الحبّ والتّقدير... أضناها صمته، رغم سهولة عشرته، أرّقها رجوعه إلى البيت سعيدا طلق المحيّا، وهي تعلم أنّه ينطوي على ذلك الألم الكبير الّذي لا يعرفه الا المحرومون، حرصه أن يفي بمتطلبّات السّرير، دون تقصير، مدركة أنّه لا يفعل ذلك بغير قليل من الحسرات، والدّموع ، هذه الدّموع الّتي تبذل مثلها أو أضعافها في صمت، من أجله هو، في المقام الأوّل، ثمّ لأجلها هي، أو ليست زوجة، وتطمع. مثل كلّ زوجة. أن تتوّج رأسها بين صويحباتها بتاج الأمومة، كيف احتملت تينك السّنتين على طولهما؟ كيف صمدت ببسالة أمام نكران ذاتها وكرم زوجها المفرط؟ لم تدّخر جهدا في إسعاده، أحاطته بكلّ رعايتها، وفي قمّة

يأسها، ومتحدّية جروحها الّتي في صدرها، والّتي ما فتئت تنكأ يوما بعد يوم، جثت أمامه، حنا عليها، وهرع إليها يريد أن يجلسها بمحاذاته، غير أنّها تمنّعت، فقد كان قرّرأيها على أمر، يعلم الله، أنّها لم تتوصّل إليه دون أن تنازعها نفسها آلاف المرّات، ودون أن تبذل كلّ ما في طاقتها لإقناع نفسها بما هي مقدمة عليه، قضت ليالي بأكملها مسهّدة، جفاها النّعاس، كانت تتظاهر بالنّوم، في السّرير، إلى جانبه، وهي تعلم أنّه سيجبر نفسه على الرّفق بها، والتّسرية عنها، وسيحاول أن يرضيها بما يرضي به الرّجال النّساء، كانت تريد أن تجنّبه عذاب النّظر في وجهها، عذاب تكلّفه البسمة، والقلب، من الدّاخل، مقروح، مدمى، كانت بعد توحيدة الجميلة، ولم يكن لقب السّتّ قد لصق بها بعد، وكانت تدرك أنّ امرأة غيرها، إذا أعجزها الإنجاب، سعت بكلّ طاقتها أن تدلّ على زوجها بجمالها، فكّرت ألف مرّة، ساءلت نفسها: أنا اليوم جميلة، فمن لي بعد إذا ذهب الجمال، وراح رواء الوجه... الرّجال يرغبون في شيء آخر غير الجمال، لا بدّ من ولد يؤنس الوحشة، ويزيل الوحدة، وإذا عجزت المرأة أن تحقّق للرّجل هذا المطمح، فالأفضل أن تختفي من حياته، مرّة، وإلى الابد!؟!! بكت، في وحدتها، حال الخلوّ إلى نفسها، في بيت الحمّام، حتّى لا يسمع نشيجها، فتضاعف من قهره وألمه، في الصّالة، في ساعات الفجر المبكرة، إذا أخلد إلى النّوم، وتلقّته أجنحة السّبات، في كلّ مكان، حتّى غدت الشّجنة ديدنها، والحزن رفيقها... تقدّمت منه، رفعت رأسها قليلا، جذبت يده إلى فمها فلثمتها بلوعة الثّاكل، قبّلتها، حتّى بلّلتها بدموعها، ومن بين غصّتها ونشيجها، همست: طلّقني، يا سي محمّد!! ... لم ينبس بحرف، تملّكه رهب وخوف، أعجزاه عن النّطق والكلام، لم يميّز ما قالته، كأنّه أبكم لا يفقه، وقد كان عليه أن ينتظر قليلا، حتّى يفرخ روعه وتعاوده سكينته وهدوءه، تزحزح في مكانه، ونزل حتّى حاذاها، وقال وهو يربّت كتفها تربيتة فيها ما فيها: والله، يا توحيدة لو وزنوك لي ذهبا ما طلّقتك... ثمّ

أضاف، وهو يسايرها إلى مجلسه: لن أطلّقك ولو كان في طلاقك حياتي!!... لا تنكر بينها وبين نفسها أنّها سعدت كثيرا إذّاك، حتّى لكأنّها ولدت من جديد، أو بعثت خلقا سويّا من بين الأجداث والأموات، غير أنّ غصّتها الأولى لم تزايلها كلّما تطلّعت إليه، فلاحت لها تلك النّظرة الشّجيّة في عينيه، وهو يحاول أن يغطّي عليها بتلك الابتسامة العذبة، واتتها الشّجاعة لتفكّر مرّة أخرى ، وتمعن في التّفكير، قالت تحدّث نفسها، إذا خابت المحاولة الأولى، فقطعا ستصيب الثّانية، انتظرته ذات ليلة قمراء، جدّت في إرضائه، ومنحته نفسها بعد مقدّمات كادت تمحّي حلاوتها من ذاكرتها لكثرة ما أصابها من الخيبات والحسرات، فلمّا أحسّت بجسده اللّدن ينحسر من فوق رخص جسمها، جعلت يدها تتسلّل رويدا رويدا حتّى لامست كفّه، وجعلت تمرّرها بغنج على طول ذراعه الغزيرة الشّعر، كان يبدو أنّه يتجاهلها رغم أنّ قشعريرة يسيرة أحسّتها أكّدت لها بما لا يقبل مجالا للشّكّ أنّه كان يتلذّذ بدعابات ما بعد الحبّ، لم ترد لتلك الفرصة النّادرة أن تفلت منها، فمالت إليه في أريحيّة الأنثى المتوثّبة، وجذبته إليها، وهي تقول: أريد أن أزوّجك بمعرفتي، يا سي محمّد!!... اضطرب في مكانه كالملسوع، واعترته رجفة جعلته يرتدّ عنها رغم حرصها على عدم إفلاته، وما عتم أن قال في استنكار: تريدين أن أتزوّج عليك، يا توحيدة!!... ثمّ أضاف بعد أن أخذ نفسا عميقا، ليذهب عن نفسه صدمة المفاجأة: ومن يقول ذلك؟! أنت الّتي تقولين ذلك، يا توحيدة!! يا للعجب، أنت تطلبين منّي أن اتّخذ عليك ضرّة تشاركني فيك!!... غير أنّها لم تكن لتعير كلامه أدنى اهتمام لسابق عزمها على ما قرّرته، وإنّما رسمت على شفتيها ابتسامة أرادتها أن تكون السّلاح الّذي سيدفعها إلى نهاية الشّوط الّذي اختارته مضطرّة، قالت له: لا بدّ من ذلك، يا سي محمّد!؟!... فردّ عليها حتّى من قبل أن يدعها تتمّ كلامها: ولماذا يكون ذلك واجبا، إذا كنت أنا راضيا بقسمتي؟!!... جهدت أن تدفع دمعة كادت تنحدر على خدّها، أدارت

وجهها حتّى لا يرى تلك المسحة من الحزن الّتي رنت على سحنتها، قالت بصوت بدأ يعروه شيء من التكسّر والاضطراب: أخشى أنّه لا بدّ من ذلك، إذا أردنا أن نعيش سعداء... قاطعها: أنا سعيد... فمن قال لك إنّني لست سعيدا؟!... واجهته، وقد عزمت أن تخوض معه جلادها إلى النّهاية، حتّى تعذر إليه، ثمّ إلى نفسها، فاذا ما اختار أن يحتفظ بها الى جانبه، سيكون عليه أن يتحمّل مسؤوليّته إلى آخر رمق في حياته، ويالها من مسؤوليّة ثقيلة لا يقدر على حملها إلاّ الصّفوة من الرّجال، قالت: يا سي محمّد، لا تحاول أن تخدع نفسك، أو تراني أجهل أنّك تتعذّب في صمت؟ أو تراني لا أفهم معنى تلك النّظرات الجامدة الصّامتة؟ أو تعتقد أنّي غير ملمّة ببعض من شأنك؟... أجل، لقد كنت أعرف كلّ شيء، أرقك الّذي ما تنفكّ تنوء بحمله ليلة بعد أخرى، نشيجك المضني، في أواخر اللّيل، بعد أن يذهب في ظنّك أنّني أخلدت إلى النّوم، وكلّ ذلك حتّى لا تجرح مشاعري، حتّى كوابيسك كنت أعلم أنّها توافيك دون انقطاع، وهروبك... بلى، هروبك منّي، حتّى لا تضعف ويتمكّن منك الوهن أمامي، كلّ ذلك كنت على علم به، كما أعلم أنّك تبذل جهدا مضاعفا لتسعدني وتسرّي عنّي وأنت المقروح الّذي في حاجة إلى التّسرية والعزاء!!... آه، يا سي محمّد، إنّي أتعذّب لأجلك، ولو خيّرت بين كلا السّعادتين، سعادتك وسعادتي، لاخترت سعادتك دون تردّد، فأنت بصري الّذي أرى به، وسمعي الّذي أسمع به، وتاج رأسي الّذي أفخر أنّك منحتنيه دونا عن كلّ النّساء!!... آه، يا سي محمّد، إنّي أتوسّل إليك أن لا تحرمني هذه التّضحية في سبيلك وسبيلي!!... لم يشأ أن يقاطعها رغم حاجته إلى فعل ذلك، فقد كان كلامها جرحا آخر ينضاف إلى قديم جراحه، تركها تلقي بذلك الحمل من على صدرها، فلا أحد مثله يعلم أنّ خير ما يعزّي به الإنسان نفسه هو هذه الكلمات المشبعة بحرقة الفؤاد المكلوم، مدّ يده إلى خدّها ليسمح عنه بقايا دموع كانت تسيل عليه طوال الوقت، وقال متلطّفا: لا مفرّ من

تصاريف القدر، ولا بدّ أن نصبر، فلعلّه أن يكون ابتلاء من الله، فإذا ما كان كذلك فأحرى بنا أن نصبر... ثمّ: أمّا موضوع الزّواج، وأن أختار عليك، فهذا ما لا أستطيعه، ولا سبيل إليه، فاصبري إذن، وسأتجمّل مثلك بالصّبر حتّى يقضي الله أمرا كان مفعولا!!... كانت أحوج ما تكون إلى النّسيان، ولكن من لها به، كانت توهم نفسها أنّ الأمر قد انتهى إلى ما انتهى إليه، وأنّها سترتاح أخيرا من العبء الّذي كان إلى حدّ تلك اللّحظة يرين عليها، كان بودّها أن تقتنع أنّ الحياة ستسير أخيرا على نفس وتيرتها الأولى دون منغّصات، سيّما أنّها أدّت واجبها كاملا تجاه زوجها، ورفضت أن تبني كلّ سعادتها على أنقاض آلامه وأحزانه، ولكنّ نفس الإحساس بالذّنب يلحّ عليها، وعذاب المواجهة يطلّ برأسه الصّغير المدبّب ليحرمها هناءة العيش الرّغيد مع زوج رغم شهامته وكرمه فإنّه كان أعجز ما يكون عن إخفاء ما بداخله... زارت مقام السّيّدة زينب مرارا، تمسّحت بعتباته حتّى تقرّحت عيناها من الدّموع، وبذلت النّذور إلى من كانت تتوسّم فيهم الطّيبة والتّعاطف مع ما كانت تحسبه نكبتها، تخرج أيّام الجمع، لتحضر الصّلاة بالمشهد الحسينيّ، وتظلّ بعد أن يغادر المصلّون، فتخلو إلى أدعيتها وبكائها الشّجيّ الطّويل، كانت تتوسّل بدماء السّبط الّتي أريقت في كربلاء، ودماء عترته من أهل بيته، وهي الّتي ما انفكّت تذوب ألما كلّما سمعت حكاية مقتلهم يتلوها والدها الشّيخ تقي الدّين، ولم ينقطع عن تلاوتها حتّى في سنوات مرضه وقبل أن ينتقل إلى الرّفيق الأعلى، شبّت في بيت أبيها، وأرج أهل البيت يملأ أنفها ويملك عليها كلّ فؤادها، تذكر ما كان منهم وما كان من أعدائهم، فهي لا تكاد تملك نفسها عن البكاء لمجرّد أن تسمع إسم أحدهم، أمّا إذا سمعت حدثا كان لأحدهم فيه ضلع، وكان ذلك الحدث مقترنا بمأثرة أو فاجعة فإنّ الدّموع ما تلبث أن تتفجّر أنهارا، وتحسّ بداخلها شيئا أشبه باليقين الّذي لا يشعر بمثله إلاّ المخلصون الطّيّبون، وهي إن لم تكن واحدة منهم فهي على الأقلّ من

المقرّبين إليهم، كانت تنتحل الأسباب لتخرج من البيت، فإذا ما خرجت قادتها خطواتها، سواء بإرادتها أو غير إرادتها، إلى مقام وليّ، أو ضريح تقيّ من الأتقياء، بعضهم كانت تعرفهم بنفسها، والبعض الآخر كانت تسمع بهم من بعض النّسوة اللّواتي كنّ يطفن بها بين الفينة والأخرى... ذهبت إلى سيدي البدوي، وعندما صحبها زوجها إلى الإسكندريّة كان كلّ همّها أن تزور سيدي المرسي أبي العبّاس، ولم تخف عنه رغبتها، بل صارحته قائلة: لعلّ وعسى، يا سي محمّد!!... لم يرد أن يكسر خاطرها، ذهبا معا إلى المقام، وتلوا معا في خشوع الفاتحة وأطالا الدّعاء، حتّى إذا ما لمح دموعها، وسمع نشيجها، خشي أن تنتقل العدوى إليه، فاستأذنها لقضاء بعض حاجته، وخرج وهو يكابد همّا ثقيلا، أثقل عليه من همّ المرض لو وافاه، أو الموت لو طرقه!!... آه، ما أشدّ رحلة الصّبر!! وما أمضّ ذلك الانتظار الّذي تتسربل فيه، وأنت تدرك أن لا خيار آخر لديك!! انتظار شيء، ربّما رجاء أو نبوءة، لا تدري هل يصدق أو يخيب!!... لو كانت استقبلت من أمرها ما استدبرت، ربّما كانت رفضت أن تتزوّج حتّى تجنّب نفسها هذا الكمّ الهائل من العذاب المرير!! لو كانت تعلم هذا المصير، الّذي يفوق آلاف المرّات مصير الثّكالى من النّساء، والأرامل، ومن تقطّعت بهنّ أسباب الحياة، لرضيت أن تقبع في بيت أبيها العمر كلّه، وهي راضية، خليّة البال، لكن ما وقع وقع، رغم إرادتها، فليس أمامها إلاّ الاصطبار، سيّما وهي المرأة المؤمنة، كانت في أغلب الأوقات، ترجع على نفسها باللاّئمة، وتزجرها عن غيّها، فهواجسها، ونزغات قلقها وشكوكها، ليست في الحقيقة إلاّ نفثات من كيد الشّيطان، ونزغ من نزغاته، لطالما فزعت إلى الصّلاة، كانت تهرب عند الإحساس بالوهن والضّعف، تغلق من ورائها باب غرفتها إذا خلت إلى نفسها، تبسط سجّادتها على الأرض، تمعن في الصّلاة، حتّى تشعر ببعض التّعب، فإذا ما خشيت أن تتحوّل صلاتها إلى مجرّد قيام وقعود بلا قنوت ولا تدبّر، تناولت مصحفا من أحد الأرفف، وجلست

ترتّل في داخلها الآيات بقلب تنازعته خشية ورهبة وطمأنينة: الألم، الفراغ، الإحساس بأنّ شيئا في داخلك يأبى إلاّ أن يفسد عليك لحظات خلوّك وإخلادك إلى ربّك، هل كانت لها حيلة في تفاديه؟ هل كان في إمكانها أن تنسى أنّها امراة؟ وأنّها أكثر من ذلك امرأة عاقر، لا تختلف في ذلك عن أيّ نبات بلا ثمر؟... وهي في خضمّ انقطاعها إلى ربّها، في غمرة صلاتها، تتداخل عليها الأشياء، فلا تدري هل صلّت ثلاثا أو أربعا، هل تشهّدت أو نسيت تشهّدها، هل أفرغت من نفسها لأداء واجبها ما يتطلّبه من الخشوع والإنابة، هل قنتت، هل ذكرت متجرّدة من كلّ غاية أووسيلة، هل كانت ذلك العبد الّذي يعبد ربّه دون طمع في أجر أو مثوبة، تغيم عيناها، وهي تمرّ على الآيات، كما تمرّ الغيمة على صفحة سماء صافية رائقة، تضيع، تتلاشى تماما، تتساءل أحيانا: أين الله في قلبي؟!

...هيهات! هيهات! إنّها امرأة، وستظلّ امرأة، مسكينة بائسة، تبحث عن سعادتها في الخلفة والولد، في القرب من زوجها، والتّقرّب إليه بما تتقرّب به النّساء إلى الرّجال، دعت الله، بلى لقد دعته، حتّى يفكّ «ضيقتها»، ويجبر بخاطرها، دعته، دون خجل، أو وجل، دعته في شكاة، وهي تبثّه ضعفها وقلّة حيلتها، بلى دعته، حتّى وهي تتوسّل إلى غيره من العرّافين والعرّافات، وتتحصّن بالأحجبة، والنّذور، الّتي كانت تبذلها دون علم «سي» محمّد!!... وجاءت أخيرا فرحتها الأولى، بعد سنتين مريرتين من الضّنك والضّنى، حين نظرت إلى الوليد، على ما بها من الإرهاق وإجهاد الوضع، بدا لها كأنّ أمّا، أيّ أمّ، لم تلد مثله، وأنّ الله حينما حرمها كلّ هذه المدّة، إنّما ليعوّضها عن صبرها بما لم يعوّض به امرأة غيرها، تجاوزت لحظة الوضع كلّ التّقاليد والأعراف، لم تنتظر زوجها ليسمّي المولود، قالت للممرّضة الّتي أقبلت لتسأل عن زوجها: «لا داعي للانتظار، لقد سمّيته بدر!!»... ياه، يا لقلب الأمّ ، يا لسعادتها!! في أوقات محنتها، وهي تبثّ شجون نفسها إلى نفسها،

كانت تتساءل، إذا طفح بها الكيل، هل ستنسى في يوم ما ما مرّبها، هل يمكن لأنثى أن تلقي وراء ظهرها الحمل الّذي ظلّت تنوء به، ليلها ونهارها، صبحها ومساءها، الحرمان، الحزن، وشعور أشبه باليتم؛ هل كان أيّ شيء، مهما زادت قيمته، أن يكفّر عن لحظة واحدة من تلك اللّحظات العصيبة الّتي مرّت بها؟! هل... وهل.... بلى، لقد انهار في لحظة ما كابدته في سنين، وما ذاقت مرارته خلال أعوام الجدب، والخوف من آت ما زالت تجهل خباياه، يتلاشى الآن في طرفة عين، يتبخّر، وكأنّه قطرات من ماء ألهبتها حرارة الشّمس فذابت، خلال رحلة صعودها إلى برزخ غير منظور، «أمّ بدر»، أمّ الفتى الصّغير، والدة الصّبيّ الّذي أخذ فجأة يملأ صحراء البيت الرّحبة بصياحه وصراخه، وما كان أجمل ذلك الصّياح وذلك الصّراخ حين تلتقطه أذنا «سي محمّد»، سواء من الصّالة، وهو يستمع إلى آخر الأخبار، أو وهو ينتظر الموعد الأسبوعيّ لأغنية «السّتّ»، أو وهو في غرفة نومه على سجّادته يتلو أوراده أو يقرأ القرءان، ترفّ على شفتيه الكليليتن ابتسامة، على ضآلتها، ما كان أبلغها في التّعبير عمّا يجبش في صدره، تخضلّ لحيته الصّغيرة بدموع حرّى، يرفع يديه إلى السّماء، فتخرج كلماته، من قلب مقروح بدأ، مع الأيّام، يلتئم شيئا فشيئا: «اللّهمّ أقرّ عيني أمّه به، ولا تفجعها فيه!»، لم يكن يعني ذلك أنّه كان عازفا عن الولد، أو غير راغب فيه، ولكنّ أكثر إيثاره إيّاه وحدبه عليه، كان مصدرهما . وبالدّرجة الأولى . عطفه عليها، هي، أمّ ولده، من ظلّت منطوية على نفسها في أحلك أيّامهما الّتي قضياها مع بعض، من قدّمت نفسها على مذبح التّضحية مؤثرة إيّاه على نفسها، وكانت مستعدّة لفراقه، فقط من أجل أن لا تكون عائقا في سبيل سعادته، وربّما لو لم تفعل هي ذلك، لكان هو فكّر فيه، ولكن بعد الّذي رأى منها، لم يرد لها أن تكون أكثر شهامة وكرما منه، اقترحت أن تخطب له، ولم تدع وسيلة الاّ توسّلت بها إليه، في داخله، كان يشعر بغير قليل من

الضّآلة، هذه المرأة كانت تفوقه في كلّ شيء، على علوّ همّته وكرم أخلاقه، كانت هي الّتي أخذت التّاج الّذي جمّلته بصبرها واحتمالها، ودماثتها ورقّة جانبها، وودّها ووفائها، ووضعته بيديها الرّقيقتين، على رأسه الّذي شيّبته الأرزاء قبل أوان مشيبه، يلملم نفسه، يهبّ هبّة من ألمّت به فورة الشّباب، وقد كانت زايلته منذ أمد غير قريب، يطوي السّجّادة، ويضع المصحف على إحدى المناضد بجانب السّرير، ويهرع إلى الباحة، وهو ينادي يصوت به بحّة ورقّة، وقد غلبت رقّته على بحّته: «بدر! بدر!»... تسمعه «السّتّ» توحيدة، وسرعان ما يراها وهي تحمل صينيّة الشّاي، تقف بجانبه هنيهة، وهي تتامّله بعينين رائقتين، وكأنّهما لم تعرفا طعم الدّموع يوما، ولم تتقرّح أجفانهما في يوم من الأيّام، تضع الصّينيّة فوق بساط على الأرض، وتجذبه برقّة من كمّه، فتجلسه إلى جانبها، وتقول بعد أن تلقي ببصرها إلى ولدها، وهو يحبو وسط الدّار: «وماذا يريد أبو بدر من ولده بدر؟!»، يتطلّع إليها مليّا، وهو يتفرّس في قسماتها الّتي لم تتخلّص بعد من ذلك الظّلّ المقيت الّذي ما فتئ لصيقا بصفحة وجهها، دون أن يفارقه، يمسك يدها الصّغيرة بين يديه، تنزل دمعة كبيرة على وجهه في الوقت الّذي ترقرق حلقه ببداية ضحكة تتردّد بين حنايا قلبه، يقول: «وماذا تراه يريد أبو بدر؟! إنّه يريد أن يرى في بدر أمّ بدر!!»، تعوّدت منه ذلك الكلام ، لذلك لم تتفاجأ به، قالت: «الله لا يحرمني منه ومنك، وهل كان الولد إلاّ فرعا يانعا من أصل أبيه؟ منه أخذ ملامحه، وإن شاء الله يكبر على أخلاقه وفضله!!»، ضغط على يديها برفق، قرّب شفتيه فقبّل جبينها، وقال: «بل الفضل فضلك ، يا أمّ بدر، والخلق ما كان منك، من إيثارك على نفسك وأنت مكسورة الخاطر مهيضة الجناح...»، وبعد فترة صمت قليلة: «أرأيت، يا أم بدر؟ ألم أقل لك إنّ فرج الله لا ييأس منه إلاّ القانطون؟ أرأيت ما كان أقرب رحمة الله!؟»، فتصمت لحظة، وتقول بدورها: «أجل، لقد صدقت، يا أبو بدر، إنّ رحمة الله وفرجه لا

ييأس منهما الاّ الكافرون!»... وتمضي الحياة رائقة، في هينتها، تسرق من عنجهيّة الزّمان، ما ترشو به صلفه وكبرياءه، دعة، وسكون، وسعي بين الوكالة، وبعض بيوت الأصحاب، والدّرب الجديد إلى الحوش، وإلى لحظة لقاء الشّيخ، على سجّادته، وهو بين أويقات غشية قد تطول، ولحيظات صحو، يرمق فيها جليسه، بملامحه الّتي أخذت من ساعات التّهجّد الطّويلة، وخلواته المتّصلة، سمتها ومهابتها، يذكر سي محمّد الشّيخ، ويذكر الحوش، ولولا وليده، الّذي بدأ يملأ عليه كلّ حياته، لاختار . طائعا . أن يظلّ هناك، داخل حدود المكان، يتفيّأ ظلال السّكينة، الرّائنة على كل شبر في الحوش، كان والده من قبله مريدا، وجدّه من قبله ومن قبل والده، عائلة السّويسي جميعها، ضاربة جذورها في عراقة التّصوّف، وتجلّيات الشّطح، لم يختر سي محمّد الطّريق الّتي اختارها عميدا العائلة من قبل بمحض إرادته، ولكن دفعته إليها وحدته حين كان يؤوب إلى منزله، فيجد زوجته خالية إلى نفسها، تندب حظّها، وتستعين على وطأة الأيّام بنسك فاق حدود الاعتدال، هو نفسه لجأ إلى الصّلاة، حاول أن يأخذ نفسه بشدّة العبادة، لكنّ زوجته كانت دائما تذكّره بعجزه، صوتها الّذي كان يتناهى إليه، من جميع الأمكنة، حيثما كان، نشيجها، بكاؤها، وهو يحسّه ينغل عبر شغاف القلب، حتّى يبلغ النّياط، ويمزّق كلّ أغشية الصّمت داخله، كان مثلها يبحث عن عزاء ما، عن «ونسة»، عن خلف يرى فيه نفسه، إذا أخنى عليه الزّمن، و«راحت عليه»، على حدّ تعبير ذوي الأسنان من أهله، ومن غير أهله، بعد ذلك صار يطيل المكوث خارج البيت، عرف الطّريق إلى الشّوارع العريضة، في أنحاء القاهرة، إلى الأرباض، وعرف المسالك المطروقة وغير المطروقة، تعلّم أن يحبّ الأبعاد والمسافات، والأزقّة الجانبيّة، وحديث الأصدقاء، كما صارت تستهويه الأصوات، الأصوات الّتي كان يراها مجرّد أصوات، تصدر عنها، في الأخير، أصداء، لتتلاشى في الهواء، مخلّفة إحساسا بالرّثاء، ما

يفتأ أن يختفي تأثيره في الباطن، صوت الآذان، يرتفع، في نهايات الأماسي، من المنائر البعيدة، في مهابة وسكون، من الأزهر القريب، من رحبة الحسين، ومسارب خان الخليليّ، من مساجد قصيّة، ما زالت تضوع منها تلك الرّائحة القديمة، تبدو مستوحشة، منفردة، نسيها الكثيرون، غير أنّها ما زالت تقاوم، مذكّرة الجميع، بماض، كانت فيه القاهرة هي كلّ هذه المساجد، ارتفعت بأيدي المصريّين، في زمن المماليك، ولم يبق منها الآن إلا بقايا أشلاء، ليس لها إلاّ أن تقاوم الزّمن، وأن تعانق نداءات الباعة المرابطين حولها، وشذّاذ الآفاق، الّذين ليس لهم من مأوى إلاّ أبهاؤها المكشوفة، وعابري السّبيل المنقطع بهم، حتّى تشعر أنّها مازالت قادرة على الصّمود، اعتادت أذناه أصوات الميادين القريبة، الضّحكات، وحتّى السّباب، وضوضاء «الخناقات»، ولكنّ أكثر ما شدّه، هذا الصّوت الجديد، الّذي لم يسمعه من قبل، أو سمعه، في زمن ما، ثمّ نسيه، بعد ذلك، صوت ينزل على قلبه بردا وسلاما، ليس أرضيّا، بل علويّ الرّنين، حين يسمعه يشعر برعشة، بدايات قشعريرة ترحل في كامل جسده، لتصيبه بما يشبه الخدر، مقاطع منتظمة، لا تتغيّر أبدا، ليس فيها ما يشير إلى ما وراء مقاطعها، غير ذلك الرّنين، تلك النّبرة الّتي تقال في كلّ مرّة بطريقة مغايرة، المقاطع نفسها، ليس ممّا يطالعه في خضمّ الحياة، ورتابة الواقع، نداء سماويّ، همسة تحلّق في أقاص مجهولة، قوةّ خفيّة المرامي «مدد! مدد!»، هل هو الشّوق؟ هل هي الرّغبة في الاتّحاد بشيء ما؟ هل هو التّجلّي، أو التّوق إلى التّجلّي، الذّوبان، الإشراق العلويّ، الهروب إلى مكان آخر، تنعدم فيه الأحزان، ويسود فيه الخلود، الّذي طالما حنّ إليه، كان يكره الموت، أو على الأرجح، يحسّ نحوه بنوع من العدائيّة، ينفر منه، لأنّه كان، حتّى في لحظات إشفائه على اليأس المطلق، يطمع أن يكحّل عينيه بطلعة أوّل أبنائه قبل أن يواريه تراب القبر، كان الموت بالنّسبة إليه، صورة جدّه، الّذي قضى ولم يره، كان

صورة والده، وصورة أقرباء أثيرين لديه، كان يرغب لو عاشوا أطول ممّا عاشوا حتّى يشعر بأصله، بذلك التّجذّر الّذي يشدّه إلى انتماء أثيل، وإلى الأشياء، والأسماء، ومن قبل الأشياء والأسماء، إلى سرّ الكنّ، وروعة السّكينة، داخل العالم الصّغير، الذي شهد أوان حبوه، ويفاعته، حيث كانت كلّ الأشياء تكبر بالتّدرّج لتغدو في النّهاية جزءا عزيزا من شخصيّته وكيانه، تلك الخواطر والمشاعر، ربّما لم يكن يحسن التّعبير عنها بذلك الشّكل، ربّما لم تكن ثقافته المتواضعة تسعفه بغير الإحساس، وربّما أيضا لم تكن تطيف به دائما، بل بين الفينة والفينة، غير أنّها كانت تكبر في داخله، يضيق بها كيانه، وكلّما داهمته، استشعر تلك الفرحة العارمة الّتي لا يحسّها الاّ أولو العزم من الرّجال، ياه ، كم كان الصّوت باعثا على النّشوة! كم كان قريبا على بعده! ربّما داهمه الصّوت وهو يحسو قهوته أو شايه على ناصية إحدى المقاهي، ربّما أحسّ به وهو خال إلى نفسه، يتأمّل الأشياء من حوله ولا يراها، يسمع أخلاط الأصوات المتداخلة ولا يعيها، ربّما ملأ الصّوت أذنيه، وهو في طريقه إلى البيت، حينئذ لا يتردّد، لا يمنح نفسه فرصة للتّفكير فيما يجب فعله، يمّم شطره، تثقل خطواته إذا ارتدّ على عقبيه، تخفّ خطواته إذا خطا في اتّجاه مصدر الصّوت، تغدو حركاته أنشط، تستفزّه نشوة، ويعتريه حنين، كان كلّما تقدّم، غدا الصّوت أقرب، وكلّما أمعن في المضيّ امتلأ بتلك اللاّزمة الّتي لا تتغيّر أبدا، كما لا تتوقّف أيضا: «مدد! مدد!»... لم يكن المكان في الأطراف، ولا في التّخوم، ولم يكن في قلب القاهرة، كان داخلها وخارجها في نفس الوقت، متباعدا في قرب، وقريبا في تباعد، وكأنّه نأى بنفسه، أو آثرته قوّة خفيّة، لحكمة ما، بهذا السّرّ الّذي لا يقرب منه إلاّ من قذفت في قلبه نفحة الميل، ونعمة الاقتران، كما كان سمع عنه من والده، قبل أن ينتقل إلى جواربّه، ليس فيه من زخرف سوى تلك البساطة الّتي لم يملك حيالها إلاّ استجابة باطنة سرعان ما طفت على ذاكرته حتّى

ملأته رهبة حييّة، أطرق إلى الأرض، وأنصت جيّدا إلى النّغمات، كان الوقت يتقدّم نحو اكتمال الغروب، وكانت الشّمس تحتضر، وقد ترنّقت بلون بنفسجيّ، وراء أفق بدأ يتراءى له شامخا وراء رفيف البنايات الّتي كانت تشرئبّ في عنفوان وسيطرة، رأى النّخلة الّتي كانت سامقة في شموخ، وألفى الباب مفتوحا، ومن خلال فتحته طالعته حلقة الشّطح، على رمال ناعمة، في رحبة فسيحة، التفّ حولها عشرات المريدين، وهم يصعّدون هاماتهم، ويخفضونها، في حركات كانت أجسادهم تؤدّيها، على غير إرادة منهم، كأنّ ما بهم من الوجد قد أحالهم إلى كائنات متسامية خارج الزّمان والمكان، جهد أن يتمالك نفسه، وأن يسيطر على جيشان مشاعره، غير أنّه لم يكن بمقدوره أن يمنع تلك الحرارة الّتي داهمت عينيه وكانت تترجم عن نفسها في سيل الدّموع الّتي طال انحباسها لتترقرق بعد ذلك على خدّيه، وتلتقي في لحظة ما وهي تتخلّل لحيته، كان طوال الوقت يقاوم رعدة ما فتئت تخضّ جسمه خضّا، ويحاول أن يكبح جماح تلك القشعريرة الّتي كان يحسّها في كلّ مكان، من رأسه حتّى أخمص قدميه، استسلم في الأخير، أدرك أن لا حيلة له في الأمر، وأنّ مصيره قد ارتبط .وإلى ما تبقّى من عمره . بهذا الحوش، وأنّه سيستحيل عليه الارتداد إلى الخلف، ولو حاول هو ذلك... قادته قدماه، كما قادت أباه من قبله في مكان آخر، إلى الباحة الدّاخليّة، منزوع الإرادة، مسلوب الذّهن، يلبّي شيئا بداخله، رغبة ما، ليست شرّيرة، وإنّما أحسّ بها كما لو كانت طريقا طويلة جدّا، على جانبيها قامت مئات الأشجار، على اختلاف أنواعها، وألوانها، وأحجامها، تطاول برؤوسها صفحة القبّة البعيدة، وفي البعد، كان كلّ شيء مواربا في هالة من البياض، الّتي لم يكن يراها إلاّ فيما يطيف به من أحلام اللّيل، كان يرى أشياء وأطيافا، خيالات غير واضحة، لكن كان يبدو أنّها تتواصل فيما بينها، الضّحكات الحلوة، القهقهات المترقرقة، وأصوات أشبه بتلك الأصوات الّتي كان يسمعها

في الموالد، ربّما تناهى إلى سمعه صوت طبل، أو نفخ مزمار، ربّما التقطت أذناه المتحفّزتان وطأ الأقدام وهي تضرب الأرض ضربات يسيرة، خفيفة، ظلّل عينيه بيديه، كانت الأنوار في كلّ مكان، وكانت على غاية من الإبهار، وكان يريد أن يرى كلّ شيء، مأخوذا بتلك اللّحظة الّتي لم يمرّ عليه مثلها من قبل، هذا المشهد لا يختلف كثيرا عن المشهد الّذي طالما سمع عنه، لا يختلف عن الحكايات الكثيرة، وحكايات أخرى مثلها، كبر على وقع رنينها يرتّلها والده على مسامعه وهو صغير، «الدّيوان»، الشّيخ الجليل «أبو عبد الله»، وقباب النّجف الأشرف، والعترة، وأويقات الوجد والتّصافي، هل كان ما يراه الآن مجرّد صدفة؟ هل كانت حياته، وهو يقترب شيئا فشيئا من النّهايات، اختصارا لهذه اللّحظة، هل كانت انتظارا، أم شيئا آخر، ما زال لا يعرفه إلى حدّ الآن، وربّما قد لا يعرفه أبدا؟... هل كان لا بدّ أن يرى ما يراه، وأن تنبهر عيناه بهذا المشهد الّذي وإن سمع عنه عشرات المرّات، إلاّ أنّ رؤيته، وهو يتملّى فيه، شيء لا يعرف كي يصفه، أو يحيط بمراميه؟!!... انشالت رجلاه، وغدت خطواته أسرع، وهو يهمّ بدخول الفناء، اجتاز العتبة، أحسّ ببرودة بدايات اللّيل، تتسرّب عبر مسامّه إلى أعماقه، الّتي كانت إلى حد تلك اللّحظة غافية، طأطأ رأسه إلى الأرض، فهاله بياض الرّمل تحته، وهالته أكثر آثار الخطوات الكثيرة غير المنتظمة، كانت عباءته توشك على السّقوط، ولم يكن يولي لذلك الأمر كبير اهتمام، كما انحرف طربوشه إلى أقصى اليسار من رأسه، رفع عينيه قليلا، وما أن وقعتا على الحلقة أمامه، حتّى غدا كلّ جسمه يهتزّ اهتزازات، لم تكن له الإرادة على السّيطرة عليها، انفرجت شفتاه، وامتلأ حلقه فجأة بهينمة الشّطح، بدأت الأشياء الّتي خلّفها وراءه تغيم من حوله، بدأ اللّيل ينحسر، وآثار النّهار، والقاهرة، الشّوارع، البنايات، والمقاهي، والبيت، وحتّى الغلام، وأمّ الغلام، ولم يبق من عالمه الكبير، غير هذه الأصوات الّتي تملأ أذنيه، وتلك الأجساد الضّامرة، تكاد تطلّق الأرض لتعانق

شؤبوب السّماء... «مدد! مدد»، شيخي أغث، مدد مدد!، طرقت الباب من حرّ التّصابي، شيخي أغث، مدد مدد!، وطلبت القرب من قلبي المصاب، فيا شيخي أغث، مدد مدد!... كان يضيع، وفي داخله تستحيل الأشياء إلى محض نقاط سوداء، لا تكاد تظهر حتّى تختفي تماما، ماضيه، ذكرياته العريقة، تختصرها تلك اللّحظة من لحظات الشّطح، تتبدّل الأسماء، الأماكن أيضا، أماكن جديدة ربّما لم يرها قطّ، ولم يحلم يوما بزيارتها، ولا حتّى بمجرّد رؤيتها، الأزمنة نفسها تتداخل، تنتفي، لتولد من جديد، وهو يملك الحرّية في الرّحيل لأيّها دون قيود تمنعه، أو قوى تحجبه، في مداه لا يرى غير البياض، وكلّما أمعن في الذّكر، داهمته الصّور الّتي كان خلّفها في الخارج، الخيالات تتجسّد أمامه الآن، والأطياف تكتسي لحما أمامه، تصير أجسادا لصور يعرفها، أو سمع عنها في صباه، اقترب منه ذلك الشّيخ، الوقور، كانت خطواته بطيئة، لكنّها ثابتة، لم يشعر به وهو يتقدّم، فقد كان له من نفسه شاغل لا يردّ، وحين هزّ رأسه ليخفضه من جديد التقت عيناه بعينيه، وألفى نفسه يبكي، وهو يرمي بنفسه بين أحضانه، ضمّه الشّيخ إليه، قال: «لا تبك، يا ولدي! فكل أمر وله ميقات لا يخلفه!!»، نهنه، خنقته العبرة، وظلّ للحظة تخونه الكلمات ولا يحير جوابا، قال: «طالت الغيبة، يا سيّدي، وطوّح بي الشّوق!!»، ابتسم الشّيخ، ربّت على كتفه تربيتة، وجد لها في داخله مثل برد اليقين، وشدّه شدّة اقتلع بها آخر ما بنفسه من بقايا خوف وبعض لجاجة، إنّه اليقين، وهو أحوج ما يكون إلى هذا اليقين، قال له: «إنّها البداية فقط، وعليك، يا ولدي، أن تقطع الطّريق إلى نهاية الغاية، إنّه ثمن المحبّة، وحتّى تتحقّق المحبّة ويكتمل الشّوط، عليك أن تصل، وللوصول دروب، فتوخّ السّبل الصّعبة، كي تبلغ شطآن السّلامة!!»... رآه يبتعد، يبتعد ويتوارى، استقبلته دفّة الباب الوحيدة، وأسلمه الفضاء في الخارج، إلى عوالم ما يزال يجهل مراميها وأبعادها، وجد نفسه يلتئم داخل

الحلقة، ويمسك بيدين، عن يمين وشمال، تهتزّ رأسه الحاسرة، في حركات لا تتغيّر أبدا، مخفوضة مرفوعة، يردّد مع البقيّة، لازمة الوجد، مدد مدد!، لا يدري متى انتهى كلّ شيء، لا يدري متى غادر المكان، هذا الحوش، وتلك الرّائحة الّتي كانت تأتيه من الزّوايا فتملأ خياشيمه، ويحسّ لها بانتعاش مخدّر، البخور، العود، كان اللّيل يتخفّف، رويدا رويدا، من بردته الثّقيلة، ويتثاءب متنفّسا نسمات الصّباح الأولى، منصتا إلى أثيريّة الآذان يأتي من كامل المسافات، يأتي من مساجد قريبة، وأخرى موغلة في البعد، الله أكبر الله أكبر، مؤثّرة، منغمّة، تتموّج مع الهواء، وتصعد إلى الأعالي، لتنحطّ، دفعة واحدة، وعلى غير انتظار على الأجساد الغافية، أو الّتي تصارع وسوسات النّوم الأخيرة، ملبّية جملة الختام: «الصّلاة خير من النّوم، الصّلاة خير من النّوم»... وهو يوشك أن يتجاوز العتبة، لم يتمالك نفسه من الالتفات، إلى أقصى اليمين، لم ير شيئا في البداية، فقد كانت الظّلمة تحجب كلّ شيء، ولكن ما أن استأنست عيناه بالغبش السّديميّ، وزايلته تلك الغشاوة الّتي كانت ترين عليه، وبدأت حيرته تتحوّل في داخله إلى طمأنينة رخيّة، خيّل إليه أنّ في الطّرف الآخر، على مبعدة من تلك الحلقة الّتي شهدت أولى شطحاته، كان هناك باب، لم يكن مغلقا، بل شبه موارب، ولاحظ أنّ أحدا من أولئك الّذين كانوا معه لم يكن يهتمّ له، أو حتّى فكّر في التّطلّع إليه، كما فعل هو، انتابه فضول، لا يدري مأتاه، أزمع على التّقدّم مهما كانت العواقب، من الآن فصاعدا، سيكون لزاما عليه أن يرى كلّ شيء عن قرب، لا بدّ أن يعرف في رحلته كلّ ما خفي عنه، دفع الباب دفعا خفيفا، وقبل أن يدخل سمع صوتا من الدّاخل، يقول في هدوء، كان كأنّما حزر نيّته، أدرك أنّه سيأتي، فلا يمكن أن يتأخّر أكثر من ذلك: «أهلا بمريدنا!»، أسقط في يده، التفت عن يمينه وشماله، نظر في اتّجاهات عدّة، تطلّع إلى الأمام، وإلى ورائه، كان المكان شبه معتم، ولولا بقيّة ذبالة من نور كانت تنبعث من إحدى

الشّموع و تصارع الظّلمة في الدّاخل، لحسب نفسه في مقبرة بلا شواهد، استجمع شجاعته، ظلّ في موقفه، غير أنّه لم يتخلّ عن حذره، قال: «من أنت؟»، رنّت ضحكة خبيئة، بدت له الضّحكة، سلسة، مطمئنّة، لا سلطة فيها ولا غطرسة، وسمع الصّوت الّذي كان سمعه أوّل مرّة يقول: «اجلس، يا ولدي، ولا تسأل كثيرا؟...» ثمّ بعد فترة صمت أضاف: «ستعرف كلّ شيء في حينه، فلا تعجل!!»... أطاعه، وجلس في مكان غير بعيد، على حصير متآكل كانت تنبعث منه رائحة قويّة نفّاذة، ملأت الضّحكة من جديد ما بين الزّوايا والأركان، وسمع الصّوت يقول مرّة أخرى: «كيف حال الغلام؟!»... بهت، اعترته رعدة ترجمت عن نفسها في كلمات مسكينة: «وكيف عرفت أنّ لي غلاما؟»... قال: «أخبرني الّذي جاء بك إلى هنا!»... انتفض مرّة أخرى، داهمته الهواجس دفعة واحدة، ووجد نفسه غير قادر على شيء سوى طرح الأسئلة: «ومن الّذي جاء بي إلى هنا؟»... «لا تسأل، قلت لك لا تسأل!!»، ثمّ : «أبشر بالغلام، وبالبنات، ولا تنس زيارتنا... زرنا دائما، يفتح الله عليك!!»... « أيّ غلام، وأيّ بنات، ليس له سوى بدر، وهذا الشّيخ يقول ويقول، أتراه يهذي...؟ حاشا!!... أستغفر الله، لا شكّ أنّ هناك من يفضي إليه، يلهمه، هؤلاء ليسوا بشرا كبقيّة البشر!!»... نازعته نفسه إلى أن يسأله من جديد، قال: «من أخبرك بذلك؟ ليس لي إلاّ غلام واحد، ولا بنات لي، يرحمك الله؟!»... أجابه: «سيكون لك إن شاء الله!!!» وصمت، لزم السّكون، كأنّه لم يخاطبه، ولم يفض إليه، كان يعلم أنّه لن يتكلم مرّة أخرى، لكنّه آثر أن يظلّ هناك لبعض الوقت، ثقل رأسه، فطأطأ، ارتدّ إلى أعماقه، فغزته، دون هوادة، سيول من مشاعر شتّى، أحسّ بالخوف، يمتزج بنشوة خفيّة، واستشعر رهبة في حضور هذا الشّيخ الّذي لا يعلم عنه شيئا، إلاّ أنّ شيئا ما كان يدفعه إلى الرّكون إليه، آه، هل يعتبر نفسه محظوظا، لأنّه رأى ما رأى، أو يرثي لها، فما هذه الأشياء الّتي تتراءى أمامه، إلاّ بدايات قد تفضي

به إلى ما لا يحمد عقباه، إنّه ينحدر الآن إلى نهايته، تنتهبه السّنون، يحلّ فيه وهن، ولا يملك من أمر نفسه إلاّ هذه الخطوات الّتي يخطوها على حذر، يودّ أن يروح في النّوم بمجرّد أن يضع رأسه على مخدّته، يرغب في الأنس، ولو للحظات إلى غلامه الغرير، يريد أن يؤوب فيرى زوجته تهبّ إليه، وتستقبله بابتسامتها العريضة، وهي تزقزق له بصوتها، تحدّثه، بإسهاب، عمّا فعله الصّغير: «آه، لو رأيته، يا سي محمّد، ولدك لا يهدأ أبدا، يحطّم كلّ شيء يعترضه في طريقه، فإذا منعته بكى، وأمعن في النّحيب، يستند إلى الجدار، يحاول أن يخطو أولى خطواته، أحيانا يسقط فيعاود من جديد، آه، يا سي محمد لو رأيته...!!»، ماذا يفعل؟ هل يستسلم لقدره؟ هل يلبّي النّداء، ويقاوم إحجامه؟، لكنّه يعلم أن لا خيار له، سيكون عليه أن يذعن، وأن يوالي الزّورات، لأنّه كان منذورا، ربّما حتّى من قبل أن يولد، لهذه اللّحظة، لهذا الرّجاء الّذي لا يدري لماذا يراه على سلاسته ودماثة نبرته مشوبا بأمر لايقاوم: «زرنا دائما ، يفتح الله عليك !!!»... هل هذا الشّيخ يعرف أباه؟ هل هو الشّيخ نفسه الّذي أخبره والده أنّه اطّلع من أمره على ما لم يطّلع عليه أحد قبله؟! يشطّ على القرب، فيرحل في المكان، وتحجبه الأزمنة، يمعن في الغيبة، غيبة أهل الوجد، ولم تمض على احتجابه غير ساعات من زمن أهل الأرض، يلقي بعصا التّرحال بعيدا في أرض من فوقها أرض، من تحتها أرض، تجمعه الصّحبة بالأقطاب، وتبدأ في الحال سلامات الوجد، وأنغام التّغبير، قال له والده ذلك، ورغم أنّه كان يخبره بكلّ شيء إلاّ أنّ هذه الحكاية لم يتطرّق إليها إلاّ مرّة واحدة، وقد ذكرها له اضطرارا بعد إلحاحه الطّفوليّ، لكن هل كان الشّيخ يرحل كلّ يوم؟! هل يمضي من خلوته إلى تلك الأرض في كلّ ساعة، أم هي زيارة واحدة يقوم بها من العام إلى العام؟!... لم ينم في تلك اللّيلة على خلاف عادته، كما لم يدخل غرفة نومه، ولم تخامره رغبة التّطلّع إلى زوجته قبل أن يؤوي إلى فراشه إلى جانبها، كان يروق له أن ينظر

إليها وهي تتنفّس، كان تنفّسها، بشكل ما، يشي له دوما بحالتها، فإذا ما لاحظ أيّ خلل في انتظامه علم أنّها تعاني من شيء ما، أدرك أنّ طارئا طرأ عليها فسبّب لها قلقا وأرقا، أمّا إذا رأى تلك الابتسامة الرّائقة ترفّ على شفتيها اكتشف في الحال أنّها سعيدة، وأنّها لم تعان في يومها ما كان خليقا أن ينكأ جروحها القديمة، أو يبثّ فيها ألما جديدا... جلس على الدّيوان في الفناء، وما عتم أن راح في تفكير عميق، عادت به الذّكرى إلى والده، وإلى مرابع صباه في السّويس، وإلى الأحاديث الّتي كانت لا تنتهي، حين يطرق البيت خلاّن أبيه، يجتمعون في المقصورة الدّاخليّة، وما هي إلا برهة، يجلجل فيها البيت بحرارة التّحيّة وحميميّة الضّحكات، حتّى ترتفع الأصوات بالدّعاء، وتنتظم الأصوات دفعة واحدة في تلاوة الآيات، إلى حين صلاة العصر، هل يمكن أن ينسى ذلك الأرج، وتلك الرّائحة الّتي اكتسبها المكان مع الزّمن، وترقرق الأصوات، ولطوّه في الخارج قريبا من المشهد كلّه، يتطلّع إلى الدّاخل، فتبهره مناظر تلك اللّحي المسترسلة، وتلك الطّرابيش الحمراء، والشّالات المعطّرة؟!... هو يذكر الآن كلّ شيء كأنّما وقع بالأمس، يذكر كلّ شيء كأنّ الزّمن ما انطوى في لمح البصر، وكأنّ البيت ما يزال نفس البيت، وكأنّ الأشياء الأثيرة لديه لم تتلاش صورتها في ذهنه أبدا، هل ينسى ذلك المشهد، ومنظر أولئك الأشخاص الّذين اعتادتهم ذاكرته الطّفوليّة، في بيتهم بالسّويس، يثرثرون لحظة مع والده، وهم في انسجام ما بعده انسجام، يذكرون ويقرأون القرءان، وقد ترقرقت ملامحهم، كانت تلك صورة انطبعت في ذهنه، ولن تمّحي أبدا، كان ما خلّفه وراءه كلّ عالمه، وكان أولئك الأشخاص عناصر ذلك العالم، الّذي كان صغيرا، وسيظلّ صغيرا في داخله، القاهرة «المحروسة «، عالم جديد، عالم كبير، أكبر من كلّ ما عرفه في حياته، ورغم ذلك لم تستطع أن تشيل ما تبقّى في ذهنه من صورة السّويس... كان ما يزال في مجثمه، مستغرقا، حينما تناهى إليه صرير باب غرفة النّوم، التأم على

نفسه، وحاول أن يطرد عنه ذلك الشّرود الّذي كان استسلم له طوال اللّيل، لم تصدّق السّتّ توحيدة عينيها، وظلّت للحظة غير قادرة على أن تتفوّه بكلمة، اقتربت منه، ودون أن تنبس جلست إلى جانبه، اشرأبّت بعنقها المستدقّ إليه، راعتها الحمرة الّتي كانت في عينيه، وهالتها آثار التّعب، وهي بادية عليه في وضوح لا سبيل إلى إخفائه، قالت بنبرة تشي بعتب لا يكاد يبين: «أهكذا، يا سي محمّد، تتركنا أنا وولدك، وتقضي اللّيل بطوله في الخارج؟!»، لم يقل شيئا، غير أنّه اكتشف نبرة العتاب، ولكي يطمئنها، ويحصل على صفحها الّذي كان يدرك أنّه سيحصل عليه بأسرع ممّا يتوقّع، مدّ يده فضغط على كفّها، قالت: «متى جئت؟»، قال، وهو يتصنّع الابتسام: «لم أتأخّر كثيرا على كلّ حال!»، قالت: «فلماذا لم تنم في فراشك؟»، قال: «أحسست برغبة في الخلوّ...»، ثمّ كأنّما يخاطب نفسه: «لقد كانت اللّيلة غريبة، وما حدث فيها كان أغرب... أشياء كثيرة، أشياء لم أرها من قبل، ولم أكن أتصوّر أنّي سأراها، والأصوات، آه، ما كان أعذبها من أصوات، كنت كالمأخوذ، لا أملك إرادة على نفسي، كالمسلوب...!!» لم يخلف موعدا بعد ليلته تلك، كما استغنى عن قعداته الّتي كان يقضيها كلّ مساء في المقهى، وصلاة المغرب الّتي كان يؤدّيها في الحسين غدا حريصا كي لا تفوته في الحوش، هناك لم يكن الشّيخ يؤمّ المريدين، بل كان يوكل هذه المهمّة إلى أقدم مريديه، وأقربهم اليه، الشّيخ حسين الأسيوطيّ، ورغم أنّه لم يكن معهم، إلاّ أنّ وجوده كان طاغيا، رائحته الّتي كانت مزيجا من روائح شتّى، وأخلاط عتيقة من بخور وعود، وعطور قويّة الأريج، كانت تملأ المكان كلّه، وتسري كالمخدّر في الأجساد المتحفّزة للحظة الشّطح متى دعتها النّغمات والهينمات، خلال الأيّام الأولى كان يحسّ نفسه متباعدا، غريبا، لا فرق بينه وبين أيّ مريد آخر، كان يريد أن تكون له مكانة خاصّة، وهذه المكانة الخاصّة لا يمكن الحصول عليها إلاّ إذا زاد قربا من الشّيخ، والده. حدّثه. كان قريبا من

شيخه، وكذلك جدّه، وهو لا يريد أن يفوته فضل القرب والتّداني، صاريتعمّد الإبطاء، يتلكّأ في المغادرة، فإذا انفضّت الحلقة، وانتهى كلّ شيء، وحان موعد الأوبة، اتّخذ سمته إلى تلك الغرفة الصّغيرة الّتي صاريعرف الطّريق إليها حتّى في اللّيالي الّتي كان يتأخّر فيها طلوع القمر، يجتاز العتبة إلى الدّاخل، يترك لرائحة المكان أن تغمره، يتنفّس ملء رئتيه، يجهد أن لا تفلت منه ولو ذرّة واحدة من تلك الرّائحة، يلبث واقفا لا يريم، ربّما كان ينتظر إذنا بالجلوس، أن يأذن له الشّيخ، حتّى لا يتجرّأ أن يقطع عليه خلوته، يطيل الوقوف، ولكن يخيب أمله في سماع الإذن، إذ ذاك يطاطئ رأسه ثمّ يجلس على مبعدة، يمسك نفسه، كان يخشى أن يجرح الصّمت، أن يتعسّف على سلطة السّكون في الدّاخل، ويخرق حرمة العهد، من مكانه، على الحصير، لا يفصله عن الشّيخ سوى بضعة أقدام، تتعطّل كلّ حواسّه إلاّ حاسّة واحدة، تحاول أذناه أن تلتقطا كلّ صوت، أن تتلقّفا أيّ همسة مهما دقّت، كان يدرك تماما أنّ الشّيخ لا يتوقّف عن الدّعاء، وأنّ مسبحته لا تفارقه أبدا، وأنّه ربّما كان يستغرق في شطحات تأخذه إلى أماكن قصيّة، قصيّة جدّا، كان يودّ أن يفعل أيّ شيء إلاّ أن ينظر إلى الأمام، كانت الأيّام تمرّ، رتيبة بطيئة، وهو لا ينفكّ عن عادته في تلك الزّيارات المعتادة، والشّيخ مصرّ على الصّمت، متوارب في شروداته البعيدة، وطّن نفسه على الصّبر، على التّحمّل، فطريقه ما تزال طويلة، قنع بالقرب، في المكان، هذا القرب الّذي أصبح يجد له في نفسه شيئا من السّلوّ كان يربطه بذلك الشّيخ كما لو كان خيطا رقيقا شفيفا لا يبين، واكتشف أنّ تلك هي البداية، اكتشف أنّ ذلك الإحساس لا بدّ وأن يكون منطلق القربى، ومبدأ التّصافي... آه، لكم تثقل عليه الذّكرى! لكم تكتنفه صبوة تلك الأيّام الخوالي! لكم يجتذبه النّسيان فتأبى ذاكرته إلاّ الصّمود والمشاكسة! كان اليوم غائما، أوائل الشّتاء، في الصّباح هبّت ريح قويّة، وهزم الرّعد، ولاحت في الأفق البعيد بقايا

بروق، لاحظ على زوجته بعض الإعياء، كانت حاملا في شهرها الأخير، وكانت تنتظر الطّلق في أيّ لحظة، كان موزّعا، كان يريد أن يمكث بجانبها، وكان يريد أن يذهب إلى الحوش، أن يكون هناك، قريبا من الشّيخ، قرّ عزمه على الذّهاب، لفّ عباءته، وانتعل حذاءه، واتّخذ طريقه عبر أكثر الدّروب اختصارا، كان المكان مايزال خاليا حين وصله، وكان باب غرفة الشّيخ مواربا مثلما عهده، نازعته رغبته .ربّما لأوّل مرّة .في عدم الذّهاب، سيمكث لبعض الوقت في الباحة حتّى يلتئم شمل المريدين والأحباب، كان يهمّ أن يجلس حين جاءه الصّوت، خبيئا، رائقا، وكأنّه يأتيه من أغوار ليس لها قرار، انتفض في مكانه، وألفى نفسه تشيله قدماه دون إرادة منه، لم يدر كيف اجتاز العتبة، ولا كيف وقف، ولا كيف جلس، ولكنّه كان ممتلئا بالصّوت، كان مسكونا إلى حدّ التّلاشي والضّياع، قال الصّوت: «كنت أتوقّع مجيئك، فلماذا تأخّرت؟!» خانته إرادته، لم يجد الكلمات المناسبة، طأطأ، قال الصّوت: «لا بأس، يا ولدي، عد إلى بيتك... «، أراد أن يقاطعه، أراد أن يعتذر رغم ما في ذلك من قلّة أدب، لا تليق بالمقام، لكنّ الصّوت لم يترك له المجال، قال: «عد إلى بيتك، يا أبا عبد المنعم!»... ياه، كيف نزل ذلك النّداء عليه؟ كيف استقبلته جوارحه؟... في تلك اللّحظة زالت الأسئلة، تلاشت الاستفسارات داخله، ولبث إحساس لم يتشكّل بعد، هو مزيج من الدّهشة، والفرحة، وعدم الفهم، كان يريد أن يسأل الشّيخ عن مقصده، عمّا يعنيه، لكنّه، بدلا من ذلك، وجد نفسه يهرول في اتّجاه البيت، كانت زوجته قد وضعت، واستقبلته الزّغاريد، وصراخ الصّغير، يأتي وانيا من غرفة النّوم، ابتسم، نزلت دموعه، وداهمته ذكرى ماضيه الحزين، وعقم زوجته، كان يريد أن ينسى، أن ينسى كلّ شيء، ولا يتذكّر إلاّ هذه اللّحظة، لقد صار أبا، بلى، صار أبا لولدين، آه، يا أبا بدر، ما أسعدك اليوم بعبد المنعم...!!

((٥))
. السّتّ توحيدة .

...تتوالى النّهارات، ثقيلة، كئيبة، مع إحساس بمرارة ممزوجة بشيء أشبه ما يكون بطعم التّراب، سرعان ما يعلق بالشّفاه، ويتحلّب داخل الفم ولا يلبث أن يتسرّب عبر الحلق إلى الدّاخل فيسبّب حالة من الغثيان، لم يكن ذلك راجعا إلى حرارة الطّقس رغم أن فصل الرّبيع بدأ ينسلخ شيئا فشيئا، مفسحا رحابة الفضاء إلى صيف لم يسع إلى اخفاء ما يضطرب بباطنه، وإنّما إلى قلق طارئ غدا مع الأيّام ديدنا غير مفارق، وسلوكا لا سبيل إلى ردّه، «السّتّ»توحيدة، صار اللّيل، بالنّسبة إليها مثل النّهار، لا يختلفان في شيء، منذ أن اعتكفت داخل غرفتها، ومن قبل ذلك بداخل نفسها، من يوم قرّرت أن تلتزم الصّمت، وتقصر كل همّها على سؤال عبد المنعم عن أخيه، موعد أوبة ولدها هو الشّيء الوحيد الّذي لم تكن تخطئه، ولم يكن ذلك لمهارة في تحديد الوقت، ولكن لشعور غريزيّ، أموميّ، لم يزايلها حتّى في أحلك فترات شجنها، تتذكّر، وقلّما أصبحت تتذّكر، هزيعا من الماضي الآفل، شطرا من السّعادة الماضية في كنف الزّوج، تتذكّر حنانها، وكلّ مشاعر الأمومة فيها، وقد استحالت مثل جناحين مفرودين على الولدين، والبنات، درّية وزينب ونعمة، كانت تحاول أن تسبغ على أبنائها من نفسها بالتّساوي، تقسو. إذا قست. على الجميع، تعاقبهم جميعا إذا عاقبت، وإذا ما ألمّ فرح أو ترح كانت الغطاء الّذي يظلّلهم جميعا، حتّى أنّ سي محمّد كان دوره يقتصر على مجرّد التّطلّع من بعد، يرى الأشياء دائما، ولكن من مسافة متباعدة، ترفّ البسمة على شفتيه، يكتم إحساسا

بالرّضا، يقنع من حياته بكونه مريدا مخلصا، بكون زوجته قد كفته مؤونة الاضطلاع بشؤون البيت... بلى، كانت المشاعر واحدة، والأبناء أبناءها، وهي تدرك تماما أنّ أيّ ميل إلى أحدهم دون الآخرين كان سيسبّب قطعا شيئا من النّفرة بينهم، لكن هل كانت تستطيع أن تنفي أنّ قلبها، على ما به من توق إلى ضمّ الجميع، كان فيه دائما متّسع ما، حيّز، مكان أثيركانت تؤثربه بدر؟ لم تكن تفصح عن ذلك صراحة، ولم يكن أحد من الأولاد ليتفطّن إلى ذلك لقدرتها على المداراة، حتّى بدرلم يكن يجد في سلوكها ما يشي بأنّها تفضلّه عليهم، كانت تتعذّب من الدّاخل، وكانت تضيق بمشاعرها الّتي كانت توشك، في لحظة ما، على الانفجار، وبالتّالي تهدّد بكشفها أمام أبنائها، وممّا زاد في محنتها أنّ زوجها سي محمّد، لم يكن يحاول ـ مثلها ـ أن يغطّي على مشاعره، بل كان صريحا في ميله إلى بدر، إلى حدّ أهمل فيه البقيّة أوكاد، غالبا ما كانت تراه وهو ينظر إلى عبد المنعم شزرا وهو يدخل إلى البيت، ترمقه وهو يمرّبه كأنّه لم يره، والطّفل يتطلّع إليه، معلّق العينين، تنمّ نظراته البريئة عن انهاروحيرة، كانت تحزر، بغريزة الأمّ فيها، ما كانت تحمله تلك النّظرات من معان، بحكم قربها من الجميع، مخالطتها إيّاهم جعلتها تعرف طبيعة كلّ واحد فيهم، تعرف أنّ عبد المنعم، على صغر سنّه، كان مفتونا بأبيه، ما يفتأ يتطلّع إليه، إلى لحيته وشاربه، وإلى طوله الفارع، وهو الصّغير الّذي لم يكن يصل إلى حدّ ركبتيه، كان جامح الميول إلى حدّ ما، لكنّه طيّب، وغير مشاكس، خلافا لإخوته البنات، إذا خلت إليهم، ليلا، وهي تحاول أن تنيمهم، لا يتركها حتّى تحكي لهم، ومن بين الحكايات كانت تستهويه أغربها وأعجبها، يقترح عليها فتلبّي، فإذا ما أبدت تمنّعا، أصرّ على مغاضبتها، علاقتها بعبد المنعم كانت تشعرها ببعض الذّنب، تحبّه، ما في ذلك شك، لكن إذا أطلّ بدر برأسه، متطفّلا على أغوارها، سرعان ما ترقّ حاشيتها، وتنخرط في عالم غير العالم، إنّها لا تنسى كيف انتظرت مجيئه، ولا

تنسى سنوات العقم الّتي عانتها، وهي تلوك وحدتها القاتلة، بدركان، بالنّسبة إليها، أكثر من ابن، كان هبة، رزقها اللّه إيّاها، كان ما يربطها به شيء فوق البنوّة، وما تشعر به حياله شيء يفوق كلّ مشاعر الأمومة، بينها وبين نفسها، كانت تعتذر في صمت، تبكي إذا كانت وحيدة، تترك لدموعها أن تترجم عن عذابها، تحاور في أعماقها طيف عبد المنعم، الّذي كتب عليه النّسيان والإهمال: «آه، يا ولدي، ما أتعسك بوالدك، وما أتعسك بي!!»... كان عبد المنعم يكبر بسرعة، وفي داخله كانت تكبر أحاسيس أكبر من سنّه، يواسيها إذا لاحظ تقلّبا في مزاجها، يساعدها، يخرج معها إذا خرجت لبعض حاجتها، لا يفتأ يضطرب هنا وهناك لينال رضاها، كان الحبّ الّذي بداخله حبّا كبيرا، تمنّى لو كان بإمكانه أن يسبغه على والديه كليهما، ولكن حين أعجزه ذلك، قرّر أن يمنحه كلّه لها، وهذا ما كان يضاعف من آلامها... قال لها مرّة، وهو يعانقها، ويطبع قبلة على خدّها: «إنّي أحبّ بابا كثيرا!!»، داهمها وهن، فتراجعت قليلا إلى الخلف، وبالكاد أمسكت دمعة كانت على وشك النّزول، وقالت له متصنّعة الابتسام: «وهو كذلك يحبّك، يا ولدي»، لم يكن ليقنعه كلامها، حدّق فيها متطلّعا، وكأنّه يرى مدى اقتناعها بالكلام الّذي قالته، وقال يسألها: «إذا كان يحبّني، فلماذا لا يلعب معي مثلما يفعل مع أخي بدر؟!»... حبّها لعبد المنعم كان، في جانب كبير منه، نوعا من التّعويض عن حنان أبيه، فكّرت في أحايين كثيرة أن تكلّم سي محمّد، كلّما ضمّهما السّرير معا، في اللّيالي الّتي كان يرجع فيها من الحوش، إلاّ أنّ شيئا ما في هيئته كان لا يشجّعها على ذلك، تكتم ما بقلبها، معلّلة نفسها بالحديث إليه في مرّة أخرى، لم تكن تشعر تجاهه بالكره، أو بأيّ شعور من مشاعر البغض أو النّفور، بل على العكس من ذلك، كانت تجد له بعض المعاذير، كان الوقت الّذي يقضيه بالبيت قصيرا جدّا، بالكاد كان يسمح له بتناول طعامه، والنّوم لساعة أو بعض ساعة، إذا آب من الوكالة، ثمّ يخرج ولا يعود إلاّ في

الهزيع الأخير من اللّيل، ولد عبد المنعم، ولم يحضر لحظة ميلاده، وولدت البنات، وكان منشغلا بشأن من شؤونه في بعض النّواحي، كما أنّه في السّنوات الأخيرة أصبحت تلمّ به حالة غريبة لم تعهدها فيه من قبل، يكثر من الشّرود، وفي الوقت الّذي تكون تتحدّث فيه إليه، أو تفضي إليه ببعض الشّؤون، ينأى، يبتعد عنها، فيكتنفه عالمه الخاصّ، ما زالت لا تعرف عن هذا العالم شيئا، ولم تجرؤ على سؤاله عنه، كلّ ما كانت تعرفه أن ليس في الأمر ما يبعث على القلق، وأنّ ذلك الشّرود لا يخفي وراءه سرّا من الأسرار الّتي غالبا ما يكمن وراءها خطر كبير أو فاجعة ما، قنعت منه بذلك الحضور، تلك الابتسامة الشّحيحة الّتي ترتسم على شفتيه، وهو بالفناء، وقرّرت أخيرا أن تتركه لنزوعه وأفكاره، سوف لن تفضي إليه بهواجسها، أو ما يمكن أن يكدّر صفوه، إذا كان يحبّ بدر من بين إخوته، فليحبّه كما يشاء، وإذا كان يروق له أن يتجاهل الجميع، وأن يحتفظ لنفسه بسرّ ما، فليفعل ذلك، ستحاول أن تكون هي كلّ شيء داخل العائلة، ستكون الأمّ والأب في نفس الوقت، ستكون الأخ والأخت، وستتحمّل آلامها في أناة وصبر، حتّى يكبر الصّغار، ويؤوب الكبير من رحيله وابتعاده... الذّكرى وحدها ما تشدّها الآن إلى ذلك الماضي البعيد، وحتّى هذه الذّكرى أخذت تتميّع وتتلاشى مع الأيّام، كانت تتمنّى دائما أن تظلّل الجميع بجناحيها، أن تكنفهم بعطفها ورعايتها، وأن تجمعهم حولها، تلمّ بهمومهم دون أن تكون مضطرّة إلى سؤالهم عنها، تحاول التّسرية عنهم ما أمكنها ذلك، تدعو لهم، من كلّ قلبها، وترجو لهم العمر المديد والذّريّة الصّالحة... آه، لماذا خذلها الزّمن إذن؟! لماذا كانت العجلة تدور دائما ضدّها؟! لماذا هي من بين النّساء جميعا كتب عليها أن تبتلى برزيئة أكبر من طاقتها واحتمالها؟! صحيح أنّها لم تكن تحتجّ أو تتأفّف، وكانت مستسلمة دوما لقدرها، تداريه، تتجاهله مرارا، تتحايل في الكثير من الأحيان على وهنها ومرضها لتقوم بكلّ أعباء البيت، لم يرها أحد وهي

قعيدة فراشها، حتّى وهي في قمّة العسرة والمرض، كما أنّها لم تكن تدع لأحد أن يرها وهي تتألّم، تنزوي بعيدا إذا زادت بها العلّة، تحتجب ريثما تعاودها صحّتها من جديد، ربّما تساءل زوجها، أو أحد أبنائها، بينه وبين نفسه: ألا تمرض، ألا تتعب؟!!... كان كلّ ذلك كفيلاً أن يجعلها تسمو في أعينهم، بل لقد كان لها في قلب كلّ واحد منهم مكانة خاصّة لا تضاهى أو تضارع، وإذا كانت هي تحبّهم وتحدب عليهم، فلقد أحبّها الجميع أضعافا وأضعافا... البيت، على رحابته وسعته، الآن، يكتنفه الصّمت، تختصره مأساة صامتة وألم كاو، ربّما كانت تودّ أن تصرخ، ساورتها الرّغبة في ذلك أكثر من مرّة وأوشكت، استنفرت طاقتها، استحضرت آلام الأيّام المنقضية، تدفّق حلقها بعجيج أصوات أسيانة، في اللّحظة الأخيرة عاودها بعض وعي بعدم شغور البيت، هناك البنات، فلماذا تريد أن تعذّبهنّ معها؟ يكفي أن يتعذّب واحد فقط، سيكون ألمه تكفيرا، سيكون بشكل ما تطهيرا لأخطاء ربّما كانت وقعت، ولو عن غير قصد، ستفعل هي ذلك، هي الّتي شالت، وكانت دائما تشيل، ستتعذّب هي نيابة عنهم جميعا!!... ياه! كيف ينكمش العالم فجأة، كيف تغيم الأشياء، حتّى الأكثر حميميّة، وكيف تستحيل الحياة، بكلّ ألقها وفتنتها مجرّد خواء بلا طعم ولا روح!! البيت، وماذا يعني هذا البيت الآن؟! ماذا تعني هذه الجدران الّتي شهدتها بعينها وهي ترتفع لبنة لبنة؟ والغرف الّتي ألمّت بأدقّ تفاصيلها وحفظتها عن ظهر قلب، وهي تؤثّثها في البداية، وتضفي عليها من روحها الآمنة، ثمّ وهي تطيل فيها المكوث بعد مجيء العيال، تهدهدهم قبل نومهم، وتحكي لهم قصصا، وإن كانت من نسيج خيال جامح، إلاّ أنّ أبطالها في الغالب يختصرون شهامة زوجها وتضحيته، كما يجسّدون صبرها وأناتها، كانت دائما تريد لابنائها أن يتأثّروا مثالا ما، أن يتشرّبوا هواء القاهرة الكبيرة الرّحيبة، وأن يصمدوا أمام ضربات الزّمان، ربّما كان إحساسها مفرطا إلى حدّ بعيد، ربّما كانت متطرّفة قليلا، وهي تفضي إليهم ببعض

ما خبرته بنفسها، إن تلميحا أو تصريحا، غير أنّ نفس ذلك الإحساس كان منشؤه رغبة عارمة في أن تجنّبهم خلاصة معاناتها، أن تفكّ أمام أعينهم مغاليق الحياة، حتّى تسلّمهم الحياة نفسها، فتأتيهم سلسة منقادة، دون عناء، قلب الأمّ، خوفها من مجهول ما، متربّص، مهدّد، قد يأخذ في لحظة، ما كانت حدبت عليه هي خلال سنوات طوال من التّحمّل والعذاب... في العلّية، في نفس الغرفة الّتي اختارها سي محمّد منفى له قبل موته بفترة قبل أن ينزل من جديد ليختلط بهم، لا عزاء لها، الصّمت يحاصرها من كلّ مكان، كانت اعتادت الزّيارات القليلة الّتي كان يقوم بها عبد المنعم ليطمئنّ عليها، وكانت هي تراوغه، تحيد بالحديث قليلا، وتنهي أخيرا بالسّؤال الفاجع المحيّر: «أين أخوك؟!»، كان هو بدوره يحاول أن يراوغ، أن يتنكّب عن المسارب الزّلقة إلى شطآن أكثر أمنا، إلاّ أنّها كانت تعرف دائما كيف تغافله، كيف تزعزع صموده، تخاتله، فيسقط، يضطرّ إلى الكذب عليها، كان كذبا بريئا كذبه، وكانت غايته أن يسكت الأصوات المشاكسة المتناوحة بداخلها، وكانت هي تعرف أنّه يكذب عليها فتقنع منه بذلك، ربّما كانت ترى فيه بدر، ربّما كان هو صورة أخرى لذلك الغائب المتباعد، ربّما كان أمل حياتها المتبقّى وهي تشعر شعورا مداهما بالنّهاية الّتي لا ترحم... هل كانت ترى بعيني رأسها أم بعيني بصيرتها؟! وهل ما كانت تراه يمتّ إلى العالم الّذي من حولها أم إلى عالم آخر ليس له من عالم النّاس سوى الشّكل الظّاهري والإطار؟! هل هو عبد المنعم، ذاك الّذي كانت تراه مرّة يجلس عند قدميها في مؤخّرة السّرير، ومرّة عند رأسها، ومرّة أخرى يمسك بيدها بين يديه، فتشعر بحرارة دموعه عليها، فتتطلّع إليه، وهي تغالب ضعفها، في محاولة لتعزيته، وتقول كلمات لا تعرف كيف وجدت القدرة على نطقها: «كفكف دموعك، يا ولدي! فالرّجال لا يجب أن تراهم النّساء وهم يبكون!!»... هل كان يأتي دائما؟ ومتى رأته آخر مرّة؟ وهل ما يزال يأتي إلى البيت، أم تراه هو الآخر قد احتجب

مثلما احتجب أخوه؟!... تتداخل الصّور إلى حدّ الإرباك، تندغم الأشياء في ذاكرتها، تصبح أشبه بالنّقاط السّوداء الّتي تغزو عينيها دون هوادة، في خضمّ عذابها تحاول أن تتذكّر وجها ما، تجهد في إثبات الملامح، تستنفر أذنيها عساهما تلتقطان صوتا نافرا، تتهجّى أسماء لأناس كان يخيّل إليها أنّها عاشرتهم زمنا ما، تغمض عينيها، تمسك رأسها بكلتا يديها، تندّ عنها آهة ألم، تسعى إلى إزاحة اللّحاف عنها، هؤلاء الأشخاص الّذين يخيّل إليها أنّها عاشت معهم ربّما كانوا أشخاصا غير حقيقيّين، زوجها، بناتها، كنّاتها، عبد المنعم، وبدر نفسه قد يكون هو الآخر شخصا غير حقيقيّ... من مكان غير بعيد، تحت، ربّما من وراء الشّارع الّذي طالما اعتادته، وهي تقوم بزوراتها المنتظمة إلى المزارات والأضرحة، ونسيت اليوم ملامحه جرّاء انعكافها الّذي لم يكن لها خيار فيه، يخيّل إليها أنّها تسمع نداء، لم يكن الصّوت عاديّا، ولا ناشزا، وإنّما رخيما، فيه عذوبه، شردت معه قليلا، رغم أنّ الكلمات كانت تغزوها، ولا تجد لها معنى معيّنا، ساورتها رغبة في الانتقال إلى النّافذة، غير أنّها أحجمت مكتفية بالتّطلّع صوبها... الآذان؟!... نداء الصّلاة، كما لم تكن تسمعه دائما، يبدو مختلفا!! هل كان مختلفا دائما، أم أنّها لم تكن تعيره اهتماما كبيرا من قبل؟!... تسحب نفسها من تحت اللّحاف إلى مقدّمة السّرير، كان جذعها يأبى أن يطاوعها، تضع يديها على الحشيّة، وترتدّ بكامل جسدها إلى الخلف في اندفاعة واهنة، أصبحت تضجّ بالسّرير، وبعجزها، أصبحت تضجّ برتابة أيّامها، بعزلتها ووحدتها القاتلة، مضى عليها وقت طويل لم تكلّم أحدا، كانت إذا ضاق بها المكان، واستبدّت بها رغبة الإفضاء، تصطنع أشخاصا تكلّمهم، تكدّ ذاكرتها المتعبة، تحاول أن ترسم الملامح، وتعرّي الوجوه من أقنعتها، آه، كم كان قاسيا عليها أن تستنفر كلّ طاقتها فتخونها الأسماء!... الوحيد الّذي لم يكن يستعصي على الذّاكرة، ويشرئبّ بهيئته كلّما استحضرته، بدر، لا تدري لماذا كانت تراه دائما

حقيقيّا، الآخرون الّذين كانت تستدعيهم وتراهم لا يمتّون فعلا إلى الأشخاص الواقعيّن الّذين كانوهم، بمن فيهم بناتها، وكنّاتها، وحتّى زوجها، كانت أطيافهم، أحيانا، تغيم، تتلاشى من بين عينيها، وهي أحوج ما تكون إلى الحديث إليهم، كانوا دائما يخذلونها، ينأون، يتواربون، يتركونها لدوّامة الصّمت الممضّ، وغالبا ما كانت تسمع قهقهاتهم المتشفّية السّاخرة، وهم يتسربلون وسط سراب غبشيّ كثيف...

- بدر! بدر!

أشياء كثيرة كانت تفصح عنه، حتّى من قبل أن تراه، رائحته الّتي لا يمكن أن تخطئها، حضوره الّذي كانت تميّزه من بين حضور الجميع، خطواته الّتي لا تشبه خطوات أحد، هدوءه المستحيل الّذي لا تماثله جلبة الآخرين، تحسّه قريبا منها، قريبا إلى درجة أنّها تكاد تلمس كلّ شيء فيه، يديه، شعره، ذؤابة قميصه، تربّت بيديها الضّامرتين على ركبته... تودّ لو تضمّه! لو تقبّله! لو تدفس وجهها الأموميّ في صدره وتستنشق ريح طفولته، ويفاعته، وشبابه! آه، ولكن أين هو، الآن؟!... تودّ لو تصرخ، ملء فيها: «هاتوا لي بدر!»... تودّ لو يصير لها جناحان فتحلّق إلى حيث يكون، ولكن حتّى الكلمات نفسها، الصّراخ الممضّ لا يسعفها، فتكتفي بالإيماء... تجلسه إلى جانبها... تنيمه... تتذكّر أيّاما بعيدة جدّا، عندما كانت تهدهده قبل النّوم، وتحكي له، تتذكّر لحظة ميلاده، ألم المخاض، وتلك الابتسامة الّتي ارتسمت على شفتيها ساعة الطّلق، تجهد أن تستحضر الذّكرى وتبتسم الآن، إلاّ أنّ الرّغبة لا تسعفها، تتمنّى أن تقهر ضعفها وتنتصر عليه ولو لثانية، لكن لا شيء من حولها غير الصّمت والفراغ.

- بدر!بدر!

يثقل جفناها جرّاء الإجهاد، تلتحم بقايا أهدابها، فتحسّ لذلك بحرارة تنبعث من أعماقها الخفيّة، تسري الحرارة رويدا رويدا،

فتشيع سخونة ممضّة على امتداد وجنتيها المتغضنّتين، تشعر بوخز، ينغل بداخلها ألم، ترفع يدها لا إراديّا إلى وجهها، تلامس أصابعها بقايا دموع، منذ وقت طويل، لم تعد تذكره الآن، جفّت عيناها، نضبت دموعها، كانت في أحرج اللّحظات، وأصعبها على قلبها، ترغب في البكاء، تناشد قدرتها الكامنة أن تخلّصها من عذابها، ليكن البكاء عزاءها، ليكن هو الرّفيق بعد أن تركها الجميع وحيدة، لا تدرك من أمرها شيئا، فلا هي ثاكل قد أياسها الرّجاء، ولا مؤمّلة ما تفتأ أن تزايلها مصيبتها ويؤوب فقيدها... البكاء، ألا ما أعزّه الآن! الدّموع، ألا ما أحوجها إليها! ولكن، تحالف البكاء والدّموع ضدّها، كما تحالف من قبلهما، ضدّها، كلّ الّذين عرفتهم، بمن فيهم أبناؤها وأقرب المقرّبين إليها... في هذه الغرفة، على صغرها، تفقد إحساسها بالمكان، تختلط عليها الجهات، وتغدو أسماء الأشياء مجرّد صور بلا معنى، لا تدري هل الباب خلفها أم أمامها، وهل النافذة ما تزال موجودة في مكانها، وهل الأرضيّة ما تزال تغطّيها تلك الزّربيّة الكبيرة الّتي فرشتها ذات يوم بنفسها، قد يظلّ الباب مغلقا أيّاما بطولها فلا تفكّر في فتحه، لم يعد يعنيها من يدخل ومن يخرج، ومن يأتي ومن يذهب، رضيت بوحدتها، تآخت معها، وما عاد النّاس يعنون لها شيئا البتّة، تركت كلّ شيء وراءها، المدينة الكبيرة، قاهرة شبابها، مزاراتها الأثيرة، الرّوائح الّتي كانت تسطع أنفها، وهي تهمّ بدخول مقام «السّيّدة»، صوت الشّيخ الرّخيم، أيّام الجمع، وهو يرتّل القرءان، قريبا من المنبر، في الحسين، جاراتها اللّواتي عرفتهنّ، وكان يحلو لها أن تقضي عندهنّ هزيعا من النّهار، كانت تزورهنّ وكنّ هنّ أيضا يزرنها، فيجتمع الشّمل حول كؤوس الشّاي وأقداح القهوة، لم يكن الأمر يخلو، في بعض الأحيان، من بعض المؤامرت الصّغيرة، حيث تقترب منها إحداهنّ، وبعد أن تغافلها، تسحب فنجانها، وبدل أن تضعه على النّضد، ترفعه قليلا، وما أن تتأمّل حثالة القهوة في قاعه، حتّى تقول بنبرة الخبير: «يا بختك، يا

توحيدة...»، تصمت لبعض الوقت، ترتاح إلى أمارات الدّهشة الّتي ارتسمت على محيّاها، وفي وجهها، تبدو ودودا وهي تمسك بساعدها وتربّت ظاهر يدها، تواصل: «انظري، يا ستّي... (تقرّب إليها الفنجان)، السّكّة هنا رايحة على طول... يا صلاة النّبيّ! وهناك، في آخر السّكّة... (لا تستطيع السّتّ توحيدة الصّمود أكثر، تهزّها نبرة جارتها المغربة، فينزلق السّؤال على شفتيها حتّى من قبل أن تفكّر فيه: «إن شاء الله خير، يا نواعم؟!)... تدرك الجارة لهفتها، تبادر إلى الكلام: «كلّ خير، يا ستّي... (تقرّب الفنجان أكثر)... شوفي هنا، كأنّه - اللّهمّ صلّ على النّبيّ- قصر... قصر عالي قوي! يا بختك، يا ستّي... تصمت قليلا ريثما تنظر في الفنجان ثانية... تواصل: «وهذي إنت، ياختي، طايرة فوق وفاردة جناحاتك.» تعبر هذه الذّكرى، الآن، في مخيّلتها، كطيف، تغيم أمام ناظريها، تبدو لها بلا معنى، كأنّها فوضى كلمات لا رابط بينها، ترفّ على شفتيها ابتسامة ساخرة، أين هو القصر، وأين الجناحات؟! أين الطّريق؟! لقد ضيّعت حتّى الطّريق إلى البيت، فما بالك بتلك الطّريق الموصلة إلى قصر لا تعرف عنه شيئا!!... لا تذكر أنّها أحبّت قصرا، كان أقصى أمانيها أن تعيش في بيت لها فيه «عزوة»، تقرّ فيه عينها برؤية رجلها وأبنائها، ترى فيه الأبناء يكبرون أمام عينيها، وفي كنفها، تجنّبهم هبّة الرّيح العابرة، ترى نفسها في قسماتهم الّتي أخذت البعض من بعلها، وأخذت منها هي الكثير... كان البيت هو قصرها، وكان زوجها الملك، وأبناؤها الأمراء، واكتفت هي دوما بدور الخادمة المخلصة، لا تتأخّر في فعل شيء، تشتغل قدر الطّاقة وفوق الطّاقة، فلماذا يخونها الآن كلّ شيء... مات الزّوج!... وتفرّق الأبناء أيدي سبأ!!...

- بدر!بدر!

تركت نفسها للصّمت فاعتادها الصّمت، ولكثرة ما ألفته يبدو لها في أحيان كثيرة أنّها تستطيع أن تلمسه بيديها الاثنتين، لقد صارت تشكو إليه بثّها، تأتمنه على آلامها وأسرارها، تعاتبه كما لو كانت

تعاتب شخصا، سواء من الّذين عرفتهم في بيتها أو من الّذين تعرّفت إليهم في الحارة وخارجها، كانت تراه يرفرف من حولها نادفا بجناحيه الصّغيرين الأبيضين، يرنو إليها، ولا تدري لماذا كان يبدو لها دائما شاردا مأخوذا، تتحدّث إليه مليّا، وتضبطه فجأة وقد نأى عنها... تقول له، بنبرة مترقرقة، فيها قليل من اللّوم وكثير من العتاب: «هيه، وين رحت؟!»... تعيد سؤالها مرّات، قبل أن ينتبه إليها أخيرا، وقد استحال شروده إلى تألّق فتّان، ترفّ على شفتيه ابتسامة مقتضبة، يفرد جناحيه الصّغيرين، ويرتفع قليلا، ثمّ يحلق في فضاء الغرفة المعتمة، لا تملك إلاّ أن تتابعه بعينيها الكليلتين رغم العتمة، تلاحقه نظراتها، يمعن في الهروب بقدر ما كانت تسعى هي إلى الإمساك به والقبض عليه، في كلّ مرّة نفس اللّعبة، نفس الإصرار على القيام بطقوس الزّيارة، وفي كلّ مرّة كانت تبذل جهدا مضاعفا حتّى تتمكّن من الإلمام بحدود المشهد المستحيل، لقد كانت بصيرتها هي الدّليل الّذي يرشدها في هذه الظّلمة المتكاثفة، تقودها إلى الأعماق الخطرة والمرامي المتباعدة، نقاط من الضّوء، صغيرة، قميئة، غير أنّها فاتنة، تراها تتخايل أمامها، تغريها، تمدّ إليها أيادي ناعمة، في نعومة المخمل ورخص العاج، تسمع الصّوت، وفي لحظة تغمر أنفها الرّائحة، ليست غريبة هذه الرّائحة، لكنّها مغايرة، فيها نفاذ، تكتنفها قوّة لا مثيل لها، الصّندل، العود، البخور، وأخلاط من موادّ شتّى... «تعالي معنا!»... فقط تسمع الأصوات، ليس صوتا واحدا، ولكنّها أصوات كثيرة تأتيها الآن من كلّ مكان، كان يبدو لها أنّها مختلفة الرّنين، وهي متدانية رغم التّباعد، تهفو نفسها، تشفّ روحها، يزايلها الوهن الّذي كان لازمها أيّاما وأيّاما، تسحب نفسها، وإذ تلمس أناملها الدّقيقة أرضيّة الغرفة، تتكاثف الأصوات، تلتحم كأنّها كورس، تضجّ بالضّحك ، يتجلّى لعينيها الصّمت الّذي كان منذ قليل يحلّق فوقها، تراه متجسّدا أمامها، يقترب منها حتّى يأخذ بيديها المرتجفتين، ترى الجادّة بأمّ عينيها، الطّريق الّذي

طالما حلمت بالمضيّ فيه... تعالي، يا ابنتي، لا تخافي!!... فجأة، تنداح الظّلمة الّتي صارت طابع المكان منذ فترة ليست بالقليلة، يغزو عينيها نور غريب، يستثيرها طرب وخفّة، وإذ تمدّ طرفها، إلى النّهايات، تتدانى المسافات، تطوى الآماد والأبعاد... كان سي محمّد يشير إليها، مفردا يديه، وإلى جواره على الجانبين، أبناؤها، إلاّ بدر... تحسّ بوخز في قلبها، يهصر جوانحها انقباض لم تستطع أن تسيطر عليه. تصرخ:

- أين بدر، يا سي محمّد!

لا يجيبها، وإنّما يشير إلى جهة ما، لا يبدو أنّه قلق مثلها، كان هادئا تماما. تنظر إلى حيث أشار، لا ترى بدر، ولكن ذلك الرّجل الّذي كان أخذا بيدها منذ قليل... كانت ترى بياضا، يلّفه من الرّأس الى أخمص القدمين، العمامة، القفطان، اللّحية، والنّعال... تسأل ثانية:

- أين بدر!

ترنو على شفتيه ابتسامة، بدا لها كأنّها تغني عن ألف جواب...

ينبع من داخلها صوت، تفيض به روحها:

- سيرجع بدر... سيرجع بدر!

((٦))
نعمـة

... الصّمت جارح، كثيف، بلا حدود، تكاد لكثافته تلمسه بيديك، رجراج، هلاميّ، أشبه ما يكون ببالون مملوء هواء، يذكّر بصمت القبور القديم، أو ذلك الصّمت الجنائزيّ البعيد، المغرق في عتمة استحالته... يرين بثقله الخارق على كلّ الأشياء من حوله، ففقدت الأشياء هوّيتها وأسماءها القديمة، وبدا لشدّة حضوره كأنّه يأخذ شكلا حقيقيّا ويتجسّد، كائنا بلا أقنعة، الرّأس والقدمان والهيئة، يطمئنّ إلى سيطرته على كلّ شيء، لا يهدأ حتّى يحكم قبضته الحديديّة على الأبواب والمنافذ، الحجرات والشّرفات، المفاتيح والأكرات، ينتابه غرور الوحدة، الشّغور، وذلك الفراغ العجيب الشّبيه بصمته هو، السّيّد المطلق وسط هذه المملكة الآيلة من الرّكام غير المجدي... المكان كلّه تناهى في الغياب، لفظ كلّ ما بباطنه من الذّكريات، فلم يبق له منها إلاّ أشدّها استثارة للغثيان، البدايات، عراقة الماضي الّذي ربّما كان يوما قابعا في كلّ ركن، وفي كلّ زاوية، فورة الحياة الأولى، ضحكات الأمس، مواقف ما، أوضاع ربّما كان من الممكن أن لاتنسى أبدا، وأن تحفر في ذاكرة كلّ شخص كانت له علاقة بهذا البيت، الرّغبات والنّوازع الأقرب إلى القلب، كلّ الأشياء الّتي كانت تولد الواحدة تلو الأخرى، مع ذلك الإحساس الّذي ما يفتأ يتزايد أنّها قد ولدت لتبقى، وكي تبقى كان عليها أن تقاوم، الفناء، الموت، أن تقاوم حتّى الرّمق الأخير، حتّى إذا ما قدّرلها أن تزول كان عزاؤها أنّها دافعت عن وجودها ضدّ حتميّة العدم... الأشياء الأخرى البسيطة الّتي لا ينتبه إليها عادة،

اللّحظة الّتي تنزل فيها الدّموع فجأة ليست إلاّ ذرّة صغيرة جدّا في مهمه العمر الطّويل، قد ينساها حتّى صاحبها، ولكنّها مع ذلك تظلّ موجودة، ابتسامة ما، لا تدري كيف أو لماذا ارتسمت على الشّفتين، بالقطع هي هناك في مكان ما بكلّ فتنتها الأزليّة، انبعاث صوت في جوف الظّلمة من خلف ظلفة باب، ثمّ فسحة من الصّمت، وفي وقت آخر تنصفق الظّلفة مخلّفة إحساسا غريبا بالتّوجّس من شيء ما، نبوءة ربّما، أو هو صوت حقيقيّ، واقعيّ إلى أقصى حدود الواقعيّة، مشاكسة ضمير تداعب مشاعر التّنصّل على مرأى ومسمع من سلطة قاهرة في اللاّوعي، ما تلبث أن تني، ويندفع القلب مرّة أخرى وراء رغباته الّتي لا تحدّ، زقزقة صوت قريب، قريب جدّا، في مناجاة حرّى، تماسّ جسدين وسط الظّلمة، تشابك الأيدي، هفوّ إلى الرّائحة الضّالعة في شبق لذيذ، إدراك ساعة تجلّ يجتاز حدود المسافات القصيّة، والأبعاد الرّابضة وراء حدود الكون... الصّباحات، وهي تتوالى، تنبثق، تنزلق من غشائها الرّحميّ، تمدّ أيديها العديدة في تثاقل ما يفتأ أن يتحوّل إلى عنفوان مؤزّق، وتنفتح طاقة السّماء الرّحيبة على مملكة النّور، الشّمس، تأتي دائما ولا تخلف موعدها البتّة، ينصهر بحرارتها كلّ شيء، تدلّ في زهوها الغريب، تأبى إلاّ أن تتملّك الكون بأسره، وتفرد أجنحتها على الوجود جميعه، تتباطأ أحيانا لتلج المنافذ والخفايا، وتسرع أحيانا أخرى كيما تشعر الجميع بسيطرتها المدمّرة، ترتاح بظلالها في المعابر والممرّات، على امتداد الشّوارع الطّويلة المفضية وغير المفضية، تتسرّب إلى أكثر الأماكن تباعدا وسرّيّة، فتغمر حتّى أشدّ الأشياء رغبة في الهروب والانزواء، تمرّر كفّها، تقلّبها، توالي لعبتها، تراوح ما بين الظّاهر والباطن، فكأنّها تروم أن تتسلّى، تتمطّى فينفرد جذعها، ويتوتّر ذلك الخطّ الوسطيّ العجيب، منبع اللّذّات والنّشوات، تستحيل فجأة علاقتها بالأشياء تبادلا ما بين ذكورة جامحة وأنوثة تبحث عن اكتفاء من جوع طال وروده... يتحطّم الصّمت للحظة، وينبعث من الفراغ

المحاصر جوق اللّذائذ القصيّة، كائنات قديمة، منسيّة، تبعث من جديد، وأخرى تتجدّد، كائنات تولد في هينة من الزّمن على حين غرّة، لم ير مثلها، فريدة في كلّ شيء، الملابس الكرنفاليّة، القبّعات على اختلاف أنواعها، الأقنعة، الّتي تغطّي وجوها غير منظورة، ورغم ذلك يبدو أنّها غاية في الجمال، جمال متوحّش، غير أرضيّ، آت من وراء كون غير الكون، الضّحكات الصّغيرة المحسوبة، الخطوات، حفيف البنطالونات، والفساتين الّتي يبدو أنّها قد انتقيت بعناية شديدة حتّى تبعث في النّاظر إليها ذلك الشّعور الّذي لا يخطئ بتجانس ما، هزّة الموسيقى الّتي تنبع في آخر لحظة أشبه بالرّجع أو الحنين، والّتي . لشفافيّتها المفرطة، وتناغمها . لا يعتقد سامعها إلاّ أنّها آتية من اللاّاحتواء، من اللاّمكان... يلتئم الجوق أخيرا، فيختصر المكان على اتّساعه، يغدو حلقة واحدة تغرق في هالة آسرة من النّور والظّلّ، تتقارب الأجساد، وتتماسّ الآلات في شبه عناق، تعطى الإشارة، على مبعدة، رفّة بسيطة، موحية، يراها الجميع فتصدح الموسيقى، زقزقة أصوات، الجوابيّ المنساب والقراريّ الرّاحل في أتون صداحات منغّمة، لا أثر لخلل ما، رغم التّنافر، يسود الإحساس بالتّجانس الخلاّق، لا مكان لاحتمال خطإ من أيّ نوع، يمتلئ الفضاء الّذي كان إلى ذلك الحين خاليا، الزّوّار القادمون، المتنكّرون، تمتدّ أيديهم لتمسك بأيدي بعض، أزواجا أزواجا، في قدريّة غير معلومة غير أنّها مأمونة تماما، تستحيل أجسادهم أرقّ من الأثير وهي تعبر إلى حلقة الرّقص، تغدو أخفّ من أجنحة الحمائم، تتوقّع خطواتهم على إيقاع النّغم، يرقّ فتتوتّر ويعلو فتضجّ، وتنفصل متباعدة، راحلة إلى أقصى الحلقة، ثمّ تعود لتلتئم من جديد... «لمّا بدا يتثنّى»... «جادك الغيث إذا الغيث همى»... «زوروني كلّ سنة مرّة»... والذّكريات الّتي كان يجب أن لا تنسى وقد أوشكت على الاندثار، في حميّا شعور طارئ بالألم والانتفاء... كان يجب أن لا تنسى هذه الذّكريات... كان يجب أن تتّصل أشياء

الماضي، على الأقلّ فيمن بقوا، النّبت الّذي أوشك على الاستئصال، الفروع الباقية، الّتي خلّفتها أصول اتّضح أنّها لم تعد قادرة على الصّمود، الّذي مات، والّذي تسربل بلحاء الظّلمة المعتمة ولحافها، إنّها الأصول الّتي تورّث دائما أشياء لا حصر لها للفروع، القوّة، الذّكاء، العجز، قابليّة السّقوط المفاجئ، وفي أيّة لحظة، الضّعف، الانهيار، الانطواء، وحتّى بعض المتناقضات الأخرى، الّتي لايقدر على جمعها غير كائن جامح، مرضيّ إلى أقصى الحدود، أن تحبّ وأن تبغض في نفس الوقت، أن تكون قادرا على الحبّ، في سموّ خرافيّ، لا تحيطه المشاعر أو الكلمات، وأن تتدهدى في دوّامة شبق بلا حدود، أحاسيس متنازعة يجمعها نفس الشّخص، هذه الانشطاريّة المؤرّقة العصيّة، المعذّبة، إحساس الدّمار، يتجدّد دوما، إمكانيّة التّخلّص منه ضرب من العبث، بل هي غير واردة على الإطلاق، في ظلّ انعدام أمل ما، يصير هذا الإحساس نفسه أملا، تستشعر فيه احتمال الوجود والإمكان، المغزى، الهدف، ربّما لا تهمّ الاعتبارات الأخلاقيّة كثيرا في هذه الحالة، سيّما إذا وضعت جنبا إلى جنب مع الأبعاد الأنطولوجيّة، ربّما تنتفي الغائيّة ذاتها، وحتّى المنطق، العقل، وكلّ المعقول الجمعيّ، لتصير المتناقضات هي المنطق الجديد، فما دامت في الإنسان، وهي مبدؤه ومنتهاه، فلا بأس أن تكون هي القاعدة الّتي تحكمه، إذا كان الألم يوجد مقترنا باللّذة، وفي الوقت نفسه، فلماذا يكون لزاما أن نعتبر ذلك تناقضا، وأن نسعى إلى حلّ ذلك التّناقض؟ وإذا كانت الفضيلة... والرّذيلة!؟!... والحزن الكبير... والفرح الكبير!؟!.... والمأساة والنّرجسيّة المتكبّرة؟!... والالتئام والشّتات!؟!... إذا كان كلّ ذلك هو الإنسان فلماذا نسعى أن نشطر الإنسان شطرين، وأن نعطي لكلّ شطر بعدا أخلاقيّا مناقضا للشّطر الثّاني!!؟!... ربّما وردت كلّ تلك الخواطر، وغيرها، وإن ببساطة أقرب إلى الابتذال، في ذهن نعمة، صغرى بنات محمّد السّويسي، في غرفتها بالطّابق الثاني، عند نهاية الدّهليز، إلى اليسار... الدّهليز ضيّق

قليلا، لا تتسرّب إليه الشّمس، ويظلّ على مدار السّنة غارقا في فوضى من الرّطوبة غير المحتملة، يتملّك السّائر فيه ذلك الإحساس الوشيك باحتمال وقوع شيء ما، مخيف إلى أبعد الحدود حتّى بالنّسبة إلى أهل البيت أنفسهم، يضيئه، في العادة، مصباحان، ويبدو . لسبب من الأسباب . أنّ أحدهم قد تخلّص منهما، ربّما كانت الظّلمة هي الوحيدة القادرة على تجسيد وقع المأساة البادي على كلّ شيء في البيت، ربّما كان ذلك الشّخص الّذي سحب المصباحين من مكانهما يعتقد أنّ وجود النّور، في ذلك الوضع بالذّات، فجّ إلى حدّ ما، ربّما أوحت إليه مسحة شعريّة، تملّكته خلال لحظات، أنّ الأمر سيكون أجمل لو تحقّق شيء من الانسجام، بين السّكون الّذي خيّم على حين غرّة، والعطالة الّتي انتابت الجميع في هذا المنزل الّذي أصبح أشبه ما يكون بالمقبرة... كان هدوءا ممضّا، شكسا، متحدّيا، ومع الظّلمة أصبح خطرا، غير محتمل، السّير، وقع الخطوات المنسحبة في رفق شديد، غير مأمونة، لسبب ما، كان هناك اعتقاد لايقاوم أنّ الأمر لا يخلو من مجازفة، وأنّ الخطوات الّتي كانت تعبر الدّهليز كانت مرفوقة باستدارة خفيفة، انحناءة ربّما، توقّف بسيط وإجفال، ترتفع إحدى اليدين خلالهما تحسّبا، وينحرف العنق كأنّه يتفادى ضربة أو لكمة، في هذا الصّمت، تصبح ذرّات الهواء نفسها خطرة، الأصوات، أيّ صوت، ربّما كان يعلن عن بزوغ كائن مجهول في الظّلمة، وما أكثر تلك الكائنات الّتي كانت كلّما توتّر الذّهن وتشابكت الرّؤى ازدادت كثرة على كثرتها الأولى، وما تعتم أن تتداخل الأصوات والنّبرات، تبدأ خافتة، وجلة، ثمّ تنتشر شيئا فشيئا، تملأ ما بين الأماكن والأركان، لتغدو في النّهاية فوضى عارمة من الصّياح والعويل، أصوات غير إنسانيّة مندغمة، مدمّرة، تذكّر ببداية خلق من نوع ما، أو نهايته، على تلك المشارف في أطراف الهاوية، يظهر كلّ شيء دفعة واحدة، ويختفي كلّ شيء دفعة واحدة، تختلط المشاعر إلى حدّ كبير، وينهار ما كان يسمّى منطقا ليحلّ محلّه

منطق من نوع آخر، تؤسّسه كائنات غير الكائنات، ووجوه غير الوجوه، لا تعرف مهادنة البشر، وإنّما قصارى ما ترمي إليه أن تفرض ولاء مهما كان الثّمن، بقدر الطّاعة . الطّاعة العمياء . يكون الجزاء، وبمكيال الغضب الجامح يكال للعصيان السّافر... كائنات لا يحدّها الحصر، وكلّها تسعى إلى أن تفرض كلمتها وطاعتها، متنافرة، متداخلة، وتريد لضحاياها أن يكونوا كذلك ... يتشظّى الزّمن القديم، بأبعاده ومسافاته، يتدحرج رويدا رويدا، وتغدو رائحته الّتي طالما كانت عبقة، شذيّة الأرج، باعثة على الغثيان، ولكن هل هو الزّمن حقّا؟ السّاعات والسّاعات؟ أم شيء آخر؟ هل أنّ هناك خدعة ما؟ مؤامرة حبكتها أيد مدرّبة على القتل الخفيّ؟ أيد لها كلّ هذه القدرة على هذا الشّدّ غير المتسامح؟... كانت نعمة تشعر أنّها صارت . ربّما دون إرادتها . عدوّة كلّ شيء في هذا البيت، وأنّه بالمقابل، قد صار كلّ شيء عدوّا بالنّسبة إليها!!... تقول لنفسها، إذا استعادت شيئا من هدوئها القديم: «ضاع كلّ شيء!»... في الحقيقة، هي لم تتوصّل إلى رسم صورة خاصّة وواضحة عمّا أضاعته، ولو كان أحدا غيرها، على كلّ حال، لاعتبر هذا «الكلّ شيء»، الّذي ما فتئت تردّد أنّها أضاعته، «لاشيئا» بدوره، وأنّها تبالغ كثيرا إذ تقصر مأساتها على فقدانها لمحروس، محروس الّذي لم تنجح هي نفسها في تحديد مشاعرها نحوه بوضوح، هل أحبّته كزوج محتمل؟ ربّما لو كانت الظّروف غير الظّروف، والحال غير الحال، لكان من الممكن أن تعيش معه بسلام، هما وأبناؤهما، الّذين كانت لا تشكّ لحظة واحدة أنّهم سيأتون، وسيكونون كثيرين إلى الحدّ الّذي ستكون فيه قادرة أن تفخر بهم؟ هل رغبت فيه كرجل؟ بلى كرجل، وربّما أيّ رجل، تفكّر فيه امرأة في مرحلة ما، إذا ألحّت عليها أنوثتها، وانتابتها، دون هوادة، مشاعر مدمّرة إلى قربى حميمة، ورائحة غير رائحة اعتادتها، هي رائحتها الخاصّة، الّتي رغم خصوصيّتها، فإنّها لا تكفي لملء فراغ السّاعات والأيّام الّتي كانت تمرّ مجدبة في صمت؟... هل

كانت ترى فيه، كما ترى الفتيات في مثل سنّها في فتيانهم، ذلك الفارس الخرافيّ، المتسربل في هالة من البياض، المجسّد لقيم القوّة والحكمة والمجازفة والشّهامة، في ذلك السّيف الّذي يحتفظ به مدسوسا في قرابه، وحصانه ذي الغرّة البيضاء في جبينه، وملابسه المحلاّة بالدّيباج والقصب؟ ذلك الفارس الّذي لا شكّ في أنّه سيهلّ بطلعته البهيّة ذات مساء من الأماسي الصيفيّة المقمرة، وسيختطفها بعيدا إلى عشّهما الزّوجيّ في إحدى الممالك البيضاء، حيث كلّ شيء فيها أبيض، الجدران، الأسوار، الشّوارع والطّرقات، الوجوه والسّحنات، وحتّى الخير أبيض، والشّيء الوحيد الأسود هو الشّرّ، الّذي سيكون لزاما على الجميع أن يحاربوه، كي يعيش كلّ النّاس في سلام، ويسود العدل، وتؤرّخ الأحداث والوقائع بماء الذّهب، وتحكيها شهرزاد على مسامع شهريار، وسيأتي من يرويها على أنّها ليلة أخرى من ألف ليلة وليلة؟!!... هل كان محروس «فارسا» في نظر نعمة، وهل كانت تبادله بعضا من ذلك الحبّ الّذي وصل إلى حدود العشق عنده، والّذي كانت تلمّ هي بكلّ خفاياه، رغم أنّها لم تسأله يوما، ولم يتّصل بينهما الحديث إلاّ في القليل النّادر، وفي حضور أفراد العائلة جميعا تقريبا؟! ربّما تملّكها خاطر غريب أحيانا في أن تعذّبه، وأن تلتذّ بذلك التّعذيب؛ ربّما كانت تزهو أنّ لها رجلا؛ صحيح أنّها لم تكن تفكّر في أكثر من ذلك، كأن تلمّح له بالمبادرة، أو أن تعطيه إشارة ما كي يقدم، أو تلين له حاشيتها فيزول عنه بعض من خجله وتهيّبه، أو تطيّب خاطره بكلمة... ما كان واضحا لديها أنّها تريده بجانبها، أن تحتفظ به إلى النّهاية، ولا يهمّ ما يترتّب عن ذلك فيما بعد، شعور، على غرابته، كان عاديّا بالنّسبة إليها، ترسم صورته في حضوره وغيابه، تناغيه إذا كانت بمفردها، وقد يحدث غير مرّة أن تغلق على نفسها باب غرفتها، تتأكّد من أنّ المفتاح قد استدار مرّتين في الأكرة، تستدير حول نفسها استدارات قصيرة وهي تنظر إلى صورتها في المرآة، تسعى أن تكون رشيقة، فاتنة، تفرد يديها الاثنتين،

وفي لحظة ما تتخلّص من طرحتها بطريقة مسرحيّة، فينساب شعرها المتموّج دفعة واحدة، تنفلت الجدائل الذّهبيّة، تحطّ في نفورها على الوجنات، تنسدل كما لو كانت ستارة شفيفة من اللّيلك على العينين السّرّيّتين اللّتين تخفيان وراءهما كمّا هائلا من الألغازوالرّغبات، تترك شعرها يعبرعن سفوره ورعونته بنفسه، لا تتدخّل البتّة، يحلولها، في تلك اللّحظات، أن تركّز كلّ همّها على استحضار الصّورة، تجهد أن تبني في مخيّلتها هيئة محروس بكلّ تفاصيلها الّتي صارت تحفظها عن ظهر قلب، الشّعر القصير، الأسود، المفلفل، والوجه وقد ارتسمت عليه تلك التّعابيرالّتي كانت هي تتفنّن في تشكلها وفق التّدرّج في الإغواء والإغراء، حركة اليدين، تردّده الواضح، المتلكّئ، هل يقترب، هل يظلّ في مكانه، هل يصرخ، هل يطلق صيحة إعجاب للتّعبير عن ضعفه وانصعاقه... حركاتها هي كانت موقّعة، متناغمة، متعمّدة، كان همّها أن ترى إلى أيّ حدّ هو قادر على الصّمود، يتثنّى وسطها قليلا، كانت الحركة تبدوكأنّها عفويّة، تحفّ قدماها على الأرضيّة، تنسحبان وهما عاريتان، تمتدّ اليدان إلى تكّة فستانها، فينشمر الفستان عن العنق الأبيض البضّ، وفي لحظة ما يسقط على الأرض، يجمح الجسد اللّدن، ولم يعد يغطّيه غير الغلالة الخمريّة الشّفيفة، تقترب راقصة من السّرير، فتلتقط طرحتها، تحوط وسطها، تنبعث من مكان ما موسيقى، رنين الدّبك وأصوات متلاحمة متّصلة، تندّ عن الشّطر الفوقيّ اندفاعة، فيتصلّب النّهدان الصّغيران في شموخ، وقد استدقّت من تحت الغلالة ملامح الجسد المتشكّل... كان هو هناك، ينظر إليها، ولا يرى، صنم منحوت على مرمر المرآة البيضاء الكبيرة، عيناه مشدوهتان مشدودتان إلى المنظر أمامه، شفته السّفلى مرتخية... كان يبدو أنّه يريد أن يلمّ أطراف المشهد إليه، كان ذلك باديا في نظرات عينيه النّهمة... تبتعد هي عنه، تعرف أن ليست له القدرة على فعل شيء، وقد تمكّنت منه أخيرا، قيّدته تماما، ولكنّها، إمعانا في التّمنّع

والملاوعة، ترغب أن تذهب في إغرائها إلى أبعد الحدود... كلّ شيء كانت تقوم به بدقّة محسوبة، وكأنّها لا تتصرّف بعفويّة العذراء الّتي خرجت لتوّها من شرنقة طفولتها، وإنّما تؤدّي دورا متقنا طالما ألمّت بأكثر خفاياه حميميّة فيما كانت تشاهده على التّلفزيون، دور العالمة المحترفة، صاحبة الباع والذّراع، سيّدة الغرف المغلقة، والرّائحة المدوّخة، تعرف كيف تستدرج الضّحيّة إلى شراكها بعد أن تكون قد سرت فيها النّشوة وتمكّن منها الوجد حدّ النّخاع... هي الآن لا ترسم مشهدا من تلك المشاهد الأثيلة، وإنّما تتقمّص دورا غدا عندها طبيعيّا، بلا رتوش، تعرف تماما ماذا تفعل، لكلّ لحظة من اللّحظات ما يناسبها من الحركات المتقنة، والفرق الوحيد أنّها لا تبذل كلّ مفاتنها كيما تنجح أخيرا في اصطياد الفريسة المرغوبة، لأنّ الرّجل الّذي تبحث عنه هو بالفعل أمامها، ينظر إليها ولا يستطيع أن يفعل شيئا ما لم تعطه هي الإشارة، عيناها لا تنشالان عنه، تسمّرانه في مكانه، ويداها المدرّبتان تقومان بعملهما في غير توان، كان كلّ شيء مبذولا تقريبا، وهي لا تسعى إلى الاختباء أو الهروب، لا تروم أن تنال إعجابا بقدر ما كانت تريد أن تنتزعه انتزاعا، رغبتها أن تدمّر في غير رحمة، تدور وتدور، يهتزّ الجسد، وتتخلّص القدمان فجأة من الجاذبيّة الأرضيّة، فتكاد تطير، كانت الغلالة تنحسر عنها، تنشمر انشمارا، فيتفتح عالم بأسره، ينكشف البياض الحليبيّ، مرمريّة السّاقين، بوّابة إلى عالم الأنس الخفيّ، يتشكّل دون خشية على مرامي الفخذين العبلين المتينين، المفضيان. عبر وادي الشّوك الدّامي. إلى مملكة الشّهوات والتّباريح... في حفلاتها المجوسيّة تلك، كان همّها المعلن أن تتمكّن من محروس، كانت تريد أن تثبته إلى جبروت سلطتها، ولكن ما كانت تستشعره في الدّاخل أنّها انتهت إلى عبادة ذلك الجسد الّذي هو جسدها، أو ذلك الجسد الّذي أصبحت تعتقد أنّه، في أحيان كثيرة، ينفصل عنها، فكأنّه جسد لامرأة غيرها، تتحكّم فيه كما تشاء، وبمعزل عن إرادتها هي...

كانت تشتهي جسدها، تتعشّقه إلى درجة الكفر، وكلّما فكّرت أنّه أصبح ينفصل عنها ازدادات رغبة فيه، كما غدت رغبتها في محروس تزداد يوما بعد يوم دون أن يزايلها ذلك الشّعور بالسّاديّة تجاهه... تفرد يديها، ينكشف عالمها السّرّيّ، يفصح العري الوحشيّ عن مجاهله، يفضي الوجه، ذو التّقاطيع المسبوكة، إلى رحابة الجيد المستدقّ، الّذي كان يغرق من حين لحين في انسيابيّة الجدائل الذّهبيّة، ويتّصل لاإراديّا بانفساح العرش المؤثّل، وقد امتدّ، وشمخ برابيتيه النّافرتين... ما أكثر الرّغبات! وما أكثر حفلاتها في غرفتها الصّغيرة! غرفة الألغاز العريقة، وراء حدود، على قماءتها، فقد رسمتها أشياء أثيرة إلى القلب، لا تخطئ هدفها أبدا، وتظلّ أمينة إلى النّهاية، الأسرار الّتي نزلت إلى القاع تظلّ في القاع، ولا تخرج منه أبدا، إلى حين نفور الأرواح واستلام الودائع... أشياؤها الّتي لا تدري أأخذت هي عنها سرّيّتها وغرابتها، أم تلك الأشياء نفسها هي الّتي أصابتها عدوى جموحها المراوغ وهروبها العصيّ؛ كان الباب هو الواجهة دوما، المدخل إلى أشياء أخرى أكثر حميميّة، هي الذّات المنفلتة، الشّهوات الّتي أعجزتها القدرة أن تفصح قسرا داخل مدار الضّوابط والأوامر، فاختارت أن تتسلطن طوعا فيما وراء عتبة عالمها المسكون بفوضى الرّغبة، المفتاح الّذي كانت تخاف عليه خوفها على نفسها، ولا تطمئنّ حتّى تتحسّسه بأناملها وقد أودعته بكلّ عناية بين ثيابها، ربّما يضيع منها، أو يسقط، من يدري، وقد يعثر عليه أحدهم فيأخذه، وقد تساوره نفسه أن يقتحم عالمها الموارب بين ألف أحجية وأحجية، حتّى أفراد العائلة يجهلون كلّ شيء عن كونها الخفيّ، كبرت في غفلة من أمّها، ووالدها تركها وهي ما تزال في بداية الطّريق إلى أنوثة لم تكن هي إلى حدّ تلك اللّحظة تعلم من أمرها شيئا... زينب ودريّة، أختاها، هما الوحيدتان، ربّما، اللّتان كانتا مؤهّلتين أن تلمّا بطرف من شأنها، الوحيدتان بحكم أنّهنّ أخوات، وأكثر من ذلك فتيات، سوف لن يكون من العسير أن يتبادلن الأسرار

والأشياء الحميمة، ولكنّ الظّروف. ظروف العائلة، وما طرأ عليها. كلّ ذلك كان كفيلا أن يعمّق الهوّة ويوسّع الفجوة... التّحسّب، الظّلمة المطبقة، والسّكون؛ وطأة الصّمت، عدا ذلك الإحساس الغريب أنّ كلّ شيء في البيت قد أصبح أشبه ما يكون بأنفاس أرواح هائمة، أو أشباح ضالّة... السّتائر السّميكة، هي من اختارتها، وقد شدّتها بعناية كبيرة إلى النّافذتين الوحيدتين داخل الغرفة، لا يهمّها كثيرا أن ترى من خلالهما ما يدور في الخارج، لكن كان يرعبها أن تتصوّر أنّ أحدا يتجسّس عليها وهي تمارس طقوسها الخاصّة، وهي تترك لجسدها أن يعبّر عن نفسه دون قيود، كان محروس الوحيد الّذي لا تخجل منه، تبذل إليه نفسها دونما خجل، شعور ما يقول لها إنّه ليس مثل غيره، وبحكم قربه منها ومن العائلة مذ كان سي محمّد السّويسي حيّا فقد اعتبرته ملكا لها، شيئا من ضمن أشيائها تتصرّف فيه وفق نزوعها وميولها... تأخذ بيده المرتجفة وتقوده إلى سريرها، تناغيه وهي تحاول أن تنيمه، مردّدة بعض تلك الهينمات الّتي اعتادت والدتها أن تغنّيها لها، على حافّة سريرها الصّغير، قبل أن تستسلم لسباتها الطّفوليّ العميق، تربّت بحنان ظاهر يده، تترك لأناملها أن توغل متخلّلة شعره المفلفل، راسمة على شفتيها ابتسامة بدل أن تبعث فيه أمنا وطمأنينة كانت تزيده تشوّشا وبلبلة... لم تتخلّص البتّة من اعتباره صغيرها المدلّل، تحنو عليه كما لو كان طفلها الّذي لم تلده بعد، ترفض أن تتصوّره كبيرا، رغم بوادر الفتوّة البادية عليه؛ لكن ماذا عنه هو؟! ماذا عن حبّه إيّاها؟! عن رجولته في مواجهتها، وهو يراها تصادر كلّ شعور بالرّجولة فيه؟! إلى متى سيظلّ أسيرها الأبديّ؟! إلى متى الذّل الّذي يستشعره حيالها؟!... طالما ودّ أن يهصرها بين ذراعيه القويّتين، وأن يضغط عليها حتّى تصعد تلك الآهات الّتي طالما استحضرها حين كان يرسم صورتها في استيهاماته اللّيليّة! طالما حنّ إلى تلك المرأة المتمرّدة فيها! الصّلف والعنفوان، وحتّى رغبتها في تعذيبه؛ كان يرفض

أن يكون طفلا، وكان يودّ أن يؤكّد لها بشكل أو بآخر أنّه ليس الطّفل الّذي تريد. هو رجل؛ بلى، وهو يريد أن يجعلها تعي ذلك جيّدا!!... آه، ما كان أوسعها تلك الغرفة على ضيقها! وأكثر من ذلك، ما كان أحوجها، هي نعمة، إليها، سيّما أثناء تلك الفترة من التّحسّب المؤرّق والانتظار اللّذين لا تدرى ما يخبّئانه في طيّاتهما من المفاجات!! كان شيئا أكثر من الوحدة ذلك الشّيء الّذي كان يدفعها إلى ذلك الجموح المخيف، شيئا ربّما لم تسع إلى تفسيره رغم إحساسها به في داخلها، تتعهّده مع حرصها على عدم التّفريط فيه، تحنو عليه بقدر حنوّها على محروس، فتاها الّذي عرف كيف يصمد أمام بطشها وبأسها، كلّ تلك السّنوات، عرف كيف يهتدي إلى فهم بعض طبائعها والإلمام ببعض عاداتها... كانت الحرب بينهما سجالا، وكان النّصر أو الهزيمة، كذلك، بينهما، سجالا، على الرّغم من التّفوّق البسيط الّذي كانت تحرزه هي، والّذي كانت تحقّقه باستعمال أكثر أسلحتها صرامة ونجاعة إذا آنست منه قوّة فوق قوّتها... كانت تلين، تذوب إغراء في حضرته، تستنفر كلّ طاقتها فيعمّ المكان ذلك الأريج النّفّاذ، القاتل، الّذي هو أريجها، تتجمّع في داخلها كلّ المتناقضات الّتي لو اجتمعت في غير المرأة لكانت وبالا على صاحبها، ضعف الأنثى اللّدنة المغناج، وتسلّطها في فرض رغبتها الّتي كانت تعرف متى تبذلها ومتى تمنعها، وتلك المسافة، ذلك الحدّ الّذي كانت تعرف كيف ترسم حدوده وبدقّة متناهية؛ هوسها بمحروس تحوّل فيما بعد إلى هوس مرضيّ بكلّ الرّجال، صارت تستحضر، في غرفتها، فتيانها الأثيرين، ونادرا ما كانت تستحضر رجلا بعينه، بعد أن تمكّن منها داؤها الجديد، الّذي صار يستأثر بجنونها على امتداد لياليها الطّويلة المجدبة، بل تجهد أن تدفع بهم جميعا داخل حلبة صراعها، تتخيّلهم كلّهم، تزجّ بهم من داخل سراب الذّاكرة إلى عالم الصّمت والظّلمة... لحسن حظّ محروس أنّها لم تقصه تماما، بل حافظت عليه كأحد أقطاب اللّعبة، ولكنّه مع ذلك تحوّل من قطب وحيد للرّحى

إلى منطقة للظّلال كانت تتّسع وتتشعّب كلّ ليلة... ودائما نفس الاحتراق، الدّوبان المجوسيّ الّذي تحوّل مع الوقت إلى شيء منفصل عنها، يتحكّم فيها، يقيّدها، فلا تملك له ردّا، تستعدّ له، تتزيّن كما يليق بفاتنة عذراء تتجدّد عذريّتها كلّ ليلة، لتحتضن رخصها أياد مجرّبة، مدرّبة، وقويّة، تعرف كيف تستثير مكامن الألم واللّذّة، تتدافعها. على هزّات النّغم. في استيلاب راقص، تجوس خلاله كلّ الأحلام والآمال، وتسافر إلى الأقاصي البعيدة، ترى في ارتداد الأزمنة كيف تنحسر الأحقاب، وتنكمش الأرض على رحابتها، فتمتلئ الحياة بنفس واحد، ونغم واحد، ونشيد واحد، وامرأة واحدة ورجل واحد يختصر كلّ رجولة الرّجال، وهي الملكة، صاحبة التّاج، الّتي تمنح وتمنع، وتحيي بإشارة واحدة من يدها، وتومئ فتسقط، في لمح البصر، الرّؤوس عن الأجساد... بداخلها اجتمع الخوف والرّغبة، الحزن والألم، ألم تجرّبه كلّ يوم، غير أنّه لا يخلو من شهوة محيّرة، تبعث فيها كمّا هائلا من الانتشاء والذّوبان، تودّ من كلّ قلبها أن تتخلّص من ذلك الألم إذا ألمّ بها، وأحسّته ينغل في كلّ خليّة من خلاياها الرّاكدة، تتوق لو كانت كائنا خرافيّا، فوق الزّمان والمكان والآلام، لا تتأثّر بشيء خارج حدود سلطتها غير المحدودة، ولكنّها في الوقت نفسه لا تدري لماذا كانت تشعر بصفاء غريب ومتعة لا توصف إذا جاء الوخز، فانتشر بعده الألم فيها انتشار الدّاء في الجسد العليل، تسكر، تذوب، ترقّ فيها العواطف والمشاعر، وتغدو خباياها القصيّة، البعيدة، أقرب إليها من كلّ وقت مضى، تنتابها نوازع غريبة، متطرّفة، لا تليق بجوّ الصّمت المخيّم على الدّار منذ زمن سحيق، يستثيرها شيء في الدّاخل، جموح ما يدعوها إلى الغناء، يدفعها إلى الصّياح ملء فيها، والصّراخ بأعلى صوتها أنّها هي نعمة ابنة الحاج محمّد السّويسي تريد أن تكون لكلّ الرّجال، وأن تحقّق سلاما مع نساء العالم جميعا، وأن تدعو أولئك الرّجال والنّساء كلّهم في مكان واحد، فتهبّ الرّجال للنّساء، ويكون زمنا لم تشهد الأزمان

مثله، فيه تسقط الحدود والأقنعة، وتزهق الأرواح الشّرّيرة الّتي تحكم الكون، ويعبّر القلب عن مكنون القلب، في ظلّ السّكون وفيئه، بين هسيس الأشجار الفيحاء، وخرير المياه الرّقراقة، وعلى أنغام الدّفوف والمزاهر... ياه! يا لهذا الوطن، وطنها، وطن لا تتجاوز حدوده أمتارا ثلاثة في أمتار ثلاثة، ومع ذلك يختزن في جوفه ما يدقّ عن الرّؤية، وطن الذّكريات المحترقة، تجهد أن تؤجّج نارها كلّ ليلة، ما تفتأ تضيف الحطب وتنفخ لهب أنفاسها الحرّى، حتّى تسمع تلك الأصوات الصّغيرة وهي تشتعل من اللّذّة، تنظر، ترى بأمّ عينيها كيف تتوالد الشّهوات من بعضها البعض، كيف تولد بنات الأفكار، وكيف يتجدّد العالم، كيف تنسخ أشياء أشياء أخرى، وكيف يتحوّل المسخ، في لحظة من اللّحظات إلى كائن ما ينفكّ يشفّ ويشفّ، وكيف يرقّ كما الرّوح... وهي تراقب، وخلال مراقبتها، تسكن جوارحها وتصيبها حالة من الحلول، فيفلت منها الكثير من الجزئيّات والتّفاصيل... تشعر بالارتباك، تستغرقها فوضى وشتات، فلا تدري أتقصر جهدها على الذّوبان في المشهد، أم تحرص على تجميع تفاصيله، فلا بدّ أن يكون هناك من يسجّل كلّ شيء، ليكون شاهدا على كلّ شيء، حتّى إذا ما حانت لحظة الصّفر صرخت بملء فيها: هنا في غرفتها، وعلى نشيد الصّمت النّاعم، كان العالم يولد كلّ ليلة، وكانت الرّغبة تتجدّد فيتجدّد معها شباب الأشياء! كان العالم يحيا ويموت، وفي موته يحيا من جديد... تماما مثل اللّذّة، غير أنّ هذه اللّذّة كانت شيئا آخر غير ذلك الشّعور بالامتلاء الّذي ما يفتأ أن يزول مبشّرا بعودة الجفاف والجدب!!

.تعالوا أحبّائي! تعالوا أحبّائي!

يتعمّق النّداء، ويتضخّم الصّوت، فتجاوبه أصوات أخرى من كلّ مكان في الغرفة، تتشابك، تقترب، وفي اقترابها، كانت تزداد اختلاطا

وتشابكا:

.لبّيك، لبّيك، أحبابك بين يديك!!

....أيّة بدايات كانت تليق بمقامات الذّكرى والشّجون؟! وأيّة نهايات كان أحرى بها أن تختم ذلك العشق الّذي لا ينتهي؟! وأيّة كائنات كان الأولى بها أن تخترق مساحات الفراغ والشّغور لتكون في كلّ مرّة كما أريد لها أن تكون؟!... لا يوافي الخيال دائما، وفي أحيان كثيرة يصبح هاجسا مؤرّقا، مدمّرا، يتسربل برداء عدوّ متربّص لا همّ له إلاّ المشاكسة والإزعاج، وبدل أن يسلس القياد، بدل أن يكون الحافز والمثير يتحوّل إلى مجرّد إحساس بالتّبلّد، يغدو غبيّا إلى أقصى الحدود، حينئذ، يتعمّق إحساسها بالفجيعة، تنبعث المنغّصات من جديد، تمزّق شرانقها، وتعمّ كالوباء في فضاء الغرفة الضّيّقة، كان كلّ ما بنته خلال أيّام وليال طوال يتلاشى ويتبدّد في غمضة عين، لا يعود هناك من كلّ عالمها القديم غير نفحة من رائحة عتيقة ما يغيضها منها أنّها تستشعرها في أنفها وحين تحاول أن تملأ بها كلّ كيانها تغدو مثل المهرة الجموح، تستعصي على الإمساك... تتساءل، إذا ما ألحّت عليها الهواجس، وتمكّنت منها الأفكار السّوداء، عن كلّ ما ضاع منها بغتة، وعلى حين غرّة؛ هل صحيح أنّ كل ما كانت تراه وتعيش معه ليلة بليلة واقعيّ، أم أنّه كان مجرّد وهم؟ هل كانت عناصر الكون الّذي نحتته من كيانها وأضفت عليه من تمرّد نفسها وتوقها بالفعل موجودة أم أنّها كانت أشياء سديميّة تراءت لها في فترة من الفترات كما يتراءى السّراب الكذوب لظمآن في مجاهل صحراء بلقع؟! تتساءل هل هي الأخرى موجودة حقيقة، أم أنّها احتمال وإمكان قد يصدق وقد يخيب؟!... يحلو لها أن تطفئ النّور تماما، في الظّلمة كانت تستطيع أن تفكّر بهدوء ، ولذلك كانت تريد أن تهيّئ نفسها للاستئناس بها... تتّخذ مكانها وراء طاولة زينتها، على مقعدها الوطيء... كانت ترى ملامحها مرتسمة على

المرآة بكلّ وضوح رغم انعدام النّور، ولم يكن ذلك لأنّها تعوّدت على تلك الملامح، إذ كان كلّ شيء فيها يتغيّر باستمرار، وإنّما كانت تمتلك من قوّة الاستكشاف والاستبطان ما لا يمكن أن يجاريها فيه أيّ شخص على الاطلاق... ترى وجهها بتقاطيعه القويّة، وقد انحفرت فيه آثار اللّيالي الماضية، وتعمّقت فيه. كما الخطوط البارزة على صفحة خارطة. كلّ تمرّد لاوعيها، ولربّما رأت أيضا، خلال الأتون والخيوط الدّقيقة الّتي بالكاد يمكن التّفطّن إليها، كلّ خيبات الماضي، والحصار؛ لم يكن الحصار نتيجة المنع الّذي فرضه وسطها المحافظ، ولو أنّه كان. في جانب كبير منه. سببا من الاسباب، بل حصار كان يضغط عليها من الدّاخل شيئا فشيئا دون أن تستطيع الخلاص منه، رغبتها أن تفصح عمّا يعتلج بداخلها فيتعذّر عليها ذلك، ميلها إلى مقاومة كلّ ما تراه ثابتا مستقرّا في البيت، نزوعها إلى تطرّف من نوع ما، كلّ ذلك يتلاشى فجأة، يتراجع أمام سلطة لا تردّ، جبروت قائم بذاته، في الأب، الّذي لم يكن يرضى عن أيّ سلوك لا يليق، وما الأب، في نهاية المطاف؟! هل يعدو أن يكون كائنا حاملا لميراث إنسانيّة لا يمكن بأيّ حال التّخلّص منه، ما دام يكبر ويشيخ دائما، ثمّ يتجدّد؟... وهذا تماما ما يعطيه شرعيّة البقاء والدّيمومة... عيناها تخترقان الظّلمة، تؤكّدان، في نفس الوقت، حالة الصّمت والسّكون، اللّذين لم يكن يقطعهما، بين الفينة والفينة، إلاّ صوت طائر شارد في الخارج، أو غناء صرصار نافر، أنفها تسطعه رائحة، على غرابتها، تبدو لها أليفة، تغمض عينيها، فيسري في كامل جسدها خدر مطبق، وتجمع كلّ تركيزها في أنفها، تحاول أن تتذكّر الرّائحة، أين التقطتها حواسّها أوّل مرّة؟ متى شمّتها؟ وهل الشّعور الّذي تحسّه حيالها الآن هو نفسه الشّعور الّذي انتابها حين غزتها الرّائحة أوّل مرّة؟... مزيج فريد، لا تستطيع أن تحدّد موقفك منه بسهولة، ربّما تراه مقرفا، فتجفل منه وتودّ لو تخلّصت منه، ربّما وددت لو هربت، ولكن في نفس الوقت تهفو نفسك إليه، تستشعر فيه

تاريخا حافلا من الرّوائح المدوّخة، والعطور النّفّاذة، يحيل على ألصق الأشياء بالنّفس، عالم الألغاز السّرّيّ في غرف مغلقة، وستائر مسدلة، وشموع توقد في حرص، وأصوات تنبعث حييّة، وتنتهي كذلك... وكائنات شفيفة يقذف بها بطن الفراغ إلى الوجود فتتآلف، تلتئم على نفسها، فتذوب أرواحها، تتراقص فتحمل أطياف الأنوار الّتي ترسلها الشّموع أبعادها ومراميها المسافرة، وهي تناغي بعضها البعض، وهي تتداخل في وحدة الكون، وهي تستحيل في الأخير إلى صورة لكائن واحد يجسّد بدايات الأشياء ونهاياتها، يؤكّد كلّ حدود التّناقض في رغبة جامحة وسعي لا يفتر نحو طلبة الامتلاء... وهل كانت هي تطلب غير ذلك؟! هل كان بإمكانها أن تطلب إلاّ ذلك الشّيء بالذّات، وهو المرغوب، لأنّه ممنوع، وأكثر من ذلك، لا يجوز لها حتّى مجرّد التّفكير فيه بينها وبين نفسها؟!... صحيح، كان كلّ شيء، في الدّاخل، في الغرفة، مبذولا أمامها بكلّ فتنته وألقه اللّذين لا يفتران، لكن بمجرّد أن تخطو الخطوة الاولى إلى الخارج، بمجرّد أن تجتاز قدمها آخر حدود العتبة، بمجرّد أن يلقي بها بطن الدّار إلى رحابة الكون تستحيل كائنا غير الكائن الآخر الّذي خلّفته وراءها، قدرها أن تعتاد على لباس الأقنعة، وأن تتحوّط دائما حتّى لا تكتشف رغباتها المجنونة في بؤبؤ عينها، أو حتّى في تلك الالتفاتات الغير مقصودة وهي تعبر المجازات الضّيّقة، والدّروب، والحواري في طريقها إلى قضاء بعض حاجاتها... في الزّمن القديم، كان من غير الممكن طبعا أن تخرج بمفردها، هذا إن خرجت، فهناك النّاس وهناك كلامهم؛ فإذا كانت بنات القاهرة كثيرات منهنّ ممنوعات من الخروج إلاّ صحبة الأمّهات أو ذوي قرابتهنّ، فكيف بعائلة محمّد السّويسي، وهو من هو في أصله العريق، وعادات أهله في السّويس، كان من المستحيل أن يذهب كلّ ذلك الماضي في لمحة عين، كان من غير الممكن أن يلبس ذلك الرّجل القادم من عمق الأصالة ومراعاة التّقاليد لباسا غير اللّباس الّذي اعتاد عليه، أو أن يشجّع أولاده وبناته

على خلع ذلك الرّداء الّذي حملوه معهم من هناك إلى هنا. من السّويس إلى القاهرة... ربّما لم تكن هي تريد ذلك، لكنّ الّذي كان كان... كانت تصحب والدتها في المرّات القليلة الّتي كانتا تخرجان فيها معا، وكانت الأماكن الّتي تصحبها إليها محدودة، لا تجاوز سوق العتبة القريب، ونصبات الموسكي، او خان الخليليّ أيّام الجمع... لكن بين ذلك الماضي الّذي ولّى والحاضر الّذي يرين بثقله على كلّ شيء فجوة هائلة من العسير رتقها؛ بين حدود العالم الّتي كانت واضحة تمام الوضوح في تلك الأيّام، وكانت محدودة لا تتجاوز معالمها، في دائرة وعيها، بعض الملامح الّتي بالكاد ترسّخت في ذهنها، وما تراه الآن قائما بكلّ شموخ أمام عينيها هوّة قائمة تستهويها وتغريها بقدر ما ترعبها... النّاس؟!... هؤلاء الّذين تمتلئ بهم الدّروب والمعابر، وتضيق بهم النّواصي وتراهم يضطربون أمامها في كلّ مكان، تراهم في ميدان العتبة، وميدان التّحرير، وفي أوائل الأماسي، على امتداد الكباري؛ تراهم بعيني الأنثى الّتي تريد أن لا يفوتها أيّ شيء، وهي تنظر بطرف عينها إلى ذلك المشهد الّذي كان يتجدّد في كلّ يوم بشكل مختلف رغم أنّه كان يتكرّر، وفي أغلب الأحيان دون أيّ جديد على الإطلاق... أولئك الفتيان والفتيات، وهم يتسايرون جنبا إلى جنب؛ ماذا كان يمكن أن يقول لها محروس لو أنّه كان معها؟ قطعا كان سيغازلها كما يفعل أولئك الّذين كانت تراهم يبتعدون عن العيون... ينأون عن الحشد، يبحثون عن أكثر الأماكن أمانا لتبدأ رحلة أخرى، قطعا ليست رحلة الكلمات ولكنّها رحلة أخرى كانت هي تعرفها جيّدا لكثرة ما ألفتها في غرفتها الصّغيرة... ربّما لم تكن تفوتها التّفاصيل حتّى هنا، ورغم التّكتّم الكبير من أولئك العشّاق الحذرين، لأنّها كانت تعرف دائما كيف تكون في المكان المناسب، ودون أن يحسّ بها أحد...!!!

((٧))
درّية

من لـ «الولايا»؟! من لهنّ بعد ذهاب كلّ شيء، وانفراط العقد - عقد العائلة -، من مات، ومن استبدّ به الهيمان، ومن هو ممزّق بين كلّ شيء ولا شيء، ومن فضّلت أن تبتعد عنهم، وأن تندب حظّها لأجلهم؛ وقد تركت لنفسها عنان خيالها وآثرت أن تتسربل بأوهام البحث عن فارس يأتي من عوالم السّحر كي يردفها على جواده المطهّم وينطلق بها إلى مطلق اللّذائذ والخلود؛ من لـ «لولايا»؟! من لك، يا دريّة، يا صاحبة الضّحكة الرّنّانة والبسمة المنطلقة دوما، يا أخت الرّجال الّذين كانوا رجالا وتصحين فجأة فتجدي أنّ كلّ شيء انقلب رأسا على عقب؛ فتجدي أنّ الزّمان ما عاد هو الزّمان، وأنّ الماضي بكلّ أشيائه الجميلة وأسمائه الكبيرة قد غدا أثرا بعد عين؛ أين الرّجال: الشّيخ محمّد السّويسي؟ أين بدروعبد المنعم؟ وأين فتحي؟!! آه، من فتحي؟ هل كان يعلم أنّ له في قلبك مكانا رفيعا، وأنّك كنت تهدهدينه في قلبك كما تهدهد أمّ رضيعها وتغنّي له لينام؟ هل أنت حقّا تحبّينه؟ أم كان ذلك مجرّد نزق لفتاة لم يكن مسموحا لها أن تخرج كما تخرج الأخريات، وأن تجرّب الحبّ خارج أعتاب البيت؟ هل كانت تلك مجرّد حاجة إلى رجل بجانبك؟ رجل يوفّر لك الأمن، وتنجبين منه أطفالا، وتثبتين للعالم أنّ لك رجلا، أنّ لك وتدا سيظلّ دعامة للبيت وطودا يذبّ عنك شرور الزّمان... ماذا بقي الآن غير الانزواء... غير التّواري وراء أستار الظّلمة والعتمة، بين الزّوايا والحدود الأكثر تباعدا في البيت الّذي صار أشبه ببيت الأشباح... الطّريق بيّن... المسلك ليس في حاجة إلى بوصلة تؤدّي

إليه، أو إلى دليل يقودك من يديك إلى منفاك الأخير، حيث كلّ شيء يلتبس بكلّ شيء وحيث الحقائق مجرّد تنويعات على نفس المأساة الّتي تتكرّر كلّ يوم، وبأشكال متعدّدة... كان الباب بالطّابق العلويّ مواربا أو شبه موارب، وكان الدّهليز يسبح في برك لجيّة من الإعتام، لا يعرف لها أوّل من آخر، وكانت اليد وهي تمسك بالمقبض لتفتحه ترتجف رجفات متواترة متوتّرة، ليس القرار بهيّن؛ والقرار الّذي توصّلت إليه في لحظة من لحظات التّجلّي يقتضي أعصابا وعزيمة، لأنّه لا مجال إلى التّراجع بعد ذلك.

«لكن ما فائدة البقاء خارجا؟ ما فائدة أن يكون الإنسان موجودا وغير موجود؟ وإذا ما أصرّ على البقاء فلمن يشكو بثّه أو همّه؟»

في السّابق كانت هناك زينب ونعمة؛ وكانت هناك أويقات صفاء على المشارف والحدود؛ وكانت هناك السّتّ توحيدة الحاضرة دائما، إن لم تكن في المكان ففي البال؛ كان يجمعهنّ المطبخ وجلسات الشّاي الحميمة في الصّالة، والحكايات الّتي لا تنتهي وتنقلها الشّفاه فتحلّق عاليا في الفضاء، ثمّ ترتدّ إلى الإذهان لتظلّ عالقة هناك إلى الأبد؛ فماذ يحدث الآن؛ وكأنّ الزّمان ما عاد زمانا؛ وكأنّ المكان هو الآخر قد غدا مزقا من البلى واللاّجدوى؛ وكأنّ كلّ شيء قد غدا لاشيئا؛ حينما تتذكّر كلّ ذلك، لا تمتلك سلطة على نفسها، وتغافلها الدّموع وتسقط دون إرادة منها. هي تعلم أنّها إذا دخلت إلى منفاها سوف لن تخرج منه أبدا إلاّ إلى قبرها؛ وستكون ظلمة القبر - إن ماتت - أرحم بكثير من ظلمة وصمت ستفرضهما على نفسها... تقدّمت بخطى متعثّرة؛ وكانت تخطو إلى أمام وأخرى إلى وراء، وكانت ما تزال ممسكة بمقبض الباب، وتتفادى أن تنظر مباشرة إلى المفتاح... صار المفتاح عدوّا رابضا، صار حارسا للموت والهلاك يحمل في يديه كلّ أسلحته المميتة، سيفه

المسموم، ورمحه ونشّابه؛ لكن هل كانت تعلم أنّ هذا العدوّ الرّابض إن خسر جولته في الحرب ورحل سوف لن يعود أبدا، ولن يكون هناك من هو قادر على إقناعه بالعودة ولو بذل له كلّ وسائل الإقناع... كانت الغرفة غارقة في الظّلام، وكان كلّ شيء فيها ساكنا؛ رفعت يدها ببطء وضغطت على زرّ الكهرباء - كان المصباح تشوبه دكنة جعلت الضّياء الذّي يصدر عنه شاحبا؛ وقد انعكس ذلك الشّحوب على كلّ شيء في المكان، بداية من السّرير الّذي ينتمي إلى عصر الرّخاء والمسرّات، إلى الكنب القليلة المتناثرة هنا وهناك، والكومودينو القديم الذّي كانت ترتاح فوقه بعض أدوات الزّينة، وبعض قناني العطور الفارغة... ألفت نفسها تتقدّم في بطء وخوف وتنزع المفتاح من الأكرة بعد أن أدراته مرّتين متواليتين، وتمضي قدما إلى السّتارة؛ أزاحتها في رفق، وفتحت النّافذة المستطيلة: الزّجاج أوّلا، ثمّ بعد ذلك المصراعين، وترقرقت عيناها وهي تنظر إلى السّماء، وإلى النّجوم التّي كانت تتلألآ وكأنّها تتغامز؛ رجف قلبها بشدّة؛ وأخذت تعدّ بتأنّ لتهدّئ من روعها؛ كانت تلك عادة تعلّمتها من أخيها بدر حينما كانا صغيرين ولاحظ أنّها سرعان ما ينتابها الخوف ويسرع قلبها في الخفقان. كان يقول لها مهدّئا:

«تنفّسي بعمق... نعم هكذا... عدّي من واحد إلى عشرة، وركّزي في العدّ، وانسي تماما أنّك خائفة.»

كانت تمتثل أوامره، لا تخالفه، وتطيعه طاعة عمياء؛ هو ليس فقط أخاها الأكبر، ولكن كان بالنّسبة إليها مثلا أعلى ومنبعا من الحبّ والحنان لا ينضب... آه، يا إله السّماء، هل يمكن لشيء صغير جدّا كهذا المفتاح أن يختصر الكون بأسره وأن يتحوّل إلى قطب الرّحى؟! هل يعود ذلك إلى حقيقة أنّها إذا رمته سيسحيل عليها بعد ذلك أن تستعيده؟! هل مردّ ذلك أنّها إذا ألقت به بعيدا ستفقده إلى الأبد، وسوف لن يكون

هناك من هو قادر على العثور عليه وإرجاعه إليها؟! كانت تنظر إليه مليّا بوله، ولكن بخوف أيضا؛ وأغمضت فجأة عينيها ورمت به بعيدا... بعيدا... إلى اللّيل المخيّم؛ وإلى النّجوم... وإلى عالم الاحتمالات... وعالم الموتى الّذين أخذهم الموت إلى مجاهل الضّياع وأقيانوساته... ظلّت هناك، متسمّرة في مكانها، لا تدري ماذا يمكنها أن تفعل بعد ذلك... ظلّت مشبوحة كأنّما اعتراها صمم وعمى؛ وتحوّلت بفعل قوّة تجهلها إلى صنم من أصنام الزّمن القديم، يحلو لعابديه أن يتوّجهوا إليه بالطّاعة والولاء، ولكن يظلّ مع ذلك لا قيمة له لأنّه لا يستطيع أن يفعل أيّ شيء لإنقاذ نفسه... وجدت نفسها تترنّم بشيء حزين... بقايا أغنية تعود إلى زمن الطّفولة كانت والدتها «السّتّ توحيدة» تردّدها على مسامعها وهي صغيرة، متمدّدة على فراشها، مشرئبّة بعنقها الصّغير إلى والدتها الّتي كانت مستعدّة أن تأخذها بخيالها إلى عوالم السّحر والفتنة، إلى مغارة اللّصوص، إلى البطل علي بابا، وإلى مصباح علاء الدّين، وإلى مملكة شهرزاد، وهي تلفّ الرّباط الحريريّ حول عنق الملك شهريار لتسحره تماما بحكاياتها الّتي لا تنتهي عن الجنّ والمردة والأحياء والأموات والأغنياء والفقراء... وعمّاذا أيضا؟! عن أشياء كثيرة أخرى كانت الدّموع تجرفها معها إلى آبار الضّياع والنّسيان... كانت تترنّم لنفسها... وكانت ترانيمها حزنا وموتا بطيئا على المشارف الّتي ستنتفي يوما ما وتتحوّل إلى مجرّد علامات لا تعني شيئا... خطت إلى الخلف قليلا وانحطّت بثقلها على إحدى الكنبات... وأغمضت عينيها... وألفت يديها تتهدّلان دون إرادة منها... خيّل إليها أنّها غفت، وأنّها رأت فيما يرى النّائم كأنّ السّماء قد انطبقت على الأرض، وأنّ القبور قد بعثرت، وأنّ الموتى قد بعثوا... وخيّل إليها أنّها كانت تضحك وتبكي في نفس الوقت، وأنّها كانت ترقص أيضا!!... قال لها، وهو يتقدّم منها رويدا رويدا: «أنت جميلة جدّا، أيّتها السّيّدة!! هل لك أن تعرّفيني على نفسك، حتّى نتعارف.» كانت بعيدة جدّا عن الرّجل، وعن نفسها

وعن العالم، وكان كلّ ما تفكّر فيه أن تعود صغيرة كما كانت على فراشها تستمع إلى والدتها تحكي لها عن طفلة كانت وحيدة أبويها؛ وفي يوم من الأيّام خرجت الطّفلة ولم تعد؛ وفي يوم من الأيّام وجدوها على إحدى القنوات التّلفزيّة تستعرض فساتين أحدث موضات دور الأزياء. كانت تتمنّى دائما أن تكون تلك الطّفلة الّتي خرجت ضائعة ورجعت ضالعة في عالم الشّهرة والبذخ الّذي ليس له حدود. في وقت ما هشّت للرّجل؛ كان حزينا حين أعرضت عنه؛ وحين نظرت إليه ثانية كاد يغشى عليه من الفرح. قال: «سيّدتي!!» رنت إليه بغنج وأشارت إليه بيدين عاجيّتين فجاء حثيثا وقبّلهما وهو يقول: «مولاتي! سأظلّ عبدا لك مدى الحياة!!» وكانت الحياة تعوي في الخارج وتعجّ بآلاف الأسماء والأشياء؛ وكانت هناك الأصوات، ما عدا صوتها الّذي قدّر له أن يصمت - أن يختنق... أن ينحبس، ولن يكتب لأحد أن يسمعه سوى هذا الرّجل االّذي هو رجل وليس برجل، الّذي هو رفيق وليس برفيق... كان يبكي... وكان يقول: سيّدتي، مولاتي؛ عبدك ويروم وصالك فلا تحرميه لذّة القرب منك... وطار الرّجل فجأة، ولم يبق معها سوى الفراغ، وموات الأيّام العجاف، وهي لا تني تحدّث نفسها. كانت تظنّ أنّ دهورا قد مرّت عليها في هذه الغرفة اللّعينة، ولم تكن في الحقيقة سوى أيّام؛ لكن ما حيلتها؟! ولا ساعة لديها، ولا رفيق لها بعد ذهاب ذلك الرّجل سوى الصّمت!! كانت تريد أن تقف، ولم تجد نفسها قادرة على ذلك. كانت أعضاؤها تتصلّب، وكانت شراييها تجفّ من الدّاخل؛ والدّم الّذي كانت تحسّ به يسيل من قبل ليمنحها الحياة تجمّد في عروقها... كانت أشبه بفزّاعة في أرض خلاء... وكان الموت يلاحقها من كلّ جانب؛ وهي تبحث عن المفتاح الّذي أضاعته... تبحث عن نفسها في خضمّ الرّتابة والرّثاثة... فتحت فمها لتصرخ... لم يطاوعها حلقها؛ وتهالكت أخيرا على أرض الغرفة، وهي تحاول أن تجد ولو ذكرى واحدة تعيدها إلى الحياة أو تعيد الحياة إليها... أين الشّيخ محمّد السّويسي؟!

الأب الّذي لم يحرمهم من أيّ شيء، وكان لهم نعم الوالد!! وأين السّتّ توحيدة الّتي طواها النّسيان فجأة وغدت شيئا من الماضي الّذي ولّى ولن يعود أبدا؟ وأين بدر؟ وأين عبد المنعم؟ وأين نعمة وزينب؟! وأين أيّام الشّوق؟! ياه! ما أمضّ هذه الوحدة القاتلة! ما أمضّ هذا الوجود بما فيه ومن فيه!!

((٨))
زينب

الجنون والسّفرا الدّائم... الرّغبة في طلاق الأرض والاحتجاب... متى يسمح هذا الجسد بالانطلاق؟! متى ينتفي لتبدأ رحلة من نوع آخر، بعيدا عن الضّجيج، بعيدا عن النّاس، وعن القيود الّتي وجدت نفسها مشدودة إليها منذ جاءت إلى هنا... آه، هذا الـ «هنا»! كم تريد أن تنساه، وتنسى من فيه، ابتداء من مالكته ومديرة كلّ شيء فيه، العالمة المخضرمة الّتي عاصرت كلّ تاريخ المجون من أواخرالأربعينات، ومازالت حتّى وهي في أواخر الكهولة لا تفوّت فرصة الضّياع الأبديّ وراء دخان الحشيش وزجاجات الويسكي الّتي كان يجلبها الزّبائن معهم، وهم يمنّون أنفسهم بقضاء وقت طيّب في ضيافتها، وهي الّتي تعرف كيف تتحفهم في كلّ مرّة بما يطلبون، «السّتّ خيريّة»، ويدلّلونها فيطلقون عليها «الإمبراطورة»، وحينما يخاطبونها كانوا يدسّون أكبر قدر ممكن من التّفخيم والتّبجيل في كلامهم. المرأة الّتي لم تسلم منها أنثى طارئة، أو أنثى لم تجد مأوى، أو أنثى جائعة قذفتها الشّوارع إلى عتبتها، فأخرجت لها بعض ما تأكل وبعض ما تشرب وهي تدعوها إلى الدّاخل لأنّ حال الأنثى قد أهمّها، مثلما كانت تقول، أو لأنّ قلبها الرّقيق لا يحتمل أن ترى أنثى على تلك الحالة، وتقف مكتوفة اليدين؛ لا بدّ أن تفعل شيئا، وكانت تفعل دائما شيئا، لا لتنقذ تلك الأنثى، ولكن لتضمن لنفسها مزيدا من المال، ولتضمن لتلك الفتاة نزولا إلى الحضيض... كانت «الإمبراطورة» امبراطورة قولا وفعلا، لها سطوة الأباطرة وسلطتهم؛ ولها قهرهم وجبروتهم؛ وكان إذا تعلّق الأمر بالمال

والمساومة استعملت كلّ أسلحتها الفتّاكة وتنّمرت... حينما كانت صبيّة، ما تزال تحبو في عالم اللّيل والشّوارع، ضحك عليها «عتريس»، فتى أنيق ووسيم، كان يخفي وراء أناقته ووسامته، خبثا ومكرا لا مزيد عليهما؛ وتركها بعد أن أخذ مالها وجمالها؛ ووجدت نفسها ضائعة في القاهرة الكبيرة بلا عائل ولا دليل، وحيدة، تتقاذفها أمواج الحياة، ولا تجد لها مأوى ولا مكانا تحفظ فيه البقيّة المتيقيّة من طهرها وعفافها؛ وعرفت أخيرا كيف تدخل البيت الّذي سيصبح بيتها إلى الأبد؛ تعذّب فيه كلّ الرّجال الّذين كانوا بالنّسبة إليها نسخة لـ «عتريس»... كان عتريس دائما في بالها، وكان يتراءى لها ليملأ قلبها حقدا وغيظا، وطمعا وجشعا؛ وقد عرفت أيضا كيف تستعمل عددا من الرّجال اتّخذتهم خاصّتها يجلبون لها النّساء من كلّ مكان؛ لا يهم أن تكون المرأة أرملة أو مطلّقة أو ما تزال في عصمة رجل، أو طالبة في الجامعة تبحث عن بعض قروش إضافيّة للإيفاء ببعض مصاريفها؛ فالإمبراطورة كانت تعرف كيف تقدّر لكلّ شيء ثمنا، كما كانت تعرف أنّ الرّجال يختلفون في أذواقهم، وليسوا كلّهم سواء في اختيار المرأة الّتي يريدون، فمنهم من يريد أن تكون مرافقته مملوءة شحما ولحما، ومنهم من يفضّلها ممشوقة ونحيفة، ومنهم من لا يهمّه من المرأة سوى أنّها امرأة... وجاءت زينب... زينب ابنة الحاج محمّد السّويسي؛ جاءت بعد أن انتهى كلّ شيء... جاءت بعد اليأس والوحدة والنّسيان، وانتهاء «كان يا ما كان... كانت هناك عائلة سعيدة... أفرادها سعداء... وحياتهم رخاء لا يكدّرها مكدّر»... كانت تتعثّر بمشيتها، ساهمة، لا تدري أين تذهب، أو ماذا تريد... وكان هو يترصّدها ويمشي وراءها كلّما رآها، وكان يفرك يديه استحسانا، ويقول لنفسه: «أين يمكنها أن تذهب؟ هل يمكن أن تضيع منّي وأنا الّذي طوّعت عشرات النّساء... لا، لا، أبدا! لا يمكن أن أضيّعها من يدي!!» اقترب منها، حاذاها في البداية، ثمّ فجأة ودون سابق إنذار، كان يقوم أمامها، بضحكته الواسعة، الّتي كانت تقول إنّه

يعرفها، وإنّه يريد أن تكون قريبة منه؛ رغم دهشتها لم تصدّه، وظلّت صامتة مدّة، ثمّ قالت في وجل: «من أنت؟» قال: «أنا بيرم.» قالت: «بيرم من؟» قال: «أيّوه، أنا بيرم والنّاس كلّها تعرفني في النّاحية؛ وأنا خدّام العيون السّود... ما تخافيش أنا يمكن أساعد؛ ولا مؤاخذة، أنا شايف إنّك تايهة... ما علش اسمح لي أتدخّل، إذا في حاجة لمساعدة أنّ بيت أختي قريب من هنا، يمكن نروح سوا وأعرّفك عليها... «نظرت إليه في استهجان وريبة في البداية؛ حدّت نظرها فيه، فوجدت نفس الضّحكة ونفس الملامح الّتي لا تقول إنّه «كلب مسعور»... وجدت نفسها تسير وراءه كالمأخوذة... تسير وقد نسيت عالمها، ونسيت كلّ شيء، ونسيت نفسها، وأنّها كائن من لحم ودم، وأنّ هناك معالم من حولها، وأنّ لها ماضيا، وأنّ الحاضر ما يزال قائما، وأنّ هناك مستقبلا سيأتي حاملا في طيّاته آمالا عراضا وأفراحا بلا حدود... وجدت خيريّة في انتظارها بجلالها ووقارها البادیين، وطمعها وجشعها اللّذين كانت تتعهدّهما في قلب قد استحال إلى برك موحلة من الصّدأ؛ قالت لها بنبرة جهدت أن تنقّيها من أورام المجون: «ما تخافيش يا ابنتي، إنت في بيتك، وأنا أختك!! إن كنت زعلانة أنا أواسيك؛ وإن كنت حيرانة، أنا أورّيك السّكّة؛ إحنا كلّنا هنا خدّامينك وتحت أمرك.» وأخذتها من يدها فألبستها وزيّنتها، وجهّزتها لأولى ليالي السّمر؛ كانت في حيرة من أمرها، ولكن كؤوس الشّراب الّتي كانت الإمبراطورة تقدّمها لها على أنّها ماء مروّق بالورد والزّهر كانت تأخذها إلى أماكن لم ترها في حياتها قطّ، إلى أماكن كلّ ما فيها قصور، وحصون، وداخل القصور كانت ترى مقاصير كلّ رياشها من السّاتان والموسلين؛ وداخل تلك المقاصير، كانت ترى الجواري يلهون ويجرين هنا وهناك وهنّ يتضاحكن ويتهارشن، ويقذفن أنفسهنّ بوسائد من ريش النّعام؛ وكانت تراهنّ وهنّ يخلعن ملابسهنّ ويستبدلن بها أخرى أجمل منها... آه، ما أحلى تلك الملابس! كانت تقول لنفسها؛ وما أن تعبّر عن تلك الرّغبة، حتّى تأتيها القهرمانة وتقوم بخلع

ملابسها بكلّ تؤدة ودربة، وتلبسها من الموهيروالحرير، والدّمقس، وكلّ أنواع الأقشمة الّتي لم ترها ولم تسمع بها في حياتها، ثمّ تقوم بعد ذلك بتسريح شعرها.شعرها الذّهبيّ المتموّج الّذي كان يصل حتّى خاصرتيها، وتدهنه بالطّيب، تدهنه بأنواع من الطّيب المدوّخ الّذي يبعث الخدرفي الجسد، وينتشرعبر المسامّ ويبعث على التّخيّلات والرّؤى الّتي لا يمكن للإنسان إلاّ أن يراها في عالم السّحر السّماويّ... وتلبسها أقراطا في أذنها وتحلّي جيدها بعقود من اللّؤلؤوالمرجان، والذّهب الإبريز، وكانت تقول لها وهي تضحك: «أنت الآن أميرة ابنة ملوك، وسيأتي مولاي ليأخذك معه في رحلته إلى السّند والهند وبخارى وسمرقند... وسترين معه العالم... ستذهبين إلى الصّين... ستذهبين إلى حدود القفقاس... وسترين كلّ شيء يا أميرتي الغالية...» ثمّ بعد أن تطمأنّ القهرمانة أنّها جعلتها في أبهى صورة، تتركها وتلك الجواري، فتصيرهي مقدّمة عليهنّ، لا يفعلن شيئا إلاّ بأمرها ولا يلعبن إلاّ بأمرها... ولا يمتن إلاّ بأمرها... ولا يحيين إلاّ بأمرها... وكانت ترى مولاها يدخل من البوّابة الّتي نصفها ذهب ونصفها فضّة، وهو يميس في لباسه المقصّب؛ فيأخذها جماله وتحجل نحوه كما تحجل الحمامة أو اليمامة وهي تستقبل شريكها... كانت الحياة في تلك القصور والمقاصير لا يعدلها شيء؛ وكانت تتمنّى لو تبقى هناك إلى الأبد، تغنّي لنفسها، وتغنّي لرجلها، وتغنّي للكون من حولها؛ وكانت تتمنّى لو ينتفي العذاب، واللّوعات، والفراق، والخوف، وينتفي حزنها المقيم الّذي صار علامة فارقة في حياتها... كانت تسمع الضّحكات من حولها، وكانت تشعر أنّ أياد كثيرة كانت تمتدّ إليها في نفس الوقت؛ وكانت تشعر أنّه في الوقت الّذي تكون فيه يد تداعب شعرها كانت أخرى تمتدّ إلى يدها، وأخرى تلمس جيدها، وأخرى تسافر في أمكنة محرّمة من جسدها... وكانت في لحظة من اللّحظات تتصوّر نفسها تدور حول نفسها... تتصوّر نفسها ترقص، بجنون، ترقص بلوعة ما لها حدود، وأنّها وهي ترقص كانت تبكي، وأنّ دموعها

كانت تسقط على خدّيها ممتزجة ببقايا كحلها... وترقص حدّ الغثيان، وترقص حدّ الانتفاء؛ وحينما تصحو أخيرا تجد نفسها في غرفة من غرف البيت الكثيرة منطرحة على السّرير بين يدي من كانت نصيبه في تلك اللّيله... وهي تسقط، وتعرف أنّها تسقط، في كلّ ليلة؛ وأنّ بيرم الّذي جاء بها إلى هنا كان يأتي بأخريات أيضا؛ وأنّه حين يرمقها الآن، كان يبتسم ابتسامة غامضة ويمرّ من جانبها كأنّه الطّيف؛ ولكن ما يهمّها من أمره الآن؛ هل كانت ترغب فعلا أن يكون لها بعلا؟! أن يكون لها زوجا، ينقذها من الضّياع الّذي كانت تعيشه؟! لا، لا، لا يهمّها من أمره أو من أمر غيره شيئا... لقد انتهى كلّ شيء الآن، ولم يبق إلاّ أن تقوم بالخطوة القادمة، أن تقوم بها بكلّ شجاعة، لتضع حدّا لهذا التّزيف، نزيفها الّذي كان يدميها... في ظلمة غرفتها، سمع صوت، لم يكن صوتا، ولكن كان انفجارا، صحا على وقعه كلّ من في البيت... جاءت «الإمبراطورة» وهي ما تزال نصف عارية، في ثياب نومها، وجاءت النّساء الأخريات في نصف ملابسهنّ، وكأنّ بركانا قد أيقظهنّ؛ وجاء الرّجال أيضا، وحينما دخلوا الغرفة كان كلّ شيء قد انتهى.

قال صوت:
«مسكينة زينب!»

وقال صوت آخر:
«يا خسارة شبابها.»

وهنا تدّخلت «خيريّة» بحزم، قالت:
«اسكت منك له. لا أريد ولا صوت.»

وبصوت فيه حزم وعزم نادت «بيرم» ورجلا آخر كانت تحتفظ به

للملمّات:

«خذوها للبدروم، وقوموا باللآزم.»

والتفتت إلى البقيّة وأضافت:

«السّرّيموت هنا! إنتو تعرفو هيحصل إيه لو الخبر انتشر.»

كان هناك صمت. كان هناك حزن؛ ولكن كانت هناك الحياة أيضا؛ وكان يجب للحياة أن تستمرّ!!

((أقاصيص من زمن النّسيان))

١.عن الغربة

(صور في: ١٥/١٠/٢٠٠٠)

... السّاعة الرّابعة إلاّ ربعا صباحا:

اللّيل ملغز، موح، لا أثر فيه لبشائر نور أولى، كأنّ شيئا غامضا قد وقع، أو على وشك الوقوع، هناك عتمة في كلّ مكان، في الخارج حيث الزّقاق الجانبيّ ينام مستكينا لهدأة نسمات رقاق كانت تهبّ من حين لآخر، وفي داخل الشّقّة، في الطّابق الثّاني من مبنى كبير، يتوسّط مجّمعا سكنيّا جلّ قاطنيه مدّرسون ينتمون إلى جالية استقرّت في هذا البلد الأجنبيّ منذ زمن بعيد موغل في النّسيان... كان يوسف يضطرب داخل الصّالة، دون هدف واضح تقريبا، يفكّر ولا يفكّر، فإذا ما أعياه التّفكير، وألقى بجسده المرهق على أقرب أريكة، وراح يغري عينيه الكليلتين المرهقتين بوهم الرّحيل إلى مملكة النّعاس النّائية، طفت في الحين صورة الأستاذ محمّد.

... يجهد أن يتذكّر الاسم، الاسم كاملا، متى التقى صاحبه أوّل مرّة، في أيّة سنة، قطعا هو من بلد أجنبيّ آخر، أبعد من بلده هو، يكدّ ذاكرته، يعروه اضطراب وقلق حتّى إنّه ليصبح غير قادر على الاسترخاء أكثر من ذلك، يودّ لو ذهب إلى السّرير، مجرّد غفوة ولو للحظات في هذا الهزيع الأخير من اللّيل نعمة، ولكنّ الأستاذ محمّد لا يريد أن يعتقه، لا يريد أن يحرّر رقبته من يديه الحديديّتين... يقوم نصف قومة، ويده

اليمنى ما تزال قابضة على مسند الأريكة، ويشرئبّ لاإراديا بعنقه نحو النّافذة، يخطو بضع خطوات متعثّرة باتّجاهها، في لحظة ما، يتوقّف قليلا، ويلقي نظرة ساهمة على ما حوله، على الأشياء الّتي فقدت مع الأيّام رواءها وجمالها داخل الصّالة... كثيرا ما تساءل بينه وبين نفسه: «لماذا كتب عليّ أن تكون نهايتي مع هذه النّافذة؟! أيكون وجود الأستاذ محمّد في حياتي هو ما حدّد هذه النّهاية؟!!» ولكنّه يعود في أوقات أخرى ليقول لنفسه: «لو لم تكن هذه النّافذة، لكان أيّ شيء آخر مكانها، ربّما الباب، أو المرآة الجميلة المنتصبة بخيلاء في غرفة النّوم...أو...أو... كان أينما يولّي وجهه يجد هذه النّافذة تشدّه إليها بعنف، وفي المرّات القليلة التي آلى فيها على نفسه تحدّيها والصّمود أمامها، سرعان ما يتحطّم شيء ما بداخله، ويلفي قدميه تقودانه إلى الأمام كأنّما لا سلطة لباقي جسده عليهما... كانت عيناه تنزلان شيئا فشيئا، ببطء، وتستقرّ نظراته اللاّئبة على شرفة الشّقّة التّي تلي شقّته تماما في الطّابق الأوّل. وما أن يتحقّق من الأضواء المشتعلة داخلها حتّى تعتريه فرحة وطمأنينة عارمة. هذا يعني أنّ الأستاذ محمّد عبد الرّحمان ما يزال موجودا؟ هذا يعني أنّه ما يزال ثابتا على تحدّيه الذّي أطلقه ذات مساء من المساءات، في أحد أسابيع شهر من الأشهر، ذات سنة من السّنوات المنسيّة البعيدة: «لنر من سينام قبل صاحبه!» ثمّ يواصل بمزاح رائق ونبرات صريحة واضحة: «سأنتظر حتّى تنام وأصعد إلى سطح العمارة فأسرق هوائيّك!» ترى كم مرّ على هذا التحدّي؟! عام أم أعوام؟!! يوسف لا يدري تحديدا. ولكنّه يشعر بقلق غامض، وخوف ما يفتأ يتزايد حين يقول لنفسه بإعياء: «لو كان الأستاذ محمّد موجودا لزارني، ولكان تحدّث إليّ وتحدّثت إليه!!»

ينحني بجذعه الفارع، وقد تدلدل رأسه من أثر الإعياء، وفرّت كلّ الصّور التيّ كانت تغزو ذاكرته منذ قليل، ودون هوادة؛ والغريب أنّه

ظلّ هادئا، كما لم تهزّ جسده قشعريرة القلق الّتي كان يحسّ بها كلّما أدركه هاجس فقدان الذّاكرة، ثمّ الجنون فيما بعد. كلّ ما طرأ عليه، وشعر حياله بجوع مدمّر أن يظلّ أكبر قدر ممكن بجانب النّافذة، لا يهمّ أن يمكث هناك مواربا في عطالته وسكونه، بقدر ما يهمّه أن يكون في ذلك المكان بالذّات، وفي ذلك الوقت بالذّات، ربّما هو إحساس الهروب من شيء ما، ربّما هو اللّياذ بملاذ لا يمكن لغير النّافذة أن توفّره له... يباعد ما بين يديه، ويرتكز بمرفقيه على الحافّة، ثمّ يشبك أصابعه، ويرفع قبضتيهما فلا يجد شيئا، يكدّ نفسه من جديد، أيّة فكرة قد تريحه الآن، لتكن أيّة فكرة أو أيّ خاطر عابر، المهمّ أن تنشط ذاكرته من جديد، حرّك شفتيه فانفرجتا، وهسّت أنفاسه مثقلة ببقايا اضطرابه الدّاخليّ، وما عتمت أن ترجمت الأنفاس عن نفسها في صوت مستوحش منفرد، والصّوت تشكّل في كلمتين مقتضبتين مبتورتين متباعدتين: «أنا... يوسف !!»... انتابته، فجأة، سعادة لا توصف، خضّت كلّ جسده خضّا، وفكّر كم سيكون جميلا لو حاول مواصلة اللّعبة إلى النهاية، أن يفكّر، أن يحتفل بانتمائه إلى سمات فارقة تشدّه إلى أصل، إلى عائلة، إلى زوجة وأبناء، إلى أرض تتكلّم نفس لغته وتشاركه نفس أحاسيسه... قادته قدماه، من جديد، إلى الأريكة وسط الصّالة، وظلّ ينظر مليّا إلى نقطة غير مرئيّة في الفراغ، ثمّ أحنى ظهره إلى الأمام وهو يجلس... بدا له أنّه يستعيد جلسة قديمة صاحبته على امتداد سنين طويلة، ومن قبل ذلك شدّته الجلسة لأنّها تمتّ إلى شخص أثير على قلبه ارتبط به مصيره منذ سنوات طفولته الأولى. من يكون هذا الشّخص؟ هل كان أباه؟ أو أخاه الّذي أصابته رصاصة في ساقه، فلم تمهله سوى أسبوع واحد قضى على إثره؟!

« أنا يوسف...»

أراد أن يواصل، أغمض عينيه في محاولة للتّذكّر. استغرقته

المحاولة ربع ساعة تقريبا. منح ذاكرته فرصة ثانية، انضافت ربع ساعة أخرى إلى الأولى، وبدأت عقارب السّاعة تدور في محور السّاعة الثّانية، ولكن دون جدوى. هذه الذّاكرة... ذاكرته الّتي كان يفتخر بحدّتها ومضائها تحوّلت إلى خواء، استحالت إلى مجرّد بئر معتمة بلا قاع، لا يتردّد فيها غير صدى بلا روح أو معنى محدّد.

قام. سار نحو دولاب صغير كان مركونا إلى شمال الصّالة من ناحية المدخل. امتدّت يده في العتمة ففتحته، وانسابت أنامله تلوب هنا وهناك بحثا عن تلك البطاقة الصّغيرة، في حجم راحة الكفّ. إنّها بطاقة هوّيته!! أخذها بين يديه وتأمّلها. أراد أن ينفذ . في الظّلمة. إلى ما وراء أحرفها الرّقيقة، القليلة... أراد أن يثبت لنفسه أنّه ما يزال ثابتا، أنّه ما يزال مفردا في صيغة الجمع، غير أنّ ذاكرته تخونه مرّة أخرى. خطا خطوات يسيرة في اتّجاه الزرّ الكهربائيّ، فأشعل النّور. كان كمن يخرج من جوف سرداب تحت الأرض إلى شمس النّهار السّاطعة. وعندما رفع البطاقة إلى مستوى عينيه، لم يرفي البداية غير آثار نحيلة لكتابة قديمة غير مقروءة... قرّب البطاقة حتّى لم يعد بينها وبين عينيه سوى حاجز من نور بدل أن يجلّي أمامه خفايا الأحرف زاد في تشويشه واضطرابه... هذا الآن اسمه أمامه يطالعه كاملا لأوّل مرّة منذ أزمنة سحيقة ولّت وانطوت دون أن يكون قادرا على الإحساس بها، اسمه الذّي لا يمتلك في هذه اللّحظة الشّجاعة ليقول إنّه اسمه هو، وإنّ الصّورة المثبتة في الأعلى إلى اليسار هي صورته هو، وليست صورة شخص آخر ربّما يمتّ إليه بشبه أو صلة قربى... رنا من جديد إلى تلك النّقطة غير المرئيّة في الفراغ، زائغ النّظرات، شارد اللبّ، وقد تهدّلت شفته السّفلى في غباء، وتردّدت أنفاسه المتقطّعة لتصوغ في قلق تينك الكلمتين الهائمتين: « أنا... يوسف!!»

كان الاسم الكامل كما هو مثبت في البطاقة:

.يوسف يعقوب إسحاق إبراهيم الدّمنهوري
مولود في:١٢ سبتمبر١٩٤٥ بدمنهور
المهنة: مدرّس
ومحلّ الإقامة: أبو العلا. بولاق

ألقى البطاقة على النّضد وهو ينصبّ بثقله على الأريكة. كان الخواء يحاصره من كلّ جانب، كان يحدّه في المكان كحشرة قميئة وسط حشرات أخرى مفترسة جائعة. لا بدّ أن يفعل شيئا. لا بدّ أن يشعر بسريان الدّم في جسده وإلاّ تيبّس وتصلّبت أعضاؤه، وحينئذ لا مفرّ من لحظة موت مباغتة. وهو لا يريد أن يموت، على الأقلّ الآن، حتّى يطمئنّ على مصير صديقه محمّد عبد الرّحمان... محمّد عبد الرّحمان رفيق درب السّنوات الكثيرة المنقضية.

لفتت انتباهه، وهو يدير رأسه في حركة متشنّجة، علبة سجائره التيّ كان اشتراها في ذلك الصّباح ولم يكن قد فتحها بعد. كانت العلبة تستريح في لامبالاة على حافّة النّضد، شامخة، متغطرسة، متحدّية كأنّها تتجاهله أو تضيف إلى مأساته مأساة جديدة، وإلى جانبها علبة الثّقاب تشعّ ببريق وميضها الفسفوريّ. تساءل بينه وبين نفسه هل كان دخّن في ذلك اليوم كما كان يدخّن في كلّ يوم ، وهل أحسّ بسحابة الدّخان وهي تغزو صدره، ثمّ وهي تشيع تلك الحرارة الحييّة في أعماقه، ثمّ وهي تتسرّب من بين خياشيمه وفمه محدثة تلك العربدة الّتي تذكّره دائما أنّ هناك شيئا ما ذا قيمة يستحقّ أن يعيش من أجله !!

بيدين مدرّبتين فتح العلبة، وبأنامله الطّويلة الرّشيقة سحب سيجارة تأمّلها مليّا ثمّ أشعلها، وقبل أن يلثم بياضها بين شفتيه، راقب عود الثّقاب وهو يحدث فيها تلك الجذوة الملتهبة... سحب أنفاسا

متتابعة في لهوجة ظاهرة، ثمّ ألقى بالسّيجارة في المنفضة، ووقف فجأة دون أن يدري لماذا وقف أو ما السّبب الذّي دعاه إلى الوقوف بذلك الاندفاع وتلك العدائيّة. ربّما ذلك الخطاب! أجل، إنّه ذلك الخطاب المؤرّخ بتاريخ ٧/ يونيو/١٩٦٧، ويحمل نفس ذلك العنوان المثبت ببطاقة هوّيته! كانت الكلمات التّي قرأها على بضع صفحات انتزعت في غير عناية من دفتر مدرسيّ متعثّرة، غير أنّها كانت أسيانة، وتحمل مسحة حزن وشوق لا تكاد تخفى عليه.

استقرّت نظراته على التّوقيع، قرأه مرّة ومرّات، ثمّ أعاد قراءته مرّات أخرى: مخلصتك إلى الأبد . خديجة. هل تكون زوجته حقّا كما اعترفت هي بنفسها في الخطاب؟ أم امرأة أخرى تريد أن تنتحل شخصيّة زوجة ربّما كانت هي زوجته حقّا؟!! ولكن هل هو متزوّج فعلا؟ فإذا كان متزّوجا، فمتى حدث ذلك ؟ ومن تكون زوجته؟! على كلّ حال، كلّ القرائن تشير إلى ذلك؛ وحتّى إذا ما أعوزته القرائن فإنّ المنطق الّذي كان آمن به على أنّه الشيء الوحيد الذّي يحفظ إنسانيّة الإنسان يؤكّد أنّ شخصا في مثل عمره، ومضى عليه ما شاء اللّه من السّنوات في هذا البلد الأجنبيّ الموغل في العتمة والنّسيان لا بدّ أن يكون متزوّجا وله أبناء أيضا!!... مضت أيّام عديدة نسي فيها الخطاب أو كاد، كما نسي أشياء أخرى من قبل. قد يكون هو الذّي اختار بإرادته هذا التّجاهل والنّسيان، ولكن يظلّ هناك شيء ما يخرج عن نطاق إرادته، يزعزعه، يخلخل بنيان ذاكرته الّتي طالما ظلّت متراصّة كالطّود!! أحيانا كثيرة يلحّ عليه الخطاب، وتحاصره أكثر الكلمات الرّقيقة المبثوثة خلاله، وتستغرقه مشاغل الحياة فينساه لحين، ولكن ما يفتأ أن تنطّ أمام عينيه صورته من جديد. التّاريخ. الكلمتان التوّاقتان في رأس الورقة: زوجي الحبيب. العبارات الجيّاشة الّتي تضوع بها، السّطور وما تحت السّطور. وأخيرا التّوقيع: مخلصتك إلى الأبد . خديجة...» خديجة

من؟!» هكذا يسائل نفسه كلّما آوى إلى فراشه في أواخر اللّيل، ويجيبه صوت من أعماقه القصيّة، في شبه تأكيد: «خديجة زوجتك وأمّ أبنائك!!»... ولكنّه يريد أن يتأكّد، يريد أن يطمئنّ! وفي ذات يوم، أخذ ورقة صغيرة، كتب في وسطها: «من أنت أيّتها المرأة؟» وأخذ الورقة فطواها ثمّ وضعها في مغلّف وأرسلها بالبريد. بعد أسابيع تلقّى ردّا لم يتوقّعه، ولا يتناسب مع الجدّية المفرطة الّتي ضمّنها ذلك السّؤال الخطير.... كان الردّ قصيرا كذلك ويحمل استفسارا فيه الكثير من الخوف والاستنكار: «أنت تمزح!»ولكنّ الخطاب الثّاني الذّي أرسله بالبريد السّريع، وحملّه نفس ذلك السّؤال الذّي كان خطّه في الرّسالة الأولى، أكّد لها أنّه لم يكن يمزح؛ ولذلك أرسلت مع جواب رسالته صورتين فوتوغرافيّتين، الأولى صورة زفافهما، والثّانية صورة ثلاثة أبناء، بنت وولدين، سارّة، مازن وطارق... قدّريوسف أنّ هذه الخطوة الّتي اتّخذتها زوجته ربّما تكون أخطر خطوة اتّخذتها في حياتها، وهي لذلك، ودون شكّ، تنتظر منه ردّا، ولابدّ أن يحمل هذا الردّ تبريرا، ولابدّ أن يتضمّن هذا التّبرير تراجعا!! ألم يجرح كبرياءها؟ ألم يتجاهلها، وأقصى ما يثير المرأة ويجعلها تتنمّر أن يتجاهلها شخص ما؟! ولكنّ يوسف لم يرسل ردّا، ولم يقدّم تبريرا، وإنّما نزل إلى الشقّة في الطّابق الأوّل، نزل درجات السلّم العشرين ليتأكّد أنّه ما زال لم ينس كلّ شئ، وأنّه مـازال .في أسـوأ الأحوال .يذكر شخصـاً اسمـه محمّد عبد الرّحمان !!

كان الباب مواربا...

لم يكن الباب مغلقا، وهذا ما زاد في اضطرابه...!!

استغرق وقتا إضافيّا أمام بسطة المدخل ليستعيد توازنه ويسيطر على اضطرابه الذّي ما فتئ يتزايد شيئا فشيئا... انحنى بجذعه قليلا إلى اليسار، وأدنى رأسه من ذلك الشقّ البسيط الذّي انفرجت عنه ظلفة الباب، غير أنّه خلافا لما كان قدّره لم تفصح له الظّلمة في الدّاخل عن

شئ من مكنون الشقّة الغارقة في سبات أواخر اللّيل كأنّ فيض النّور الذّي كان طالعه من شرفة شقّته، ثمّ من انفراجة الباب، لا يمكن أن يكون امتدادا لنور آت من الدّاخل، وإنّما هو احتمال آخر من جملة الاحتمالات الغائمة التّي قد تصدق وقد تخيب... لم يستطع أن يصمد أكثر أمام فضوله... دفع مصراع الباب بأنامل مرتجفة ودخل تسبقه قدماه وبعض تخمينات قلقة كان يجهد أن يوقف صراخها الضاجّ في أعماقه... لم يكن في حاجة إلى إنارة المصباح، فقد كانت الصّالة مضاءة، وهذا ممّا زاد في مضاعفة توجّسه وهواجسه... لم يسع إلى التماس تفسيررغم رغبته الكافرة في معرفة ما يحدث... انسابت نظراته في عجلة على الأثاث أمامه، على الأرائك الحائلة القديمة، القديمة جدّا، كأنّها تنتمي إلى عصر آخر لا يمتّ إلى هذا العصر... انصبّت عيناه اللاّئبتان على صفحة المنضدة شبه المحطّمة في الوسط، وعلى الحيطان الّتي تقشّر طلاؤها، وعلى بقيّة الأشياء الأخرى القليلة المبثوثة هنا وهناك... سار قليلا إلى الأمام... كان قريبا من إحدى الأرائك، لكنّه لم يجلس رغم الإرهاق الّذي كان ينضح به جسده المتعب... تطلّع إلى الزّوايا البعيدة، حملق فيها مليّا، انتابته رعدة قشعريرة حادّة حينما رأى تلك الخيوط الحريريّة الرّقيقة وهي تلتفّ حول نفسها، وعلى مقربة منها رفيف من العناكب تتربّص بهوّام أواخر اللّيل... بدا له كأنّ الشّقّة لم تطأها قدم إنسان منذ عشر سنوات على أقلّ تقدير... طفت على ذهنه صورة صديقه القديم محمّد عبد الرّحمان... تساءل بقلق هذه المرّة: «هل عرف شخصا بهذا الاسم من قبل!!»

عاد أدراجه إلى المنضدة وسط الصّالة... تهالك على أقرب أريكة صادفته... امتدّت ذراعه عن غير قصد فلامست أنامله حافّة المنضدة... بدا له كأنّ يده اصطدمت بشيء صلب... انحنى... لابت عيناه في اضطراب، ثمّ استقرّت على ذلك الشّيء الغريب الشّبيه

بالكتيّب... رفعه بكلتا يديه... قرّبه من وجهه... لم يكن كتابا، وإنمّا مفكّرة قد حالت زواياها... فرّ أوراقها... كانت خالية من كلّ كتابة... عاد ففرّ أوراقها من جديد... فرّها بدقّة. كان ينظر بعناية في كلّ ورقة... كانت الأوراق متآكلة، مهترئة لا تحمل أيّة بصمة محدّدة أو أثر دالّ... كانت الأوراق بيضاء تماما، ما عدا الصّفحة الأخيرة، فقد كان مكتوبا عليها:

صابر علي محمّد عبد الرّحمان
من مواليد ٢٥/آذار/ ١٩١٥ بكفر بني نوير
قضيت بهذا البلد عشرين سنة مدرّسا تقنيّا،
ووقع إنهاء خدمتي بقرار صادر وموافق عليه في:
٣٠ / تشرين الأوّل / ١٩٧٠.»

٢.عن الشّــوق
(صور في ١٨/١١/٢٠٠٠)

.... هذه الجلسة الّتي تتأسّس في غفلة من الزّمن ما أروعها! هذه الرّائحة الحيّة العبقة المهرّبة عبر آلاف الأميال، وضوع السّجائر الّتي استبدلت بنسغها وشذاها المخدّر نسغا وشذا جديدين، كما تستبدل الحيّة الفتيّة جلدها بعد الأسابيع الطّوال، واللّيل الرّائق الفتّان يحطّ من الأعالي المستحيلة الّتي تسيّجها تلك الجبال الهرمة من كلّ مكان، وزرقة البحر.... ذلك الامتداد الّذي تحمل كلّ موجة هادرة من موجاته أنفاس المحيط الغافي وراء حدود غير منظورة.... كان اللّيل يأتي دائما، وقلّما كان يخلف موعده فإذا ما أخلفه فلطارئ من الطّوارئ القاهرة أو لعذر من الأعذار الّتي لا تحتمل مماطلة أوردّا؛ وكان لا يأتي إلاّ جليلا مهيبا تسبقه البشائر وتكتنفه صبوة الأحاديث، وتليه الوعود. وتحسبه إذا ران على الكون، وتجلّلت بملاءة ظلمته البطحاء الفسيحة في نهاية الدّرب والشّوارع الإسفلتيّة الرّاحلة الّتي لا تخالها إلاّ مسافرة مع تلك السّيّارات الّتي لا تكفّ لحظة واحدة عن ارتيادها في ليل أو نهار، والسّمرة الغميقة لتلك الأجساد الضّامرة المتلبّثة على مقربة، والقسمات المترقرقة المنسابة على شاشة التّلفزيون تسائل الأصوات المتداخلة، والكلمات المقتضبة، ونشرات الأخبار الّتي يلقيها من أمام عدسات الكاميرا فتيان متأنّقون وفتيات فارهات مازلن في شرخ الشّباب.... تسائلهم عن النّساء المجدودات، عن البيت الّذي مازال لم يكتمل بناؤه بعد، ومازال ينتظر دفعة المال المرسلة بالبريد

ليكتمل، عن الأبناء الّذين ولدوا والّذين لم يولدوا بعد، وقد زرعوا نطفا في الأرحام في حميّا ليلة كان الرّحيل ينتظر متربّصا على مشارف هزيعها الأخير، عن البلد الّذي شرّدهم، ولكن يظلّ جميلا فاتنا على الرّغم من كلّ شيء.... هذا اللّيل إذا ران على الكون، إذا اكتنف كلّ شيء بكلّ تلك الفتنة والمهابة، لا يمكن أن يتبادر إلى ذهنك أنّ شيئا أصيلا كذلك الشّيء يمكن أن يكون امتدادا لشيء ما، ولو كان ذلك مساء رائقا، ربمّا لا يقلّ عنه فتنة ومهابة!! أقدام عديدة، هي الأقدام نفسها لا تنقص ولا تزيد دائما، تطأ نفس الدّرب وتتوخّى نفس المسار؛ قد تضجّ بصمت تلك الشّقق المغلقة، وحياد تلك الأبواب الموصدة، فتطأ، منفردة، المعبر القصير بين رفيف البنايات إلى كون المدينة الصّغيرة السّاكنة، ولكنّها حتما لا بدّ أن تلتئم على نفسها، لتكوّن حلقة السّمر الليليّة.... أحمد.... محمود.... عبد الله.... عبد العاطي أدمون.... نادر العلي.... مسعود المودودي.... أربع وعشرون قدما.... اثنا عشر شخصا، وقد تتّسع الحلقة أحيانا وتمتدّ لتزيد الأقدام على ثلاثين، والأشخاص على خمسة عشر، ولكن لم يحدث أبدا أن انقسمت هذه الحلقة على نفسها، وتباعدت الأسماء، هذه الأسماء الّتي تتجاذبها أقطاب جهات عدّة، جهات متباعدة، وربّما لم تكن لتتعارف أو تتقارب في ذلك البلد الّذي تنتمي إليه، غير أنّها هنا.... في هذه البلاد البعيدة، عبر رحلة المسافات الطّويلة، في هذا المكان، تحت مظلّة اللّيل المبرقعة، لا تطيق أن تفترق عن بعضها البعض، الشّماليّ الضّليع في شماليّة لهجته المميّزة، والجنوبيّ الموغل في بداوته الأيلة، والشرقيّ.... والغربيّ القادم من سفوح جبال مجلّلة قممها بالغار والثّلوج، فإذا ما حدث أن غاب شخص فافتقدته الجماعة ليوم أو يومين، فإنّ الألسنة لا تكفّ عن السّؤال، والأفواه اللّجوج لا تني تستخبر وتستفسر!! وقد تضطرب شفتا أحدهم في تلكّؤ، ويلقي ببعض كلمات يسيرة تضمر في ثناياها اقتراحا ما يعتم أن يلاقي هوى في

نفس الجماعة، كأن يقول مثلا: «لم يحدث أبدا أن انقطع عنّا محمود كلّ هذه المدّة.... ثلاثة أيام بأكملها!» فيردّ عليه ثان: «إيه واللّه! ليست هذه عادته، وهو. كما نعلم جميعا. كثير القلق لجوج لا يطيق إعتام الشّقّة ورتابة السّكون!!» حينئذ، يهبّ من أقصى الحلقة صوت ثالث متحدّيا، وقد أراد أن يضع الاقتراح المضمر موضع الفعل: «ما رأيكم لو نزوره في شقّته؟!».... لم يحدث ولو مرّة واحدة منذ أن تعارفوا على أرض هذه البلاد القصيّة أن رفض اقتراح بينهم، لذلك ما أن انطبقت الشّفتان على أواخر أحرف الكلمة الأخيرة، حتّى اضطربت الأجساد على تباينها، الضّخمة البدينة، والرّشيقة الفتيّة، والهزيلة المتداعية، والريّانة الممشوقة، والتأم الرّكب في غير انتظام، يتقدّمه شخصان أو ثلاثة، قد يليهما شخصان آخران أو أكثر، وهكذا، حتّى يهتزّ الدّرب على وقع أقدامهم الّتي قلّما كانت لا تستحوذ على انتباه أولئك القادمين من وراء الضّفّة الثّانية للمحيط، وأولئك القابعين في استحالة عزلتهم تتعاور أيديهم ذلك الورق الّذي كان يتجدّد في كلّ ليلة... ضحكات الجماعة تشّدهم، حكاياتهم، نكاتهم، أصواتهم الصّاخبة، الرّنّانة المجلجلة الّتي كلّما طرقعت واحتوتها أجواز الفضاء، نسفت في لحظة واحدة تينك الكلمتين النّاشزتين: «أنت وافد!!»....

إنّ ذلك الشّعور بالقرب فيما بينهم، والإحساس الغير معلن بقدريّة العلاقة الّتي تشدّهم إلى بعضهم البعض، والحميميّة الّتي نمت في قلب كلّ واحد منهم، كانت تنمو مع الأيّام، وترسّخت عراها في تلك الأمسيات الدّافئة، مع بدايات الحديث الّتي سرعان ما تتشعّب لتكوّن خليطا من الحكايات الّتي لا تنتهي، والضّحكات الّتي كانت ترقّ وتصفو كلّما مرّ عليهم عام جديد، بعيدين عن التئام العائلة ورائحة الأرض الّتي خلّفوها وراءهم، والأصوات المتنافرة، الآتية من أطراف الحلقة وتخومها راجية أو مستأنسة، أو سائلة في اقتضاب: «هل

تعلمون بماذا طلع علينا إبراهيم هذه الأيّام؟!» فإذا ما نجح في تحقيق هدفه وجلب انتباه الآخرين، زاغ من بينهم مغيّرا مجرى الحديث ليزيد من فضولهم، ولكنّهم لم يكونوا ليعتقوه بأيّ حال من الأحوال، فترتفع أصوات عديدة سائلة في نفس الوقت، سيّما وأنّهم على علم ببعض تصرفّات إبراهيم الشّاذّة الّتي لا يمكن لأحدهم . مهما بلغت رهافة حسّه وحدسه .أن يحزر بعضها.

.هيه، ماذا فعل إبراهيم من جديد؟!

وهنا يتدّخل صوت آخر قائلا:

.هل يكون أفرط في الشّراب كعادته؟!!

ولكنّ صوتا حازما من أقصى الحلقة يردّ عليه معترضا:

.لا أعتقد أنّ إفراطه في الشّراب قد يستدعي كلّ هذا التعجّب والاستغراب، فهو يشرب كلّ يوم تقريبا، ويفرط في الشّراب كلّ يوم كذلك!!

وتحاصر كلّ الأصوات دفعة واحدة، بأسئلتها السّريعة القصيرة المقتضبة، ذلك الصّوت اللاّئب المتمنّع، الذّي كان يعلم سلفا أنّه سيخبرهم بكلّ شيء، وبأدقّ التّفاصيل، ولكنّه كان يؤثر المماطلة حتّى يبلغ بالمتعة أقصى مداها.... كان ذلك الصّوت المشاكس صوت مسعود، النّاطق باسم الجماعة، ومستودع أسرارهم ونمّامهم الّذي لا يضاهى، لا يعزب عنه شيء مهما دقّ، ولا يجدّ حدث، ولو كان تافها، في المدينة الكبيرة، إلاّ ويكون هو أوّل من يسمع به، ولا يسقط شيء في مطبخ أحدهم، ولا يقترض أحد من أحد، ولا يخرج من خرج، ولا يعود من عاد، إلاّ وكان مسعود لكلّ ذلك بالمرصاد، حتّى أنّ عبد العاطي قال مرّة، وهو يبغي بذلك الكيد له عند بعض زملائه في العمل من أهل البلد، على إثر مناوشة خفيفة وقعت بينهما: «صديقنا مسعود على علم بكلّ شيء، حتّى أنّه ليعلم . إذا صحّ عزمه على ذلك . متى يضاجع

كلّ رجل في المدينة زوجته، وكم مرّة يفعل ذلك !!»

قال مسعود باقتضاب بعد أن خيّم السّكون على الحلقة واشرأبّت نحوه كلّ الأعناق في انتظار السرّ الخطير الّذي سيبوح به:

. إبراهيم عا.... شق. إبراهيم عاشق، يا جماعة!!

كان مسعود ينتظر منهم ردّ فعل مزلزلا مدّويا، لأنّه كان يقدّر أهميّة ما قاله وخطورته استنادا إلى الكثير من القرائن القطعيّة الّتي يعلمها الجميع، ولكن خاب أمله، إذ التزم كلّ الأصدقاء صمتا أخرس كاويا، كأنمّا عقلت ألسنتهم المفاجأة الغير متوقّعة.... كان لابدّ أن ينتظر مسعود.... كان لابدّ أن ينتظر لبضع دقائق أخريات، وأن يشرب من نفس الكأس الّتي جرّعهم منها في أوقات سابقة.

في وقت ما، ارتفعت أصوات عديدة في غير انتظام تقول في لهوجة يكتنفها الكثير من الحيرة والاستنكار والتعجّب:

. ماذا قلت؟

. عاشق!

. هذا مستحيل!

. غير ممكن!!

كانت تلك هي الفرصة الّتي انتظرها مسعود بفارغ الصّبر، أن يرى نفسه قطب الرّحى، أن يستحوذ ولو لوقت قصير على كلّ الاهتمام الّذي غالبا ما كانت تتنازعه أطراف وأمور شتّى.... قرّب كرسيّه من النّضد الخشبيّ الكبير وسط الحلقة، واعتمد بيديه على حافّتيه، وهو يروز الجميع بنظرة ذئبيّة جانبيّة، ثمّ تنحنح كآخر خطوة يريد أن يضع بها اللّمسة الأخيرة على انتصاره السّاحق، وقال وهو يرتدّ بعينيه المتلصّصتين نحو إبراهيم الذّي كانت ترفّ على شفتيه ابتسامة رقيقة غامضة، كأنّما يروم تهديده أو طلب الإذن منه:

. هو ذا أمامكم، اسألوه!

ولكن قبل أن يدلي أيّ منهم بدلوه، تدخّل إبراهيم ليحسم المسألة قائلا:

.إذا كنت تعني أنّي أتمنّى أن تكون لي زوجة أخرى بهذا البلد، فهذا صحيح....

ثمّ مواصلا بعد قليل، مخاطبا مسعودا:

.أم أنّك تريد أن تحرمني حتّى حقيّ الضّئيل في أن أحلم كما يحلم كلّ إنسان في كلّ مكان!!

إذ ذاك تدخّل أحمد الذّي كان طوال الوقت صامتا:

.ولكن....

غير أنّ إبراهيم تصدّى له مقاطعا:

.ولكن ماذا؟!

كانت نبرته فيها حدّة، وكانت كلماته قاطعة باترة، لذلك عاد أحمد الذّي كان يعرف بخجله المفرط وطيبته اللاّمتناهية إلى صمته وهدوئه، وقال منيف الّذي كان يجلس إلى يمينه، بلهجة مبطّنة لا تخلو من معنى:

.ولكن أبناءك الخمسة وأمّهم!

أضاف صائب:

.وتلك الشّقّة الملعونة الّتي لم تكتمل بعد، وتشرّدت من أجلها كلّ هذه السّنين العجاف!

وقال أحمد أخيرا لمّا استأنس إلى موجة الهجوم الطّاغية، واطمأنّ إلى سلامة الأرض تحت قدميه:

.واحتمالك ما احتملت!!... شهادة الهندسة الّتي ضاعت وسط ركام الخرسانة، وقذارة الأصباغ، وبقايا البلاط.... والجسد الّذي هزل وترهّل قبل الأوان.... والشّيب الّذي غزا شعرك وفوديك ولحيتك وحتّى شاربك...!!

كلّ ما قالوه كان صحيحا؛ وإبراهيم هو من أخبرهم بكلّ ذلك في

تلك الجلسات الّتي كانت تتكرّر كلّ ليلة حول أكواب الشّاي وفناجين القهوة.... وإبراهيم لا يتوقّف عن الكلام البتّة، وهو يريد أن يحكي دائما؛ وفي كلتا حالتيه اللّتين اعتادوه عليهما، سواء أكان صاحيا أو مثقلا بخمار الشّراب، لا يروق له أن يحدّثهم عن غير والده، فإذا ما استرسل في الكلام وسالت شجونه من بين أطراف الحديث صبّ جام غضبه عليه.... والده الّذي لم يمهله حتّى نهاية عامه الأوّل في هذا البلد فطرد أبناءه الخمسة وأمّهم من البيت ورمى بأشيائهم إلى الشّارع.... لطالما ساءل كلّ واحد فيهم نفسه، أو أعرب عمّا يعتلج بداخله من هواجس إلى أحد أصحابه، كلّما سمع إبراهيم يتحدّث عن والده بتلك اللّهجة الحادّة الّتي لا مهادنة فيها ولا سماحة، سيّما وأنّ جميعهم يعلم أنّ كليهما في شبه مقاطعة تامّة منذ حوالي أربع سنوات، وأنّ العداوة بينهما قد جاوزت مرحلة الإضمار إلى سفور معلن مقيت، وحتّى عندما أشفى والده وجدّ أبنائه على الهلاك واضطرّ إلى القيام بعمليّة جراحيّة أعوزته القدرة على تغطية كلّ مصاريفها، أرسل إليه إبراهيم رزمة من الأوراق النقديّة في مغلّف مختوم بالشّمع الأحمر مع أحد أصدقائه دون أيّ تعليق من أيّ نوع، اللّهمّ إلاّ ما كان من كلمتين نطقهما بحزم من بين شفتيه الرّقيقتين الثّابتتين: «إنّه واجبي !!» لطالما تساءل كلّ واحد فيهم، بينه وبين نفسه، أو ألقى السّؤال على بعض أصدقائه: «ما هو العقاب الّذي لا يمكن أن يتمنّاه إبراهيم لوالده؟!»، وما أسرع ما جاء الجواب، ومن إبراهيم نفسه إذ قال لهم ذات مرّة وقد استبدّ به الغضب، وأدركه وهن وقهر:

.لو كانت نارا لألقيت بها عليه أو لألقيت به بين أتونها!!

كان إبراهيم حادّا في كلامه، تعلو طبقات صوته كلّما جاشت مشاعره واضطربت أحاسيسه، وترتسم علائم الغضب على سحنته الكامدة الّتي سفعتها شمس هذه البلاد، ولكنّه في المقابل، كان طيّبا بريئا، سرعان ما يترجم لسانه عن نوايا قلبه المضمرة، وكان الأصدقاء

جميعهم يعرفون هذه الحقيقة، وقد انتهوا إليها فيما يشبه الإجماع التّامّ مع نهاية الأشهر الأولى الّتي قضوها معا قريبين متلازمين، كلّهم، دون استثناء، يقرّون هذه الحقيقة، بمن فيهم شلهوب الأسمر، الجبليّ القادم من بين الأحراش والسّفوح، يحمل شاربا كثّا ولحية مسترسلة وعوينات طبّيّة، وتاريخا سرّيّا، قال عنه مسعود مرّة مازحا:

.إنّه تاريخ طويل مع الشّيطان!

وعندما كانت العبارة ملتبسة وغيرواضحة، فقد حاصرته الأسئلة والاستفسارات من كلّ مكان داخل الحلقة، إذ ذاك قال بنفس لهجته الخبيثة المعتادة:

.السّرّ في تلك البطن العظيمة!!

ما عتمت أن دوّت ضحكات عربيدة مجلجلة اهتزّ المكان لوقعها إلى درجة أنّ كلّ الرّؤوس المنكبّة على ورق اللّعب إلى اليمين أو تلك المشرئبّة بأعناقها نحو شاشة التّلفزيون قد التفتت جميعها وقد ارتسم على وجناتها حيرة كبيرة وغير قليل من الاستنكار.

قال محمود متهكّما، وقد دوّت في حلقه ضحكة عظيمة سرعان ما تحوّلت إلى ابتسامة ذاوية غبيّة على شفتيه اللّتين حالتا واصفرّتا جرّاء التّدخين:

.ماذا تقصد؟

حينئذ، لاب مسعود بعينيه هنا وهناك، مدّققا ومتفرّسا، وحينما اطمأنّ إلى سيطرته على الموقف كاملا، في تلك الأفواه الشّبه فاغرة، والانشداه في تهدّل تلك الشّفاه وانحراف العيون، قال مداعبا:

.أقصد أنّ الشّيطان قد استوطن بطنه وعشّش فيها!!

قال عبد الله .وكان لجوجا نافد الصّبر.، وهو يريد بذلك أن يضع حدّا لهذه المهاترة الكلاميّة:

.كفاك إلغازا أيّها الثّعلب، وقل لنا ماذا تعرف عن شلهوب؟!

سؤال وجيه...!! إذ لا أحد يعرف شيئا عن شلهوب، ولا أحد

يستطيع أن يقول على وجه التّحقيق إنّه من مدينة كذا، كما أنّ محمودا مثلا من جبيل، وإبراهيم من بيروت، وعبد الله من صيدا، وعبد العاطي من صور، ومسعود من الجنوب؛ عصبة يجمعهم نفس الانتماء وتتجاذبهم نفس الأرض، ينأون، ولكن حتّى في نأيهم وبعدهم يهرّبون امتدادهم في شغاف قلوبهم ويوصدون عليه بالضّبّات والمراتيج. فما بال شلهوب؟! هذا الغامض كغموض عويناته الطبّيّة، والملغز كإلغاز عظم بطنه!! ربّما الشّيء الوحيد الّذي يعرفونه . وحتّى هذه المعرفة لا يمكن أن ترقى إلى حدود اليقين . أنّه من نفس بلدهم، من هناك، من رحلة الأميال البعيدة، ولعلّ ما دعاهم إلى هذا الاعتقاد أنّه يتكلّم نفس لهجتهم، يستعمل نفس مفرداتهم ويورد أحيانا بعض نكاتهم.... غير منتظم في حضور الجلسات، وإذا ما حضر فيكون دائما متأخّرا عن الموعد المعتاد، صموت، منغلق الأسارير دائما، إذا تكلّم فبقدر، ليسأل عن شيء لا علاقة له بسياق الحديث، ولا وجود له إلاّ في مخيّلته وتهويماته اللاّمتناهية، وإذا ما استغرق، فقد تمرّ عليه ساعات وساعات ليستعيد وعيه من جديد ويلتئم مع شمل الجماعة المحيطة به، حتّى أنّه قد يحدث أحيانا أن يثوب إلى نفسه، فلا يجد أحدا بجواره، ويروز المكان من حوله فلا يجد له جليسا غير بقايا الفناجين والأكواب على النّضد، ومحمّد ووحيد، النّادلين المصريّين، وهما يجلسان على مبعدة منه، يترقّبان مغادرته بفارغ الصّبر ليغلقا أبواب القهوة!! كان هو الوحيد الّذي لم يفكّر أيّ واحد من الأصدقاء أن يعوده أو يزوره في شقّته بالطّابق الثّاني من العمارة رقم ١، ولم يكن ذلك بدافع من بعد الشّقّة وتنائي المسافة، ولكنّ السّبب كما أجمله مسعود، ودائما بنبرته المتاخبثة ولهجة لا تخلو من التّبطين:

. أقسم أنّه لا يمكن لأحد منكم أن يجزم فيما إذا كان شلهوب موجودا في شقّته أم لا... وحين يقاطعه أحدهم سائلا:

.وهل هو الرّجل الخفيّ الّذي طالما سمعنا عنه ورأينا صورته على

شاشات التّلفزيون؟

فإنّه يتصدّى للمجابهة والمدافعة قائلا:

.أقسم أنّه نموذج فريد للرّجل الخفيّ في هذا العصر، هو أوّل بلا آخر، وآخر بلا أوّل، تحسبه في متناول يدك، وهو أبعد إليك من جزائر الدّنيا السّبع... وهنا قد يتدخّل أيّ واحد منهم قائلا:

.ماذا تريد أن تقول؟! هات ما عندك وخلّصنا من مداورتك الّتي لا تنتهي!

فيواصل متجاهلا كأنّ أحدا لم يقاطعه:

.أقسم أنّي الوحيد من بينكم الّذي تجشّم عناء زيارته؛ ولكنّي كلّما ضغطّت زرّ جرس شقّته أسمع أصواتا في الدّاخل ولا يجيبني أحد...

سأله إبراهيم متضاحكا:

.قد تكون تلك أصوات جنّة أو شياطين!

وهنا لا يتمالك مسعود نفسه من الانفعال، ويقول بجدّيّة ظاهرة ربّما لأوّل مرّة منذ تأسّست جلسة المساء اليوميّة:

.ولماذا تضحك؟! بلى! إنّها ليست أصواتا آدميّة ولا يمكن أن تكون كذلك...

.لماذا؟

قاطعه عبد الله سائلا.

فقال:

.لديّ دليل، وهو دليل قاطع لا يحتمل الرّدّ؛ مرّة ضغطّت الزّرّ وانتظرت، ثمّ ضغطّته ثانية، فلم يجبني أحد، وفي كلّ مرّة أسمع تلك الأصوات... الأصوات الغريبة نفسها؛ ثمّ لا أدري لماذا خطرلي أن أحاول مع الباب لعلّه يفتح، وبالفعل فقد أدرت قبضته وما راعني إلاّ وهو ينقاد بيسر وسهولة... كانت تلك المفاجأة الأولى؛ وأمّا المفاجأة الثّانية فتلك الأضواء المشتعلة في كلّ مكان، ولا أحد بالشّقّة كأنّ أصحابها قد هجروها دون رجعة... ثمّ صمت قليلا ريثما شفط من سيجارته الّتي

ذهب نصفها، وعاد يقول:

. بحثت داخل الشقّة غرفة غرفة، فلم أجد أحدا؛ وكان الشّيء الوحيد الّذي ما انفكّ يحاصرني أينما رحت هي تلك الرّائحة...

. أيّة رائحة؟!!

انطلق الجميع يسألونه في صوت واحد.

. رائحة نفّاذة قويّة، تتفاوت درجة حدّتها من غرفة لغرفة... تشبه رائحة خمور عتيقة، تبعث فيك من النّشوة بقدر ما تبثّ فيك من القرف والاشمئزاز... وجدت نفسي أهفو إليها ولا أهفو إليها، أريدها ولا أريدها...

قال إبراهيم مستفسرا، ثمّ تبعه عبد العاطي وأحمد وبقيّة الجماعة:

. ألم تسأل نفسك أين ذهب شلهوب؟

فأجابهم :

. بلى! حتّى أنّي قد ناديته باسمه مرّات ولكن دون فائدة... وخطر لي أنّه قد يكون في الحمّام، فاتّجهت صوبه وفتحته... كان باب الحمّام مفتوحا ولا أحد هناك...

أشعل سيجارة جديدة جذب منها أنفاسا متتابعة، ثمّ واصل قائلا:

. عندما خرجت، كانت الرّائحة ما تزال تتبعني؛ وحينما نزلت درجات السّلّم واستقبلني فضاء المكان المحيط بالعمائر بدا لي وكأنّ شقّة شلهوب بالطّابق الثّاني تتمايل وتترنّح كأنّها سكران قد أفرط في الشّراب !!!

مرّ على ذلك الحديث بالمقهى، الآن، أسبوع، ثمّ تلاه أسبوع آخر، نسي خلالهما الأصدقاء شلهوبا أو كادوا، لا يذكر أحدهم اسمه إلاّ عرضا، فإذا ما انتظمت وتيرة الحديث، وتتابعت الحكايات، عاد الاسم ليقبع من جديد في تلك المنطقة المظلمة في مخيّلة كلّ واحد فيهم، إلاّ

مسعودا... كان هو الوحيد من بين الجماعة الّذي أقلقه هذا الغياب وأمضّه، أسبوع وشلهوب لم يأت، بل أسبوعان كاملان؛ صحيح أنّه كان يتأخّر، ولكنّه يأتي في موعده اللّيليّ دائما؛ وصحيح أنّ مسعودا يحلو له في كلّ الأوقات أن يسلق كلّ واحد منهم بلسانه، وأن يجعل منه موضوعا للتّندّر والسّخرية، ولكنّه في المقابل كان سليم الطّويّة، حسن الظّنّ بالنّاس، يؤلمه منظر أحدهم وهو يتألّم، ويخاف على كلّ فرد من أفراد المجموعة خوفه على نفسه، ويحدب على كبيرهم وصغيرهم حدبه على أحد أبنائه، لذلك قال في مطلع الأسبوع الثّالث وقد التأم شمل الجماعة:

.شلهوب أمعن في الغياب، يا جماعة، وليست هذه عادته!

قال إبراهيم :

.قد يكون المانع خيرا!

ولاحظ عبد العاطي الجدّيّة الغير متوقّعة البادية على محيّا مسعود فأراد مشاكسته ليدخل جوّا من الحيويّة على الجلسة:

.إذا غاب شلهوب كلّ هذه المدّة، فلا بدّ أن يكون في انسجام تامّ مع الشّيطان...

إلاّ أنّ مسعودا قاطعه قائلا بحدّة:

.ليس هذا وقت مزاح... إنّ شلهوبا ليس موجودا في شقّته!

قال أحمد:

.قد يكون في مكان ما من المدينة!

ولكنّ مسعودا ردّ بتأكيد لا يحتمل المراجعة:

.ولا في المدينة أيضا!!

حينئذ، سأله الجميع بصوت واحد، وقد بدأ يتسرّب إليهم قلق وخشية وتحسّب:

.وكيف عرفت؟!!

قال:

. بحثت في شقّته... كانت كأنّ أحدا لم يدخلها منذ شهور... الأضواء مشتعلة... القذارة في كلّ مكان... وتلك الرّائحة النّفّاذة... دخلت كلّ غرفة من الغرف المهجورة المفتوحة وبحثت، وبعد جهد عثرت على شيء...

وتوقّف لحظة تطلّع خلالها إلى تلك الوجوه المشرئبّة نحوه ليرى ردّة فعل كلامه على سحناتها، ثمّ واصل قائلا:

.لم يكن ذلك الشّيء في الحقيقة سوى صورة!!

.أيّة صورة؟!!

قال إبراهيم في استغراب.

.لعلّها تكون صورة أحد أبنائه.

قال أحمد.

.أو صورة زوجته.

قال محمود.

ولكنّ مسعودا قال أخيرا ليضع حدّا لكلّ تخميناتهم:

.لا هذا ولا ذاك... لقد كانت الصّورة صورة راقصة.

كانت المفاجأة كبيرة إذ عمّت الجلسة للحظة حالة من الاضطراب والفوضى، وتعالت موجة من التّساؤلات، ختمها عبد العاطي مستفسرا:

.وماذا فعلت بها... أقصد الصّورة؟!!

فقال مسعود:

. أخذتها إلى الشّرطة... كانت الصّورة لراقصة الكباريه اللّيليّ وسط المدينة، وقد استدعتها الشّرطة، غير أنّها نفت كلّ علاقة لها بشلهوب، وأكّدت في يقين أنّها لم تعط صورتها أيّ أحد من النّاس، كما أنّها لم تكن تسمح بالتقاط أيّة صور لها...

قال إبراهيم يسأله من جديد:

.وهل أطلقت الشّرطة سراحها؟

قال مسعود:

.لم تثبت إدانتها فأطلقوها، وسألوا صاحب الكباريه عن شلهوب فأكّد أنّه لايعرف شخصا بهذا الاسم.

.وماذا فعلت بعد ذلك؟

قال مسعود:

.اتّصلت بكلّ المستشفيات وأقسام البوليس... وبحثت عن اسمه في صفحات الحوادث بكلّ صحف البلاد، ولكن دون فائدة، كأنّ الأرض قد انشقّت وابتلعته...

وأضاف بعد لحظة صمت:

.لقد كنت أعود في كلّ مرّة إلى شقّته، فأرى الأنوار مضاءة، رغم أنّي كنت أحرص على إطفائها كلّما خرجت، وأسمع نفس تلك الأصوات النّائية الغيرآدميّة غيرالآدميّة، وأرى تلك القذارة... وأشمّ تلك الرّائحة الّتي ما فتئت تزداد نفاذا وحدّة.

قال محمود:

.في جبيل، يقولون إنّ بعض نساء الجنّ قد يعشقن رجالا من الإنس فيختطفنهم، فهل يكون شلهوب ضحيّة إحداهنّ؟!!

فقال مسعود بحياد وهو ينظر صوب نقطة غير مرئيّة في الأفق:

.من يدري؟! من يدري؟!

٣.عن الحبّ [هذلــة]
صور في ٢٠٠٠/١١/٢٦

[الرّاوي]:

لم أحسّ من قبل أنّي محبط ونزق كما أنا اليوم.... أحاول أن أنام ليلا، فيجافيني النّوم، فإذا ما خارت قواي وهمدت أخيرا، وأحسست بذلك الخدر اللّذيذ الذّي يبشّر بلحظات الكنّ والضّياع، داهمتني الكوابيس من كل جانب، وأغرقتني في حمىّ الرّعب والأخيلة.... لا شكّ أنّ هناك سببا ما لكلّ ذلك، وربّما يكون هناك أكثر من سبب، ولكنّي لا أرغب في الخوض في ذلك، على الأقلّ الآن.... الغرفة، غرفتي الّتي أنا فيها، أشعر أنّها لا تسعني، بل الشّقّة، الشّقة كلّها أكتشف فجأة أنّها أصغر بكثير ممّا كنت أتوقّع.... غرفتا النّوم، والصّالة الكبيرة الّتي تفتح على الشّارع وباقي العمائر، والمطبخ ودورتا المياه، وكذلك الرّواق الطّويل الذّي يذكّرني صمته وسكونه، وكذلك ظلمته المطبقة بسكون غرفتي الصّغيرة وظلمتها، تلك الغرفة الّتي خلّفتها ورائي بغير قليل من الحسرة والحزن.... أكثر من عشرين عاما أودعتها هناك، وأكثر من ذلك بكثير، من الحسرات والآمال المحبطة، والرّغائب التّي لم تتحقّق، والخوف من مجهول ما، وصحبة الموت، وذكريات الماضي الذّي لم أعرف منه شيئا، سوى أنّي فقدت فيه والدتي الّتي لم تجاوز الخامسة

والعشرين، وجدّي أبا النّجا الّذي نيّف على الثّمانين، كلّ ذلك حفرت له عميقا وردمته هناك؛ كنت أخاف أن أهرّبه معي في رحلة الأميال الطّويلة فأتعذّب به، وأعذّب به غيري.... فؤاد. صديقي. شابّ طيّب وهادئ ، نادرا ما يغضب، فإذا ما غضب، فقطعا يكون ذلك بسبب شيء لا علاقة له بي، معاشرته سهلة، لا تتبادر إلى ذهنه الشّكوك، ولا يلجّ في السّؤال فيما يتعلّق بأشيائنا المشتركة؛ أخاف أن أزعجه، ولا أريد أن أحمّله همّا آخر فوق همومه الّتي لا شكّ أنّها تؤرّقه: أسرته، خطيبته، وعلاقاته الّتي يحرص على استمرارها هناك، في ذلك البلد البعيد، وراء المحيط.... أنا حزين! أنا حزين!!

[حوليّات صوريّة]:
.* كلّ يوم :
السّبت صباحا/
السّبت ظهرا/
السّبت مساء/

حيّا الله.... كيف أخبارك.... (شن علومك)..... يدبّ اليوم بطيئا.... الشّوارع مقفرة أو شبه مقفرة.... وحده القرص البنفسجيّ يأتلق في سماء الصّباح المبكر.... اليوم ككلّ يوم.... الأحد، أو الاثنين، أو الثّلاثاء، أو الأربعاء، أو الخميس.... أو الجمعة.... السّيّارات الكثيرة الّتي تظلّ رابضة إلى وقت متأخّر من اللّيل في الباحات المكشوفة، تتأخّر كذلك في إقلاعها المعتاد في اليوم التّالي.... والأشخاص الّذين يلتئمون على أنفسهم في أبهاء المقاهي الخارجيّة، حول تلك النّضد الخشبيّة، يشربون أقداح الشّاي ويسترسلون في حكاياتهم الّتي لا تنتهي، وإذا

ما جاعوا يشيرون إلى النّادل فيأتيهم بتلك الأكياس الصّغيرة الّتي تحوي ذلك العدد الّذي لا ينقص ولا يزيد من السّندويشات، أولئك الأشخاص يخيّل إليك للحظة إذا رأيتهم بعد ذلك يوالون المجيء إلى تلك المقاهي، ويستمرّون بها حتّى السّاعات الأولى من الصّباح، أنّهم لا يحملون ماضيا وراءهم، منبتّون، لا يملك أحدهم سوى السّيّارة الّتي يدرك سلفا أنّها ستحمله في نهاية السّهرة إلى مكان لا يعلمه سواه.... ربّما الفندق الرّابض في مدخل صور، أو الفندق الآخر، المتباعد، الجاثم في سكون عزلته، على المشارف البعيدة المؤدّية إلى اللاّمكان، أو البحر، أو الظّلال، أو ربّما شبح امرأة متعثّرة في سواد عباءتها، أو ربّما بيت له فيه زوجة وأولاد وانتماء.... لا تستغرق كثيرا حتّى تعرف عدد أولئك الأشخاص؛ انظر فقط إلى تلك السّيّارات المركونة في فوضى، كيفما اتّفق، وستحزر فورا عددهم، كما تستطيع أن تحزر عدد زوجات أحدهم بمجرّد إلقاء نظرة على حجم المنازل أو القصور الّتي تعجّ بها مدينة صور العفيّة....

[أوّل البدء]:

المدخل.... لا شيء أكبر من البحر.... وهو ليس بحرا، على كلّ حال.... محيط لامتناهي الامتداد.... لا شكّ أنّ وراءه تستسلم عشرات البلدان لهدأة السّكون.... السّؤال ذاته.... يتكرّر.... يعاد.... ودائما بصيغ مختلفة: «هل زرت الهند؟!!».... «لا، لم أزرها!».... «وهل تنوي زيارتها؟».... «نعم !!».... «متى ؟!!» ويظلّ الاستفهام الأخير معلّقا، يكتنفه فراغ من فوق وآخر من تحت.... يا اللّه!! كم كان البلد، بلدك البعيد، صغيرا وكبيرا؛ صغيرا إذا قارنته ببلدان أخرى أكبر منه، وكبيرا

إذا قارنته ببلدك الجديد، وأكبر إذا تحقّقت معالم المدينة الّتي تقيم بها الآن.... الدّكاكين الّتي صرت تعرفها كما تعرف راحة يدك، الشّوارع المبذولة أمامك في وضوح، المنارة الّتي تشمخ بطولها فيما وراء الميناء كإله وثنيّ يعروه كبر وعنجهيّة، السّواد الّذي صار مقترنا في ذهنك بلون النّساء، الكلاب القليلة الّتي لا تهاجمك ولا تنبح إذا ألفتك مارّا أمامها.... ترى كم عمر هذه الرّائحة؟ ما مصدرها؟.... هل هي نفس الرّائحة الّتي كان يحملها البحّارة والمغامرون إلى الهند وسومطرة؟ أم هي نفس الرّائحة الّتي كانوا يجلبونها من هناك.... ويضيفون إليها من أرج العود والبخور الشّرقيّ؟!.... هل هي نفس الرّائحة الّتي كان يحرص أحمد بن ماجد أن يضوع بها كلّ فرد من أهل بيته؟ أم هي رائحة أخرى لا تعرف لها اسما، ولا تدري كيف تعيها أو تفهمها؟!!...

[اعتراف]:

لماذا أحسّ هذه المرّة أنّ الكلمات تزوغ منّي؟! لماذا تخونني الرّغبة في الكتابة؟ لماذا تنهار صورة هذلة في ذهني رغم جاذبيّتها وطغيانها؟!... لقد كانت هذه المرّة الأولى الّتي يغريني فيها مثل هذا الشّعور، كما أنّها المرّة الأولى أيضا الّتي أنسى فيها تماما أنّني كنت دائما أكتب من أجل المال، وأنّ المال كان هو ما يدفعني أن أكون لامعا ومشهورا.... كثيرا ما كانت تحاصرني الأسئلة من قبل، أسئلة شتّى، بلا حصر، عن الرّغبة والشّهرة، والغايات، وقيمة الحياة، وفناء الموت، إلاّ أنّي كنت أتجاهلها جميعا بالاستغراق في النّسيان، أو بالأحرى في الكتابة.... لقد كنت في الحقيقة أجيب عن تلك الأسئلة فيما كنت أكتبه، ولكن بطرق غير مباشرة، ومهما حاولت أن أحيد قليلا أو أبدع صورا جديدة، أو أخترق

مألوف العادة، أجدني في النّهاية، أتمرّغ في وحل تلك الأسئلة الّتي لا تنتهي.... أين تلك الأسئلة الآن؟!! أين الرّغبة الطّاغية في افتضاض عذريّة الكلمات الّتي لم تطمث بعد؟!! هل تستطيعين أنت، يا هذلة، أن تجيبي عنّي، وتخلّصيني من كلّ هذه الحيرة؟!! هل تستطيعين، أيّتها الجميلة، أيّتها المتسربلة بلألاء مفاتنك القصيّة، أن تعيدي إليّ ما نفر من شتاتي؟! هيهات.... هيهات!!

[هذلة]:

الجميلة.... الفاتنة.... الرّشيقة.... البحريّة.... الدّافئة.... العابقة بكلّ روائح الزّهور والعطور.... الهفهافة.... الضّاجّة.... المغرية.... هذلة عبق العود والبخور، وذكريات أربعة عشر قرنا عفت بين الأضابير والصّفحات، ولكن تحملها أمواج البحر بين طيّاتها، وتلقي بها إلى الشّاطئ النّديّ الطّريّ.... تمنّيت لو أقول فيك أكثر، لو أغازلك كما غازل الشّعراء المدنفون حبيباتهم في عشرات القصائد، لو أتطلّع إلى مرمى عينيك الكبيرتين الحالمتين.... السّوداوين، وأغرق فيهما، وأنام، وددت لو كنت طائرا فأحملك على جناحيّ إلى مدني الأثيرة، وأحلّق بك فوق قباب بغداد وقصور الرّصافة، لو نعبر النّهر سويّا إلى حصون بخارى، وأسواق سمرقند، وأسوار خوارزم، ولكن....

[اعتذار]:

هذلة،
أيّتها الملهمة _
لا يملك الرّاوي،
سوى الاعتذار!!
في البدء، كانت هذلة..... وفي المنتهى!!

[مدخل أو عتبة]:

أنا هذلة:

لماذا أنا هذلة، ولست شخصا آخر! لو كان الأمر بيدي لاخترت أن أكون نجلاء، أو نهلة، أو سوسن.... أو شهرزاد، أو لبنى.... أو عزّة!! لطالما أغرتني صورة أولئك النّسوة الملغزات اللّواتي قرأت عنهنّ في أمّهات القصائد، وتمنّيت لو كنت واحدة منهنّ، أنام بين يدي امرؤ القيس، وأصحو على همسات عمر بن أبي ربيعة، وآهات عنترة القلقة.... كنت أعيش بين الكتب، وكانت أكثر هذه الكتب دواوين من الشّعر حرصت والدتي على جلبها معها عندما تزوّجت من والدي، وغادرت فلسطين وجاءت لتعيش معه هنا، في بيتنا العائليّ بمدينة صور.... أذكر أنّ والدتي قالت لي يوما، وكنّا وحدنا بالبيت، إذ كانت تتجنّب الحديث في حضور والدي: «كانت أمنيتي أن أسمّيك جنان، وعندما قدم والدك إلى البيت، وقال إنّه سمّاك هذلة، أحسست كأنّ أحدا قام بغرز آلاف الأسياخ في صدري.... استشعرت غضبا طاغيا، وحسرة كاوية، ولكنّي لم أقل شيئا «.... كانت والدتي غاضبة، وهي تقول ذلك، وكان غضبها يتلاشى شيئا فشيئا وسط هالة شفيفة من النّدم والحزن.... ظلّت

صامتة لبعض الوقت، وقد ألمّت بها سنة من الشّرود، وعندما انتبهت إلى وجودي بقربها، قالت كالمعتذرة: «كنت دائما أرسم صورة لفارس الأحلام في ذهني، وعندما قابلت والدك أوّل مرّة اعتقدت للحظة أنّه ربّما يكون ذلك الفارس، ولكن بعد الزّواج اتّضح لي أنّه مجرّد نسخة له.... وهي في كلّ الحالات نسخة رديئة أشبه بالمسخ !!».... والدتي هي من زرع ذلك البرود العجيب تجاه والدي في قلبي، وقد تحوّل ذلك البرود مع الأيّام إلى لامبالاة أقرب إلى الكره أو المقت.... كانت دائما تتحدّث عنه بقسوة، تشتمه في بعض الأحيان، ولا تحاول أن تخفي ذلك أمامي، وربّما كانت تفعل ذلك عامدة، حتّى إذا ما فقدته يوما اكتسبتني إلى صفّها للأبد.... وهي كما ألّبت ذلك الشّعور في نفسي ضدّ والدي علّمتني أن أحيا بالكتب وللكتب، تحرص دائما أن تجلب لي رواية أو ديوانا من الشّعر، وقد يحدث في بعض المرّات أن أحتجّ فأقول لها: «إنّي لم أنه الكتاب الّذي أعطيتنيه من قبل بعد!!» فتعانقني، وتهمس في أذني متضاحكة: «لا يهمّ، سيكون لديك متسّع من الوقت لتقرئي كلّ الكتب الّتي جلبتها لك «.... كانت والدتي تحبّ أن تقرأ بصوت عال، وكان صوتها أشبه بصوت عندليب، فيه من السّحر بقدر ما فيه من الشّجن، فإذا ما أحسّت بالتّعب أو ذهبت لتقوم ببعض شؤون البيت، ناولتني الكتاب وطلبت إليّ أن أواصل القراءة من حيث أنهتها.

[مقام أوّل]:

البحر يحاصر المدينة من ثلاث جهات، أمّا الجبل فيحاصرها من جهاتها الأربع.... منظر البحر في اللّيل أجمل، وربّما هو جميل لأنّك لا

تراه، وإنّما تسمع وشيشه فحسب، وتعلم أنّ مع كلّ وشوشة تسحب موجة صغيرة أذيالها نحو الشّاطئ حيث تقبع على مبعدة، وراءك أنوار المدينة، وأمامك، في الأفق البعيد على الضّفّة الثّانية من المحيط، تتجلّى لعينيك الجزائر السّبع، ومفاتن سرنديب، وحكم المهراجا السّعيد، كما لو كانت تطالعك من بين ثنايا حكايات ألف ليلة وليلة.... حسبت أنّ البحر سألك، فقلت حتّى من قبل أن تعي السّؤال، وحتّى من قبل أن تدرك فيما إذا كان البحر قد سألك فعلا أم لا: «لم أتمنّ قطّ أن يكون موطني وراء سكون هذا المحيط، رغم أنّي كنت أحلم دائما بما وراء المحيط، وأعشق أسرار المحيط.... وسحر المحيط!!».... ٢٨ أيلول ٢٠٠٠، الطّائرة تحط أخيرا على أرض المطار، تحتكّ عجلاتها القويّة بالممرّ الممهّد المسفلت، يفتح الباب، ومن الباب تدلف سخونة غير معتادة، تختلف عن حرّ تلك المدينة الّتي أحببتها لا لشيء إلاّ لأنّها مدينتك ومسقط رأسك، الحرارة هناك أيضا قويّة، وفي بعض الأحيان تتجاوز الأربعين، تتجاوزها بكثير، غير أنّ سخونة المطار مشبعة برطوبة لا تحتمل.... ظلمة.... ظلمة وسكون.... يقف على الجانب الآخر.... طويل نسبيّا.... نحيف إلى درجة الهزال.... يرتدي قميصا ضيّقا قصير الأكمام وسروالا، ويرسم على شفتيه الرّقيقتين الكامدتين ابتسامة قيصريّة، هي مؤشّر ابتداء مراسيم الوصول.... صافح الجميع واحدا واحدا، وفي كلّ مرّة يلقي ببعض الكلمات القصيرة المقتضبة الّتي لا تكاد تتغيّر إلاّ فيما ندر.... سار فانطلق الرّكب وراءه.... كانت الأشياء وحاجات السّفر تنتظر في بهو المطار.... توقّف عند واجهة نصف زجاجيّة.... في الدّاخل موظّفة ترتدي حجابا وفستانا طويلا، وتجلس على كرسيّ أمام حاسب إلكترونيّ، وإلى جانبها من جهة اليمين، موظّف بالزّيّ المدنيّ، ينتقل بين الأرفف العديدة، لا يكاد يهدأ إلاّ ليواصل التّنقل من جديد!!

قال الطّويل النّحيف الّذي صافحنا واحدا واحدا مخاطبا

الموظّف المدنيّ:
.من فضلك نريد أصل تأشيرة الدّخول!

[لحظة انتفاء]:
٢٩ أيلول:

أنا وحدي بالبيت، لا رفيق لي سوى ذكريات الخريف الحزينة؛ والدتي غادرت منذ الصّباح الباكر، دون أن تنبس بكلمة.... صارت هذه عادتها منذ عدّة أسابيع، لا تتحدّث إلاّ نادرا، فإذا ما فعلت ذلك، فلتخاطب شخصا ما في مكان غير منظور.... آلمني ذلك كثيرا، وضاعف من شعوري بالوحدة والوحشة، وقد أدركت أكثر من أيّ وقت مضى أنّه كتب عليّ أن أقضي بقيّة عمري وحيدة، منبوذة، محاصرة بجدران البيت العزلاء، وفحيح الظّلمة والصّمت.... هل كانت هذه والدتي الّتي عرفتها وعاشرتها منذ صغري؟ هل هي نفس المرأة الّتي علّمتني أن أحيا؟ وأن أختار؟! هل هي الّتي كانت تحرص أن تحافظ على صورة المرأة القويّة أمامي رغم إحساسها بالقهر والانتفاء حيال والدي؟!!... لكم أحزنني أن أفتقد حضورها بجانبي، وقربها منّي، وهي تدنيني من حضنها، وترنو إليّ مليّا، ثمّ تقبّلني وهي تقول بصوتها العذب الّذي طالما هزّتني بحّته الفاتنة: «أنت أجمل فتاة، يا صغيرتي!!».... ثمّ ترنو إليّ ثانية، وقد تألّقت بعينيها دمعتان كبيرتان، وتضع كفّيها النّاعمتين على كتفيّ وتضغط عليهما بحنان، وتقول أخيرا بنبرة تكتنفها الحسرة: «ما أسعدني بك، يا جناني!!... كنت هذلة في اعتقاد والدي فحسب، وكانت مناداته لي بذلك الاسم مبعث افتخار ونخوة، ما أسهل ما كنت ألمسهما في ابتسامته السّاخرة، وحركات يديه القاسية المتسلّطة. أمّا والدتي

فكانت تتجاهل اسمي تماما، وتتصرّف كما لو كانت هي من سمّاني وقام بتسجيل اسمي في سجلاّت الحالة المدنيّة.... لا أذكر أنّها نادتني هذلة قطّ، وكانت تحرص أن لا ينزلق الاسم من بين شفتيها، ولو كان ذلك سهوا، حتّى أنّي خلت في وقت ما أنّ والدتي المسكينة كانت تبذل جهدا إضافيّا كي تختار كلّ الكلمات الّتي تفوه بها، وكان ذلك، دون شكّ، يضيف إليها عذابا كاويا فوق عذاباتها القديمة.... لذلك كرهت الاسم أنا أيضا، وكلّما سمعت والدي يناديني به، تضاعفت نقمتي على نفسي، وعلى والدي على حدّ سواء، وبقدر ما آذاني اسم «هذلة» يلفظه والدي كدليل على السّيطرة المطلقة والسّلطة الّتي ليس لها حدود، راقني اسم «جنان»حتّى أنّي كنت في بعض الأحيان أتصرّف كما لو لم يكن لي اسم غيره.... ولكنّ ذلك لم يكن يمنعني أن أمازح والدتي كلّما سمعتها تناديني جنانا، فأقول لها مداعبة: «لا تنسي أنّ اسمي هو هذلة وليس جنانا!!» فتغضب كثيرا، وتشيح عنّي بوجهها قائلة: «ستظلّين جنانا في نظري، رغم أنف والدك.... وأنف العالم إذا اختار أن يقف إلى صفّه!!».... هذا الإصرار المدمّر الّذي اصطبغت به شخصيّة والدتي، وهذا العناد الّذي لم أعهده في أنثى غيرها، والعدوانيّة الّتي صارت ديدنها، ليس حيال والدي فحسب، وإنّما حيال الجميع، حتّى أقرب النّاس إليها، بمن فيهم أنا، سيّما إذا اختلفت معها في شيء ما، ولو كان ذلك عن حسن نيّة، وعن غير قصد، كلّ تلك الصّفات إنّما حلّت محلّ صفات أخرى ربّما كانت نقيضها تماما، وهذه حقيقة لا أستطيع إثباتها بنفسي، وهي أكبر منّي بكثير، لأنّي منذ أن أصبحت أعي الأشياء من حولي، لم أعرف والدتي إلاّ شكسة، نزقة، مستعدّة للهراش، وإنّما توصّلت إلى تكوين صورة متكاملة عنها من خلال بعض الجيران، ولا سيّما السّتّ زهوة الّتي كانت كثيرا ما تزورنا رغم علمها بالعلاقة المتوتّرة بين والديّ، وقد حاولت مرارا أن تزيل الفجوة بينهما، متوخّية الشّدّة أحيانا، واللّين في الكثير من الأحيان، ولمّا يئست منهما أخيرا، لم

تنقطع عن زيارتنا، وإنّما والت روحاتها إلينا، لا لشيء إلاّ لتسرّي عنّي، وتؤنسني في وحدتي.... هذه المرأة، هذه المكتهلة الّتي عرفت طريقها إلى قلبي بيسروسهولة، هي من حسم ذلك الصّراع الّذي أعيشه بداخلي، وذلك التّشتت والتّمزق بين عاطفتي الأبوّة والأمومة، لصالح والدتي أخيرا، وضاعف امتناني حيالها أضعافا مضاعفة.... ربّما لم أكن في الحقيقة في حاجة إلى من يزكّي والدتي في نظري، ولكنّه على كلّ حال ذلك الشّعور بالتّعاطف الّذي يجعلك ترغب دائما أن تسمع كلمات الإطراء وعبارات التّبجيل تتردّد وتقال فيمن تحترم وتحبّ.... لقد كانت السّتّ زهوة، وهي تتحدّث عن والدتي، تبدأ كلامها بعبارات قصيرة مختصرة: «والدتك، يا ابنتي، امرأة عظيمة!!».... ثمّ تصمت قليلا ريثما تتطلّع إلى محيّاي لترى ردّة كلامها على صفحته، ولمّا تطمئنّ إلى اهتمامي وفضولي اللّذين لا شكّ أنّهما ارتسما بطريقة ما على وجهي، ونجحت عيناها الثّاقبتان المكتهلتان في رصدهما، تواصل قائلة: «كانت والدتك الوردة الّتي نشرت عطرها وأرجها في جميع أرجاء الحيّ عند زواجها.... لم ترغاضبة قطّ، وقد كانت ابتسامتها العذبة تتألّق دائما على شفتيها السّاحرتين.... آه، يا ابنتي! لقد كانت والدتك ساحرة الحيّ وفاتنته، حتّى أنّه لم يكن أحد يراها، من داخل الحيّ أو خارجه، إلاّ أبدى انجذابه وحسد والدك !!».... وتختم السّتّ زهوة حديثها بآهة طويلة وزفرة تعقبها كلمات ضئيلة كأنّها تقتلعها من جوفها اقتلاعا: «من كان يحسب أنّ محفوظ وسناء ستنتهي بهما الحال الى هذا المال!! إنّ هذا زمن لا أمان له، يا ابنتي!!»

[اختصار]:
+ عبارة مذيّلة:

لا أدري لماذا يعتريني إحساس أنّ اسمي أحد الأسباب الكثيرة، وربّما أكثر الأسباب، الّتي جعلت والدتي تقيّد والدي في خانة المغضوب عليهم، وتلقي به في صندوق أسرارها الّتي تحتفظ به في أعماقها القصيّة، وتغلق عليه بسبعة مراتيج ثقال، حتّى إذا ما استقرّ أخيرا هناك انكفأت عليه مجاهل الموت والنّسيان!!!؟!

[مقام ثان]:

كلّ شيء داخلك يتغيّر.... كلّ شيء حتّى العواطف والأحاسيس، وملامح الوجه وتقلّصاته وتشنّجاته، أمّا المكان فثابت، لا يكاد يتغيّر فيه شيء.... نفس الامتداد.... نفس الزّوايا الّتي تحدّك.... نفس الأفق الّذي كلّما تطلّعت إليه، حسبت أنّه من القرب بحيث أنّه بمقدورك أن تحيطه بكلتا يديك.... نفس الأشخاص: محمّد البنغاليّ، عبد الرّحيم وعديله فهمي، وسنج، الشّابّ النّاعم الظّريف، صاحب البشرة المدبوغة، الّتي لوّحتها شمس الخليج العربيّ، والّذي كاد أحد أصدقائك أن يورّطه فيجعله يعتنق الإسلام دون أن يدري.... وبانو الهنديّ، التّاجر المنكود الحظّ، لا يقبل على دكّانه الكثير من النّاس، سواء من أهل البلاد أو من أولئك المدرّسين الوافدين من بعض البلدان الأخرى، ربّما لأنّه هنديّ، أو ربّما لأنّه يدخّن كثيرا، أو ربّما لأنّه طيّب جدّا، ولا يرضى أن يتلاعب بالأسعار كما يفعل بعض الهنود الآخرين ليحوزوا رضى بعض الحرفاء الّذين لا تروق لهم البضاعة إلاّ إذا زاد ثمنها وارتفعت تكلفتها.... أو ربّما لأنّه أعلن مرّة أنّه من مسلمي

أحمد آباد، واتّضح أخيرا أنّه من هندوس كلكوتا.... وآخرون غير هؤلاء، ربّما كانوا يتكلّمون لغات شتّى رغم انتمائهم إلى نفس الأرض، منهم من قدم من مومباي، ومنهم من ترك عائلته في مادراس، وجاء يحدوه حلم الإثراء وفرص السّعادة الدّائمة، ومنهم المتزوّج حديثا الّذي سوف لن تتوفّر له إمكانيّة العودة إلى الوطن إلاّ بعد سنتين مضنيتين مجدبتين.... الآن، كلّ هؤلاء يفهمون بعضهم البعض، لا لأنّهم تعلّموا لغات بعضهم.... وإنّما لأنّهم اعتاد أحدهم الآخر، فلا تكتمل سعادة أحدهم إلاّ إذا رأى صاحبه الّذي يكون قد تعرّف إليه بهذه المدينة أو تلك، ولا يصفو مزاجه إلاّ إذا دعاه لشرب كأس من الشّاي على حسابه في مقهى من المقاهي الكثيرة الّتي يديرها الهنود، ولا يزايله ذلك الشّعور الدّائم بالغربة والإحساس المؤرّق بالقلق والفجيعة، الاّ إذا امتدّ بهما الحديث، فعادا القهقرى إلى ذكريات إن لم تكن مشتركة، فهي على الأقلّ تعيد الصّلة بالانتماء والجذور الضّاربة عميقا في أرض معطاء يمدّها المحيط بالحياة والنّماء... ربّما إذا تحدّث أحدهم عن عائلته، أو زوجه أو أطفاله، او أشيائه البسيطة الّتي يحدّد علاقته بها يوميّا منذ أوّل بزوغ للشّمس، وحتّى اختفاء آخر شعاع من أشعّتها، أدرك الآخر أنّه يترجم عن نفس مشاغله ويقول بكلام بسيط جدّا ما كان يرغب هو أن يقوله... موعدهم المساء دائما، ومكانهم المفضّل المقهى في نهاية الطّوار... أوّل ما يفعلونه أن يامروا النّادل بإشعال التّلفزيون، فإذا ما ترقرقت بأسماعهم تلك النّبرة المميّزة للغتهم الأثيلة وداعبت شغاف قلوبهم، أومأوا إليه بإحضار كؤوس الشّاي الّذي يفضّلونه مع الحليب... ثمّ يسرحون... يشردون، فإذا ما انتبهوا إلى أنفسهم رشفوا بعض الحسوات من فناجينهم، وتبادلوا بعض الكلمات القصيرة، ثمّ عادوا إلى شروداتهم وسرحاتهم... منهم من أعطته الحياة أكثر ممّا يستحقّ، ومنهم من خانه الحظّ وأعوزته الحيلة، فعاش على الكفاف... ذلك شأن شمس، الشابّ الطّيّب الرّقيق، زوج وأب

لولدين صغيرين، أحدهما في الرّابعة من عمره، والآخر في الثّانية، لا أحد يستيقظ قبله بالمركز، حتّى أولئك الّذين يقومون بعمل يشبه عمله، فإنّهم في العادة يتأخّرون في النّوم، ولا يبدأون عملهم إلاّ إذا أفطروا واستفرغوا كلّ ما في جرابهم من الأحاديث والحكايات... أولئك لا أحد يستطيع أن يسائلهم، أو يزجرهم، أو يشي بهم إلى المدير الذّي يعرف عنهم كلّ كبيرة وصغيرة، ولكنّه بدوره لا يملك شيئا حيالهم، لأنّهم من أهل البلد مثله... أحدهم يملك سيّارة فخمة، ضخمة، كلّفت ابنته الّتي تعيّنت حديثا مدرّسة بإحدى مدارس البنات الثانويّة آلاف الدّولارات؛ هذا الرّجل ليس في الحقيقة إلاّ فرّاش المركز، وقد قال عنه أحد الأصدقاء يوما بنبرة تشوبها دعابة ويخالطها غلّ كثير: «انظروا إلى هذا البدويّ!... هذا الجلف!!... أحدنا قد يفنى عمره كلّه دون أن يخامره ولو مجرّد حلم بامتلاك سيّارة قديمة مستعملة، وهو بكلّ بساطة يملك كلّ هذه العروس المجلوّة المحلاّة... ويملكها لوحده!!... زمن!!»... شمس من طينة أخرى غير طينة أهل البلد، يقوم بكلّ الأعمال، داخل المركز وخارجه، ينظّف قاعات الدّرس، ويلتقط النّفايات من السّاحة، ومكتب المدير لا يدخله أحد سواه، يدخله قبل كلّ المكاتب، حوالي السّاعة السّابعة إلاّ عشرين دقيقة، ويغادره بعد السّاعة السّابعة بكثير، ثمّ يؤكّد عزمه على الاعتناء بدورات المياه... ربّما يحس في دخيلته ببعض الصّغار والمهانة لأنّه يقوم بمثل هذا العمل المشين، ولكنّه لم يسمع قطّ يتذمّر أو يحتجّ... يبتدرك بابتسامته الكبيرة العذبة إذا رآك، ويسأل عن صحّتك وأخبارك بعربيّته الفجّة الّتي يعتزّ بتعلّمها، ويحرص على الحفاظ عليها وتعهّدها لانّها الجسر الّذي يصله بأصدقائه الجدد، وأكثرهم مدرّسون بنفس المركز الّذي يعمل به... قال شمس مرّة، وهو يتحدّث إلى بعض أصدقائه، في غرفة نومه الّتي كانت في نفس الوقت غرفة استقبال، عندما حاصروه في محاولة لاستثارته وتحسيسه بوطأة الأعباء الّتي يحتملها: «من قبل

كنت أنزعج لأبسط الأشياء، وكثيرا ما تمنّيت لو أستعيد جواز سفري، وأعود إلى مدينتي وراء المحيط؛ أمّا الآن، فأنا مستعدّ للقيام بأيّ شيء لتسديد دين سيادة المدير...!!» كان الجميع على علم بذلك الدّين، إذ يذكرون تلك الوقفة المؤثّرة الّتي وقفها المدير حينما تقرّر إنهاء خدمة شمس. ساعتها ذهب بنفسه إلى الوزارة، وقال للوكيل: «إنّ شمس هو كلّ المركز، ولن يفرّط المركز فيه!!»

[أوائل أيلول]

الشّمس توشك أن تتدهدى في مسيرها اليوميّ وراء خط الأفق الّذي لا يبين، والبحر يخضلّ ماؤه بدماء أشعّتها القرمزيّة الذّاوية، والصّمت في كلّ مكان، يريم على الكون بثقله الرّصاصيّ، ويطبع كلّ شيء بمسحة شفيفة من الحزن تحمله بدايات أيلول...!! أوائل الخريف، إنّي أحسّها بداخلي، أستشعرها في اضطرابي المفاجئ، وأنصاف الأفكار غير النّاضجة الّتي تنبت في ذهني فجأة، ولا أستطيع حيالها غير الإذعان... أحسّ هذه البدايات بداخلي حتّى من قبل أن أتطلّع إلى جهمة الطّبيعة من حولي، وحفيف تلك الأوراق اليابسة الصّفراء الّتي تلفظها أشجار ذابلة على امتداد الشّارع التّرابيّ؛ هذا الشّارع الّذي اعتادت قدماي المضيّ فيه، دون أن أسأل نفسي، ولو مرّة واحدة، لماذا أفعل ذلك، رغم أنّي ما من مرّة عبرته إلاّ أحسست بذلك الانقباض الّذي يودّ معه المرء لو يتلاشى أو ينتفي؛ أهي العادة؟! أم الرّغبة في الانتقام من والدي بتعذيب نفسي؟! أم إلحاح عائشة ونور؟! أم كلّ ذلك مجتمعا؟!... كثيرا ما سألتني عائشة عن سبب الصّمت الّذي يلازمني كلّما خرجت معهما، فأحرن ولا أجيب، وبدلا من

الإصغاء إليها، أوالي الهروب وراء شتات أفكار ما يروقني فيها أنّها زئبقيّة لا تمكّنني من نفسها أبدا!!... ونور بدورها حاولت غير مرّة أن تعيدني إلى سكون المساء وهجعة المكان، فتثرثر أو تضحك بصوت عال، أو تمسك بيدي، أو تومئ إلى شابّ ربّما كان مارّا بالجوار، وتقول بصوت خفيض فيه توق ورغبة: «انظري إلى ذلك الشّابّ!! ألم تلاحظي أنّه يكاد يلتهمنا بنظراته الجريئة!!»... كنت أعرف أنّ حضورنا المباغت، على غير توقّع، عند حلول المساء، وإيذان الشّمس بالمغيب، يجعلنا نهبا للنّظرات الشّاردة، والهمهمات المشاكسة، تتداولها شفاه أولئك الشّبّان، سواء المقيمين بالمدينة، أو القادمين من وراء البحر، وأعرف أنّ انطواءنا داخل السّواد الّذي لا يكاد يظهر سوى أيدينا ووجوهنا، وانكماشنا المستحيل، على الأطراف والتّخوم، يجعل منّا سرّا أكثر إلغازا، لا بدّ أنّ كثيرين يرغبون في فكّ مغاليقه وامتلاكه، إلاّ أنّي كنت في شاغل عن كلّ ذلك... أكره ذلك السّواد، وأكره والدي أكثر من السّواد الّذي تأكّد لي مع الأيّام أنّه قدر لعين لا فكاك منه... بلى، إنّي تمنّيت لو لم أكن ابنه لوالدي، وكنت ابنة لرجل آخر، ولو كان ذلك الرّجل زنجيّا أو عبدا قادما من ركام السّنين! ربّما تعدّون كلامي هذا تطرّفا، وربّما تتّهمونني بالإباق والعقوق، وربّما تستنكفون حتّى من مجرّد إلقاء نظرة على هذه الكلمات القليلة الّتي أطرحها على هذه الأوراق الشّريدة البائسة حتّى لا تضيق بي فتنفجر بداخلي، ولكنّ عزائي أنّي أنقل إليكم شعورا صادقا. سادتي. فلم أرد أن أراوغكم أو أكذب عليكم... والدي هو مفتتح آلامي ومنتهى مأساتي!!... والدي هو من سمّاني، وهو من قيّدني، وهو من خطّ لي هذه الطّريق الّتي لا يتجاوز طولها مائة متر من كلّ الجهات، من البيت إلى النّاصية المؤدّية إلى شاطئ البحر... من غرفتي الصّغيرة إلى محلّ الخيّاط الهنديّ... ومن سقيفة البيت إلى بيت عائشة أو بيت نور القريبين جدّا إلى درجة انّي أحيانا أفضّل المشي على قدميّ لمسافات طويلة دون أن أرى أو أقابل أحدا على أن أزورهما...

ومن حمّى الرّأس واضطرامه بالآف الهواجس المتأجّجة إلى دورة المياه أتقيّأ فيها كلّ غضبي، وانسحاقي، ورغبتي وانتفائي!!... ويلي من لحظة الصّباح المقدّرة الّتي تضعني وجها لوجه أمام والدي فأجد نفسي مضطرّة لأن أقول له: «صباح الخير.» وأنا لا أرغب في ذلك!! وويلي من نظراته القاسية الجامدة الّتي تبصق في وجهي دون احتراز: «ستظلّين تحت رحمتي، أيّتها الابنة العاقّة!! وسأقهرك أنت ووالدتك!!» وويلي من قصر ذات يدي، ومذلّتي، اللّتين تجعلان والدي يتصدّق عليّ بتلك الدّريهمات المعدودات التي بالكاد تكفي لشراء بعض الملابس الخلقة الّتي يحدّد هو مواصفاتها سلفا، فيقول لي متهكّما:

.اذهبي إلى راجو، وهو سيتكفّل بالبقيّة!!

كان راجو هنديّا هندوسيّا بشع المنظر، وكان يعرف دائما كيف «يتكفّل بالبقيّة»؛ إذ ما يراني داخلة إلى المحلّ حتّى يلوّح لي بقطعة القماش السّوداء البغيضة، ويقول لي بنبرة هي مزيج من هنديّة مبهمة وعربيّة محطّمة:

.أوصاني والدك أن أصنع لك طرحة وعباءة سوداوين!!

لكم ضقت بنفسي! ولكم هممت في لحظات الضّيق واليأس أن أضع حدّا لحياتي في غير أسف، غير أنّي كنت أجبن ما أن تصحّ إرادتي ويصدق عزمي على الإقدام... الحياة الّتي أحاول أن أتخلّص منها أكتشف فجأة أنّها عزيزة عليّ، لأنّي بكلّ بساطة لم أعشها، وأنّي رغم كلّ شيء، رغم استبداد والدي، وغروره وتسلّطه، ورغم عدم قدرة والدتي على الانتصار لي والوقوف إلى جانبي، كنت أطمح إلى حياة أفضل، خاوية من كلّ ما ينغّص المزاج وهدأة البال... ربّما كنت في قراري، أخاف الانتحار، وأضجّ من فكرة الموت، ولكنّ رغبتي في الحياة كانت أكبر من الموت والانتحار... لطالما حلمت! لطالما شيّدت قصورا شامخة من الأحلام، وزرت في شروداتي العديدة عشرات البلدان، وطوّفت في الأصقاع البعيدة، وحطّمت حواجز الزّمن...! كنت دائما أميل إلى أرج

الماضي وعبقه، لأنّه ماضي الفعل دون قيود، وأمقت الحاضر لأنّه حاضر والدي... كنت مرّة شهرزداد، وتخيّلت نفسي صحبة شهريار بعد أن أطلقني وعفا عنّي، نتبادل كؤوس الودّ والغرام... وكنت بثينة وعزّة... ومي... وكنت الخليلة والحليلة... والملهمة... وكنت الظّبية والمهاة... وكانت مفاتني مبذولة تصوغها قصائد الشّعراء وقوافيهم... وقد كان هذا الإحساس، أو الميول، يتضخّم كلّما اشتدّت من حولي وطأة الواقع، وحاصرتني فظاظة والدي، الّذي أصبح نزقا شكسا لا يحتمل، بعد أن تمكّن منه الإدمان، والتأم على صحبة من أراذل النّاس، فلا يكاد يمرّ يوم إلاّ صحبهم إلى البيت، في أيّ وقت يشاء، دون أن يحسب لنا، أنا ووالدتي، أيّ حساب، فيعربدون ويصخبون، والأدهى من ذلك أنّه كان يقتحم على والدتي غرفتها، ويجبرها على خدمة «ضيوفه»، كما كان يحلو له أن يسمّيهم، ثمّ يعرّج على غرفتي فيوقظني أنا أيضا، ويجرّني من يدي إلى الصّالة الكبيرة وسط المنزل، حيث انتصبت طاولة القمار، ويجلسني إلى جانبه، مدّعيا بزهو وفخار أنّي «جالبة حظّه»؛ ويحدث غير مرّة أن يتحرّش بي أحد أولئك الأوباش، أو يغازلني، أو يسعى إلى مضايقتي، فيلتزم هو الصّمت، أو يتظاهر بعدم الاهتمام، فلا يحرّك ساكنا كأنّي ما كنت ابنته في يوم من الأيّام.... هذا هو والدي. سادتي! هذا هو الرّجل الّذي أنا فلذة كبده، ضيّعني صغيرة، ودمّرني وأنا ما أزال في ريعان الشّباب.... يشتم.... يضجّ فمه بالسّباب.... يغضب لأتفه الأسباب، فإذا ما غضب امتدّت يده، فصفعت إحدينا، أنا أو والدتي، أو حطّمت كلّ شيء تطاله.... لا يعرف العفو إلى قلبه سبيلا، وأهون عقابه أن يحرمنا المصروف الضّئيل الّذي اعتاد أن يرميه بكلّ وحشيّة في وجه والدتي الّتي دمّر كبرياءها غروره وصلفه.... أمّا الدّراهم البخسة الّتي كان يمنحنها إذا آنس منّي لينا، وكان هو في إحدى حالات سروره ورضاه، فقد كان يقطعها فجأة، دونما سبب ظاهر، ويكتفي بالقول، وهو يشيح عنّي بوجهه: «راجو ينتظرك !!».... راجو.... راجو.... لعنة اللّه

عليه هذا الخلد المنافق الخبيث!! لا شكّ أنّ تعاطفه مع والدي قد بلغ حدّ التّواطؤ! ولا شك أيضا أنّه كان على علم بكلّ ما يقع داخل منزلنا!! فهاهو ذا يغمز ويلمز! وهاهو ذا يراوغ ويبطّن في كلامه! وهاهو ذا يرمي إليّ أخيرا بصرّة لا أدري ما فيها، وينصرف عنّي إلى آلة خياطته غير آبه.... هل يمكن للانتقام، أيّ انتقام مهما بلغت شناعته أو بشاعته، أن يصل إلى ذلك الحدّ؟! هل يمكن لإحساس عابر بالكره أو عدم الرّضى أن يصل إلى حدود السّاديّة والتّعذيب اللاّمتناهي؟ هل تخلع الأبوّة أبوّتها، وتستحيل البنوّة مجرّد كلمة نافرة، بلا فحوى يكنفها أو معنى يحيل عليها؟!!... آخذ الصّرّة مرغمة، أقاوم رغبة ما تفتأ تتزايد برميها في البحر في طريق عودتي، وما أن ألج غرفتي وأغلق على نفسي بالمفتاح حتّى أرميها دونما شفقة، حيثما اتّفق، بجانب الدّولاب، أو تحت السّرير، أو في أيّ مكان آخر، بعيدا عن مرمى نظري.... مجرّد رؤيتها كان يملأني بالحقد، ويجعلني أصاب بالغثيان؛ ورغم ذلك لا أستطيع أن أتخلّص من موجة الفضول الّتي تعتريني إزاءها، فما أن أهدأ، وتعاودني بعض طمأنينتي حتّى أهرع إلى تلك الصّرّة الّتي كثيرا ما كنت أنسى أين رميتها، فيستغرقني ذلك وقتا إضافيّا حتّى أعثر عليها.... كنت أمسكها بعنف، وأفتحها بفظاظة، وأنا في طريقي إلى السّرير، ومن النّظرة الأولى الّتي أسدّدها إليها، أدرك فورا ما تحويه.... مجرّد ملابس، وإن تكن جديدة، فهي أبعد ما تكون لياقة بفتاة مثلي.... طول الأكمام، السّعة المفرطة، عدم التّناظر بين الجانبين الأيسر والأيمن، تنافر الألوان.... كان كلّ شيء فيها يوحي بأنّها قد أعدّت لمسخ غير بشريّ، أو عملاق من عمالقة الغابات الاستوائيّة.... اللّعنة!! ليتخيّل أحدكم أنّه كان مكاني؟! ماذا يكون بمقدوره أن يفعل؟! هل سيكون بإمكانه أن يتماسك أمام تلك اللّعبة القذرة، هذه اللّعبة الّتي صار والدي يتقنها يوما بعد يوم؟!!... في لحظة ما، تتخايل أمامي صورة الشّيطان، بكلّ قرفها وفظاعتها، أرسم تقاطيعها وتجاويفها، وأضفي عليها الكثير من صفات والدي، إذ

لم أكن أتصوّر أنّ هذا الشّيطان قد يكون أسوأ منه؛ وفجأة تعتورني مشاعر وأحاسيس شتّى، وتضطرم بداخلي آلاف اللّعنات، ويتمكّن منّي غضب أسود، فأمزّق الصّرّة بالمقصّ الكبير الّذي كنت أحتفظ به في الدّولاب، واشتريته خصّيصا لهذا الغرض.... وأحيانا كنت أحرقها وأردمها بأرض الحديقة.... أو أرمي بها في البئر المهجورة بظاهر الحيّ!!

[بداية الحكاية]:

ككلّ النّاس، أو أغلبهم، فإنّي لا أعرف عن هذه البداية الكثير، وما عرفته وكان ألصق بذاكرتي فيما بعد، إنّما كان ركاما من الحكايات والأحاديث الّتي كنت أسمعها ترويها والدتي، أو بعض الجيران الّذين كانوا على صلة وثيقة بأسرتنا.... تلك الحكايات والأحاديث حفظتها عن ظهر قلب، غير أنّها كانت، في كل مرّة، تنطبع بخصوصيّة كلّ مرحلة من مراحل عمري، حتّى صارت في وقت ما أبعد ما يكون عمّا كنت أسمعه في أوّل طفولتي. كانت ذاكرتي تتوتّر أحيانا، وذهني يجنح بي في الكثير من الأحيان، فأجدني أنسخ من دفاتر الماضي أحداثا ربّما لم تقع أبدا، وتحتدم تلك الأحداث بداخلي فتمتزج بأحاسيسي ومشاعري الفائرة، وتكون النّتيجة تاريخا آخر هو تاريخي الشّخصيّ الّذي كنت أصوغه من عذاباتي وآلامي...!! كان الشّيء الوحيد الّذي حافظت عليه كما هو، وحرصت أن لا يتشوّه بجنوح ذاكرتي وتطرّف هواجسي تلك الحادثة الصّغيرة الّتي كان مقدّرا لها أن تغيّر مجرى حياتي منذ البدء، وأن تحكم عليّ بالموت حتّى من قبل أن أدرك معنى الحياة....

[ليلة الأحد، السّاعة الحادية عشرة إلاّ خمسا وعشــرين دقيقة - ٦ يونيو١٩٦٨]:

« الجهامة تغزو كلّ شيء، داخل البيت وخارجه، وترين بثقلها على قلبي، كأنّي شيء من ضمن أشياء البيت الأخرى، مهمل، متروك، لا قيمة له؛ ليلة الأحد في صباحها تكتمل مأساتي تسع عشرة لعنة.... ثمانية عشر ألما، ينضاف إليها ألم جديد، أواجهه بمفردي، وحيدة بين حياديّة الجدران الصّمّاء، ورهبة الصّمت؛ من قال إنّنا نحيا من جديد حين نحتفل بأعياد ميلادنا؟! من قال إنّ السّعادة تكتمل في ذروة السّنوات، وتذوي في مهامه النّسيان؟!.... هراء؟!! كلّ ذلك محض كذب وهراء!!... هل لتلك السّنوات الّتي تمرّرتيبة، جهمة، من معنى سوى أنّنا نتقدّم خطوات نحو الموت، نحو انتحاريكون هو المعبر المحتوم، دون اختيار منّا، نواجهه منفردين، دونما رفقة للعزاء.... الحرارة القاتلة والرّطوبة، ولا مفرّمن تجرّع كأس المأساة حتّى الثّمالة، إلى آخر نقطة في القاع السّحيق؛ كلّ النّوافذ مغلقة، والسّتائر الكامدة مسدلة، تلامس ذوائبها الطّويلة أرضيّة الغرفة المفروشة بالموكيت، والباب أدرت المفتاح في أكرته ثلاث مرّات متواليات.... لا أريد أن أكلّم أحدا، ولا أريد لأحد أن يكلّمني، حتّى والدتي لو كانت موجودة بالبيت وسعت إلى محادثتى، فإنّي كنت سأصدّها دون شفقة.... أريد أن أتألّم فقط، أن أجد شيئا واحدا في حياتي أسعد به، حتّى لوكان هذا الشّيء عذابا قاتلا، ولعنة بلا حدود.... أقف تماما وسط الغرفة.... أدرك ذلك بحواسّي فقط، إذ كان النّور مطفأ، والمكان يغرق في ظلمة وعتمة مطبقتين.... لا أدري ماذا أفعل بالفراغ الّذي يحاصرني، ولا بالصّمت من حولي، ولا بوجودي نفسه في دائرة الضّياع الّتي أشعر بها تطأ أعماقي كما لوكانت رصاصا ثقيلا منصهرا.... اجتاحتني رغبة عنيدة في

فعل شيء ما.... خضّتني خضّا، من رأسي حتّى أخمص قدميّ.... فكّرت أن أخلع ملابسي، إلاّ أنّي تراجعت رغم وطأة الحرارة.... تقدّمت بخطى بطيئة في الظّلمة، وأنا أتلمّس الأشياء الّتي أصادفها بأطراف أناملي خشية السّقوط.... انتهيت إلى حافّة السّرير.... سرت على امتداد الحشيّة حتّى خيّل إليّ أنّي بتّ على مقربة من الكومودينو.... رفعت يدي اليمنى ببطء شديد، ودفعتها باتّجاه الفراغ.... أنزلتها بهدوء فاستراحت راحتها على حقيبتي اليدويّة.... جلست على حافّة السّرير.... فتحت الحقيبة.... أخرجت علبة السّجائر.... تناولت القدّاحة.... سحبت سيجارة.... أشعلت عود ثقاب.... وضعت السّيجارة بين شفتيّ.... أشعلتها.... أخذت أنفاسا عميقة متتابعة.... خلعت ملابسي كلّها.... المنديل الأسود.... الطّرحة السّوداء.... العباءة السّوداء.... الفستان الأسود.... السّراويل السّوداء.... اندسست تحت اللّحاف، كجرو صغير، يتحسّس دفء الحضن الفسيح.... لثمت السّيجارة من جديد، سحبت نفسا عميقا.... مدمّرا.... لم أنفث الدّخان.... تمتمت فخرج الدّخان على دفعات صغيرة ضئيلة، بدأت تتشكّل دوائر وحلقات في الفضاء:

« ليلة السّادس من يونيو:
أنا
حزينة
لأنّي
أحسّ
أنّي
أتقدّم
خطوة
جديدة

نحو
الموت
والنّهاية!!»

[مساء السّابع من يونيو/
لحظة الغروب وامتزاج الكون بحمرة الشّفق]:

أنا هذلة.... هذلة فقط، ولا حاجة لك بذلك التّسلسل الجهنّميّ الّذي إذا أحال على شيء، فإنّما يحيل على انتماء زائف، خرائيّ!! في الشّارع، تصطدم بالدّيباجة الجوفاء، الدّيباجة الّتي لا بدّ منها لتكون ابنا أو ابنة لشخص ما، منتميا أو منتمية إلى أسرة ما، منصهرا في عشيرة أو قبيلة ما، اسم الأب، اسم الجدّ، اسم القبيلة، لعنة لا بدّ منها، وإلاّ اعتبرت «بدونا»، كما نقول هنا، أي دون انتماء، دون هويّة، دون جنسيّة، دون وطن، دون أرض تؤويك، أو أمل ينجيك، على الأوراق الرّسميّة، داخل الفصل، داخل الدّكاكين، في المطارات، أو في البلدان الصّديقة، تصفعك نفس الكلمات، تقال بنفس النّبرات الجافّة الحازمة:

.اسم الأب
.اسم الجدّ
اسم العشيرة أو القبيلة

أنا هذلة.... لا ملاذ لي سوى الفناء المغطّى أمام منزلنا، أجلس في أعلى الدّرجات الثّلاث، أتأمّل لحظة الغروب، قبل حلول القمر بأبّهته الجليلة، أرنو إلى نجمة كبيرة، كانت تظهر، ثمّ تغيب دون سابق إنذار،

كبيرة، مشعّة، تبدو في اختفائها وكأنّها تهمس أو تغمز: «لا أدري لماذا أثارني ذلك الظّهور والاختفاء، فبقدر ما استأنست بقبس النّور الّذي كان يلتمع كما لو كان سوطا من الضّياء وسط أغشية مدلهمّة من الظّلمة، فإنّ نفس ذلك النّور ضاعف إحساسا بالشّيخوخة ما فتئ يتضخّم بداخلي حتّى صار مثل البالون الّذي ينذر بلحظة الانفجار.... أجل، أنا بمقياس الزّمن، ووفقا لمنطق النّاس الّذين أعيش معهم وأضطرب بينهم، ما أزال في شرخ الشّباب، وعلى جانب كبير من بضاضة وجمال، ومع ذلك أحسّ أنّي أكبر من سنّي بحوالي خمسين أو ستّين عاما.... تستثيرني الظّلمة من حولي، تنشب أظفارها في كلّ شبر من جسدي، أعمدة النّور الجامدة المحايدة، السّكون، وحضور البحر الّذي أستشعره دون أن أراه، البنايات المقفرة السّاكنة، أصوات أبواق السّيّارات المزعجة، الشّارع الطّويل الّذي كلّما رأيته اعتقدت أنّه بلا بداية ولا نهاية، والدّكاكين الصّغيرة على النّاصية، الّتي تبيع كلّ شيء، وتعدك بكلّ شيء.... الأشخاص الّذين لا تراهم إلاّ صباحا أو في أواخر اللّيل.... الكلاب السّائبة.... وهذه القطط اللّعينة الّتي تخمخم في كلّ القاذورات، فإذا ما خيّم اللّيل والصّمت، أحالت كلّ شيء إلى لعنة لا تطاق بأصواتها الشّبقيّة القاتلة.

أنا

هذلة

محفوظ

سعيد

....

....

الحضرميّ

أحسّ

أنّي

كبرت
خمسين عاما!!»

[مساء الثّامن من يونيو/
أواخر اللّيل وبدايات امتزاج الخطّ الأبيض بالخطّ الأسود عند الفجر:
تحت اللّحاف في السّرير]
:

أفكّر في كلّ شيء ولا شيء.... تجتاحني رغبة لا تطاق في البكاء، وسرعان ما تنقلب هذه الرّغبة نفسها رغبة لا ترحم في تدمير العالم أو قلب موازينه.... الاعتدال، التوازن النّفسيّ، الاستقرار، ضيّعت كلّ ذلك وألقيت به من فوّهة رأسي إلى المجاري الآسنة الّتي تتكوّن حتما من فضلات خرائيّة تنزلق بيسروتقزّز من بالوعة دورة مياه عفنة في حيّ عتيق آيلة كلّ بيوته ومنازله للسّقوط الوشيك.... التّفكير في كلّ شيء، في الأشياء التّافهة الّتي ما تفتأ تلحّ عليّ رغم المجهود الجبّار الّذي أبذله في طردها، والأشياء الملغزة المحيّرة الأخرى، الحياة، الموت، السّماء، الأرض، الخوف، الدّمار، النّور، النّار، الظّلام الأبديّ، الشّيطان، الإنسان، الهذيان، الجنون، السّعادة، الحزن، لماذا نضحك، لماذا نبكي، لماذا نحبّ أنفسنا دائما، لماذا نكرهها أحيانا، الأرض أوّلا، السّماء ثانيا، لماذا هما هكذا، لماذا ليستا شيئا واحدا، ماذا وراء الأحرف، ماذا وراء الكلمات الكبيرة والأسماء السّهلة الّتي لا تنسى.... اللّه!!، ذلك هو الكمّ الهائل، ذلك هو الثّقل اللّعين الّذي يزرع بداخلي رغبة مدمّرة في البكاء.... والعطالة، السّكون، التّفكير في اللاّشيء وأنت تودّ أن تثأر من شيء ما بداخلك، تودّ لو يفور البركان الرّاكد في

أعماق نفسك، تودّ لو تغدو الأحاجي، كلّ الأحاجي الّتي ينطوي عليها باطن الكون، والأعاجيب، والألغاز الّتي سرعان ما تتوالد وتتكاثر من عدم، مطواعا كعجينة رخوة في يديك ، ولكن ما تعتم أن تستفيق على حقيقة الخواء المفزعة، ذلك ما يجعل رغبة البكاء تتحوّل إلى رغبة نقيضة في تقويض أركان العالم.... أدخّن مرّات عديدة في اليوم.... أفعل ذلك سرّا، وكلّما سنحت الفرصة، في دورة المياه، أو في غرفتي بعد أن أحكم إغلاق الباب، ومصاريع النّوافذ، وإرخاء السّتارة الثّقيلة الكامدة، حتّى لا أدع أيّ أثر للارتياب أو الشك. لكم وددت أن أفعل ذلك جهارا، أن أمارس هذا القدر من الحياة . على تفاهته وبساطته . هناك، على مرأى ومسمع منه: البحر / المحيط الغميق الّذي يسع في هذه اللّحظة كلّ شيء: الجزائر والخلجان، المدائن والبلدان // يسع كلّ شيء إلاّي: أنا . أنا هذلة، بلا ألقاب ولا كلمات كبيرة.... لماذا تصرّ والدتي على الصّمت؟!! لماذا تتجاهلني، وكلّما رأتني أشاحت بوجهها عنّي، وفي عينيها نظرة لا أدري كيف أصفها، ربّما هي الاحتقار، أو شعور المرارة، أو هي عدوى الكراهيّة الّتي انتقلت مع الأيّام من كراهية للأصل إلى الفرع المحكوم عليه بالغربة والنّسيان؟!! هل هو الجفاء أخيرا، أيّتها المرأة، يا من تدعين والدتي، وأنا ابنتك ؟!! قولي، فلن أسمع اليوم صوتا غير صوتك، ولن أسمح لأحد غيرك بأن يسمعني تلك الكلمات الكبيرة الّتي طالما سمعتها من قبل وأغضيت عنها ترفّعا، وبغير قليل من الخوف!! قولي!! هل علمت بانهياري، هل اكتشفت عادة التّدخين عندي، فاحتقرتني، وآثرت الابتعاد بجسدك الضّامر الضّئيل، حتّى لا ألطّخه بعفونتي ونتانتي!!... هل تحالفت مع والدي ضدّي من حيث لا تدرين، وتحالف والدي من قبل مع الشّيطان، فصادر كلّ شيء بداخلي، وقام رقيبا على كلّ شيء يخصّني، حتّى الهواجس والأحلام!!... هل تذكرين؟.... هل نسيت تلك الثّياب الجميلة الّتي كنت تبتاعينها لي خفية؟ وبعد أن تغلقي من ورائك الباب تلبسنيها، وتظلّين السّاعات

الطّوال تنظرين إليّ بعينين مبهورتين وأنت لا تكفّين عن ترديد تلك اللاّزمة الّتي لا تنتهي: «لكم أنت رائعة وجميلة، يا جناني!!»....هل نسيت كيف كان يجنّ جنون والدي وهو يمزّق تلك الثّياب، فيحيلها إلى مزق مشوّهة، وهو يصرخ: «أيّتها الفاجرة، تريدين أن تفسدي أخلاقها!!» وبدلا من ثيابك الزّاهية الأنيقة، كان يصرّ على حشري في ألوانه السّوداء المقرفة المنفّرة :

.خذي هذه العباءة السّوداء، البسيها!

.هذا المنديل.... استري رأسك !

. هذه الطّرحة السّوداء.... لا تدعي أحدا يراك.... لا تسقطي، فيكتب عليّ أن أحمل عارك إلى الممات!!

.هذه السّراويل.... هذه الجوارب.... هذه القفّازات.... هذا السّواد قدرك.... شرفك ....مستقبلك .... لتحلّ عليك بركته من رأسك حتّى أخمص قدميك!!

وأحاول أن أقاوم، أن أتحدّى، وأستنهض كلّ طاقاتي المكبوتة على الكلام، فلمّا تبلغ الكلمات حلقي، أتحشرج بالمعاني، ويخرج صوتي مسكينا لا حياة به ولا رونق.... بلى، سقطّت!! سقطّت في نظر نفسي، وشرفت في نظره، هو من كتب عليّ أن أكون ابنته ويكون والدي.... قتلني.... دمّرني.... وهرس عظامي عظما عظما، أوهن قواي، ودنّس روحي!!

آه، لكم وددت أن أقول: لا، ولو مرّة واحدة في وجهه!

آه، لكم وددت أن أسمعها من فمي، ولو مرّة واحدة، ثمّ أموت راضية قانعة، بعد ذلك !!

أنا

هذلة

أهذي

في

وحدتي
لنفسي
فلا
يسمعني
غير
السّكون في الدّاخل
والرّياح النّائحة
على مرمى من النّافذة !!

[بداية النّهاية . بلا تاريخ]:

لم أحاول التّسلّل أو الهروب، ربّما لأوّل مرّة في حياتي!!... لم أسع إلى المراوغة أو تفادي المواجهة كما كنت أفعل من قبل.... ربّما لأوّل مرّة منذ تسعة عشر عاما، لم أحسّ كما أنا اليوم، بأنّي خلو من كلّ ارتباط، ومن كلّ ما يشدّني إلى أرض صلبة تحكمها قوانين أهونها قانون الجاذبيّة، الأسرة، الأب، السّلطة، الفضيلة، الرّذيلة، السّقوط.... كنت أعلم أنّه اعتاد المجيء متأخّرا، سيّما بعد أن تمكّن منه الإدمان، وصار ديدنه في السّنوات الأخيرة الماضية، وكنت أعلم أن وحشيّته هي نفس الوحشيّة الّتي تمكّنت منه، وانطبع بها شخصه سواء في صحوه أو سكره، وكان أسوأ ما أعلمه عنه طرقه وأساليبه العجيبة، الّتي لا تنفد، في التّجسّس عليّ والإلمام بكلّ شاردة وواردة عن تحرّكاتي، ومع ذلك لم أخفه.... الحقيقة أنّي قرّرت أن لا أخافه.... وطّنت العزم على مواجهته، حتّى ولو كانت النّتيجة القطيعة وخوض معركة أدرك سلفا أنّها غير متكافئة، ولكن لا مناص لي من خوضها.... إذا سألني

فلن أجيبه، إذا احتدّت نبرته، سأجابهه بنظرة قاسية محايدة، إذا شتمني سأردّ عليه، وإذا بلغ به الحنق مبلغا حاول معه ضربي، سأدافع عن نفسي، إلى آخر رمق، حتّى ولو اضطرّني ذلك إلى ردّ الفعل بمثله، وليدس بعد ذلك، برجليه الرّصاصيّتين وحذائه القذر جثّتي الميّتة وجسدي الشّهيد!!

لا أدري لماذا اخترت الواحدة والنّصف موعدا لخروجي.... كان ذلك موعد مجيئه.... هو.... والدي، بعد أن يكون قد جاب خمّارات المدينة كلّها، وأفرغ عشرات القناني في جوفه الظّامئ الّذي لا يرتوي، وجاب كلّ الحارات الملوّثة، والبيوت المشبوهة، وضيّع آخر ما تبقّى في جيبه على موائد القمار!!... لا أدري تحديدا، غير أنّه ما أن استقرّ العقرب الكبير داخل السّاعة الحائطيّة القديمة المعلّقة بإهمال على الحائط المتآكل على الرّقم «٦»، واضطرب البندول محدثا صوتا رتيبا، ومعلنا عن انتصاف الزّمن بدائرة السّاعة الثّانية، حتّى انتشلت صرّة الثّياب الّتي أعددتها من على السّرير، وسحبت باب الغرفة ورائي بقوّة كاختبار أوّل لقوّتي، وتأكيد على عدم تراجعي.... تمهّلت قليلا بالممرّ القصير المؤدّي إلى الصّالة، وانحزت إلى اليمين فضغطّت الزّرّ الكهربائيّ.... غرق المكان الهادئ الصّامت فجأة في هالة مبهرة من الأنوار، وتراءت لي الأشياء بالدّاخل، في الوسط، على الأطراف، وفي الزّوايا البعيدة، وكأنّها تنذرني بمغبّة القرار الأخير الّذي وطّنت نفسي عليه.... غاظني ذلك، دمدمت بكلمات غير مفهومة، وضربت الأرضيّة العارية ضربات قويّة متسارعة حتّى آلمتني قدماي، لعنت بنبرات حادّة.... أطلقت كلمات نابية كبيرة بصوت مسموع، كأنّي أسمع شخصا ما، متربّصا في مكان ما، رغم علمي أنّ البيت خال تماما.... تقدّمت بخطوات ثابتة وأنا أكاد أجري، وكلّما التمعت صورته في ذهني، وجدتني أضاعف من سرعتي دون إرادة منّي.... كان احتمال أن أصطدم به وجها لوجه أمام

ظلفة الباب الخارجيّ واردا جدّا، لذلك محوت كلّ أثر للخوف بداخلي، وتجاهلت كلّ الأشياء من حولي، محوتها تماما من مخيّلتي كي لا تشوّش طاقتي على التّركيز.... كدت أسقط وأنا أتعثّر بحافّة الزّربيّة الفارسيّة الغليظة المفروشة في وسط الصّالة، واصطدمت غير مرّة بأحد الكراسي المبعثرة هنا وهناك، غير بعيد عن النّضد الكبير المتآكل الملقى بإهمال فوق الزّربيّة، وأوشكت في اللّحظة الأخيرة . وأنا أتقدّم نحو الباب . أن أدقّ عنقي إذ نسيت فجأة أنّه لا بدّ لي من عبور الدّرجات الطّويلة الثّلاث الّتي تقود إلى طريق الخروج.

كان أمامي عندما فتحت مصراع الباب.... ربّما يكون أحسّ بوجودي، ولكنّه لم ينظر إليّ.... خمّنت أنّ أحدهم قد يكون أطلعه على ما أزمعت فعله، لكن من ذا الّذي كان بوسعه أن يطّلع على ما يقرّ في مكنون النّفوس؟... ربّما يكون ذلك حدس شيطانه الّذي لا يخطئ.... ربّما يكون ممسوسا، أو له من الأعوان من يتكفّل بنقل الأخبار والأسرار إليه!!... أنا كنت غير قادرة على تحديد مشاعري في تلك اللّحظة المأزومة الخطيرة، ورغم المفاجأة، فإنّي حاولت أن أتماسك أمامه ما استطعت.... الوجه مغلق.... التّعابير محايدة.... الشّفاه مطبقة.... واليدان مستعدّتان للمجابهة إذا استدعى الأمر.

قال، وهو يتفادى النّظر إليّ، بنبرات قد أثّر فيها السّكر، لكنّها واضحة صارمة:

. أعلم أنّك ستخرجين الآن، وربّما تفكّرين أنّي سأمنعك، ولكنّي مع ذلك سأخيّب أملك.... اخرجي إذا أردت، أو ابقي، أو اذهبي إلى الجحيم....

ثمّ صمت لحظة، مفسحا لي المجال، وانتظر حتّى تجاوزته قليلا، وأنا أتحوّط لأيّة ردّة فعل من جانبه، ثمّ قال:

.لن أمنعك، ولكنّي أعلم أنّك ما تلبثين أن تعودي.... ستعودين.... ستعودين أيّتها القـ(...) الصّغيرة!!

هل كانت نبوءة؟! هل كانت هناك قوّة ما تتكلّم على لسانه؟!!

هل
كان
هناك
من
أطلعه
على
حقيقة
مأساتي
وبداية
نهايتي؟!!

[بداية النّهاية. الطّريق إلى البحر أو رهبة الفجيعة]:

. أنا عمياء!!

كان فاتنا ساحرا، خلاّبا إلى حدّ الجنون، كأنّما ألقي في هذا المكان إلقاء، فلا حدود ولا موانع، ولا ما يحدّد البدايات المعلومة والنّهايات المحتومة.... فكّرت أنّ ذلك الشّيء بذاته هو ما أضفى عليه كلّ تلك الفتنة وذلك السّحر؛ فما فائدة أن تكون هناك حيطان وجدران؟! وما فائدة أن تكون شوارع فسيحة أو ضيّقة؟! أو تلك الأنوار؟! وذلك الفندق في مدخل المدينة؟! أو ذلك الّذي في مخرجها؟! ما فائدة أن يكون هناك بشر أو لا يكونون؟! وما فائدة أن تراهم أو يرونك؟!... لا، ما من فائدة تذكر على الإطلاق!! الأحرى أن ننسى، أن نرمي بكلّ شيء عرض الحائط، وأن تنتفي اللّحظات، اللّحظات جميعها، فلا تبقى غير

لحظة، هذه اللّحظة فقط، لحظة الاعتراف ربّما، أو لحظة الخطيئة، لا يهمّ ذلك ما دام البحر هذه البداية، وهذه النّهاية، وهذا الأبد الّذي لا ينتهي!!

انداحت المدينة الصّغيرة من خاطري، كما ينداح الهمّ عن القلب المضنى؛ وتلاشت جميع الصّور الّتي ارتسمت بذاكرتي منذ سني الطّفولة المبكرة، وطغت عليها صورة فريدة وحيدة، هي صورة القمر المعلّق على صفحة القبّة الزرقاء وقد انعكس نوره شعشاعانيّا على سطح اليمّ.... كانت موجات رقاق، صغيرة، تتجمّع من الأقاصي البعيدة، وتلتئم في موجة عظيمة واحدة، كانت تنضاف إليها عشرات الموجات الأخرى، فيشكّل جميعها شريطا طويلا كان يضرب بدايات الشّاطئ دون توقّف.... وكان النّور ما ينفكّ يلتبس بتلك الموجات، فأراه يتحرّك إذا ما تحرّكت، ويتعرّج إذا ما تعرّجت، ويسرع إذا ما أسرعت، ويزمجر إذا ما زمجرت، فينبعث صدى وشوشاته، ويملأ كلّ حواسّي.... حاولت أن أسترجع في ذاكرتي صورة مشابهة، جهدت نفسي في مجازفة يائسة، ولخشيتي أن يضيع المشهد سدى، طردت كلّ هواجسي دفعة واحدة، وانطلقت إلى البدايات.... تقدّمت بخطى متلكّئة، بادئ الأمر، على رمال الشّاطئ النّديّة.... كانت رجلاي تغوصان بلين في بحر من الرّخاوة كان يتّسع كلّما تقدّمت.... شعرت بخدر بدأ يتسرّب إلى كلّ خليّة من خلاياي حتّى غزا أعماقي.... ساورتني رغبة كافرة في التّدخين، ولكنّي كبحتها.... أغرتني اللّيونة، وداعبتني تجربة المشي على الرّمال حافية.... خلعت حذائي، ورميته بعيدا باتّجاه الأمواج المنسحبة، فأحدث سقوطه صوتا مشرشرا مبتورا، أعقبه رشاش ماء رأيته ينطلق في فوضى عبر كلّ الاتّجاهات.... كان ذلك حافزا لي على التّقدّم أكثر؛ ولم ألبث أن لامست قدماي أوائل الماء.... لا، لم يكن باردا، رغم أنّ الفصل ما يزال شتاء، نهايات كانون الأوّل،

ولم يكن ساخنا كذلك، وإنّما يطغى عليه دفء عجيب، خلته لو امتدّ دهرا لظلّ هو هو، لا يمكن أن يتبدّل أو يتغيّر.... ألفيت نفسي، بعد ذلك، أتقدّم دون إرادة منّي.... ضرب الماء ربلة ساقي، وتسرّب إلى ذوائب ملابسي.... كنت شاردة، مسرنمة، وكان آخر شيء أفكّر فيه أن أتخلّص من السّواد الّذي كان يكبّلني، دون هوادة.... بلغ الماء الرّكبتين.... صار في مستوى خاصرتي.... وما لبث أن غطّى صدري وكتفيّ.... استدرت برأسي فيما يشبه الرّقص.... واليت الدّوران، حاولت أن تكون حركاتي موقّعة، متناغمة، ضاعفت من سرعتي، بعد أن أغمضت عينيّ.... للحظة انتفى الماء والأمواج، والقمر، والبحر، وتلاشى الدّوران نفسه والإغماء.... راودتني فكرة التّعري.... التبست بها حتّى صارت فكرة طاغية أكبر من كلّ ما عداها.... أخرجت يديّ من تحت الماء.... كانتا طيّعتين ليّنتين، كأنّما آثرتا التّواطؤ سلفا مع رغبتي في الانتقام.... سحبت المنديل الأسود، فرشته على صفحة الماء.... تسرّب الماء إليه، فبدأ ينزل إلى القاع شيئا فشيئا.... خلعت بعد ذلك الطّرحة، وفككت أزرار العباءة.... تخلّصت من سراويلي، وانسللت من تحت الفستان انسلال الدّودة من الشّرنقة.... اندفعت داخل الماء.... فألفيت قدميّ تبتعدان عن بدايات القاع الرّملي.... تأهّبت في وضع تمدّدي ورحت أندف محرّكة يديّ ورجليّ.... كنت أسبح، ولم يكن في خاطري فكرة محدّدة عن المكان الّذي أقصد إليه.... تمنّيت لو أظلّ هكذا، إلى ما لا نهاية.... آه، لو تواتيني القدرة، وتنعدم الحدود والمسافات!... آه، لو تسافر الأشياء بداخلي...!!

تراجعت نحو الشّاطئ....

كنت عارية تماما....

وكانت عيناي مغلقتين.

فتحتهما!

لم أر شيئا....

غامت المدينة الصّغيرة، بكلّ أشيائها وأسمائها، من أمامهما....
غام القمر....
انحسر البحر....
والأمواج سافرت.... صرخت بكلّ ما أوتيت من قوّة....
صحت من أعماقي، فلم تجبني غير أصداء آتية من اللاّمكان تردّد:
.أنت عمياء!!
أنا عمياء!!
كان هناك أمل ما /
يداعبني،
يدعوني /
يدفعني نحو تلك الصّرّة الّتي جلبتها معي.
فتحتها، وبسرعة ارتديت الملابس الّتي احتوتها، ولكن دون جدوى.... كان العمى يطاردني.... يصرّ على اغتيالي.... على قتلي.... هل لهذلة غير تلك الملابس السّوداء، غير الطّرحة والمنديل، غير الفستان الأسود والعباءة السّوداء...؟! هل لهذلة غير قدرها الّذي يشدّها نحو مجهول ما، وبيت ما، في أركانه يتربّص طيف والدها الجهنّميّ...؟!
دون
إرادة
منّي
وجدتني
أسرع
باتّجاه
نبوءة
والدي
نحو
البيت

نحو الغرفة
نحو الموت /
والصّمت!!
أنا هذلة....
أنا عمياء.... أنا عمياء.... أنا عمياء!!

[مقام أخير]:

الشّمس تنحدر شيئا فشيئا نحو المغيب، كما هو الحال كلّ يوم، إلاّ أنّها في هذه السّاعة من كانون الأوّل، الخامسة إلاّ ربعا مساء، تشوب صفحتها القرمزيّة الدّاكنة مسحة من الحزن قد بدت مواربة في تلك التّجاويف القميئة المنتشرة على أطرافها.... والصّمت يخيّم على المكان، تلقاء البطحاء الرّحبة، من جهة رفيف الدّكاكين إلى يمين الشّارع.... لا ضوضاء ولا ضجيج.... لا، ولا نأمة تشي ببصيص أمل ينبعث بين جنبات هذه المدينة النّائمة.... كان كلّ شيء / كان الكون كلّه كأنّما التبس ببقايا مأساة هذلة، فآثر السّكون، واختار أن يستقيل، ولو لمرّة واحدة، يستريح فيها من وعثاء سفر دائم طويل، ما ينفكّ يلقي به بين عبابه.... فقط ذبالة نور يصدرها مصباح قديم معلّق على واجهة دكّان شبه مقفر، قد وقف على بابه صاحبه الهنديّ.... بانو.... أجل، كان ذلك بانو...!! هو بشحمه ولحمه!! ماذا تراه يفعل بمفرده، وبقيّة الدّكاكين إلى يمينه ويساره قد أقفل جلّها وغادر أصحابها إلى منازلهم على مشارف المدينة؟!.... هل تراه مازال ينتظر تلك السّيّارة اللّعينة الّتي سوف لن تأتي أبدا؟! هل مازال لديه أمل ما في تفادي إفلاسه المحتّم؟! هل يمتدّ مقامه في هذا البلد سنة أخرى.... أو سنتين.... أو

ثلاث؟!... ربّما، ولكن قبل ذلك عليه أن ينتظر السّيّارة.... عليه أن يلزم المكان، حتّى إذا ما جاع تدبّر أمره من بقايا الأشياء الّتي انتهت مدّة صلاحيّة أكثرها داخل الدّكان؛ وهذا بحدّ ذاته لم يكن يمثّل مشكلة بالنّسبة إليه إذ كان يكفيه النّزر القليل.... وإذا ما عطش جرع من مطرة العرق الّتي كان يلفّها في خرقة من القماش ويحتفظ بها في درج من أدراج المكتب الّذي يتّصل بالقائمة الطّويلة على يمين الدّاخل.... وإذا ما أصابه الحصر، قضى حاجته في أقصى الدّكّان بعيدا عن أعين الرّقباء.... بلى، كان يفعلها داخل الدّكّان!!... الشّيء الوحيد الّذي لم يكن بانو يصبر عليه رائحة التّمباك.... اللّفائف النّديّة الّتي كان يدخّنها تباعا، دون توقّف.... حتّى رائحة النّساء نسيها / ربح زوجه الّتي خلّفها وراءه في شبه الجزيرة الكبيرة، والّتي نسي ملامحها كلّها أو كاد، وعبق أطفاله الصّغار الّذين ضيّعت ذاكرته الملتاثة أسماءهم فردا فردا.

.ما اسم زوجك، يا بانو؟!

.لا ادري!

.متى علوتها آخر مرّة؟!

.كانت دائما تعلوني!

.ومتى علتك آخر مرّة؟!

.لا أدري!

.كم عدد أطفالك؟!

.لا أدري!

.ما اسم كبيرهم؟!

.لا أدري!

.كم عمره؟!

.لا أدري!

.ماذا لديك في الدّاخل؟!

فجأة، يتخلّى عن لاأدريّته، ويتصدّى للإجابة، كأنّما على هذه

الإجابة بالذّات يتوقّف مصيره ومستقبله بهذا البلد القصيّ البعيد:
.وأنت ماذا تريد؟!
بذلك السّؤال كان يبتدر السّائل، فيصرّ الآخر قائلا:
.قل لي أنت أوّلا ماذا لديك؟!
.كلّ شيء!
.وما كلّ شيء؟!
. عندي عيش.... سكّر.... سنبوسة.... طماطم.... جرجير.... موز.... أكياس طحين.... عندي كوكاكولا.... وتنكات.... وتونة.... وعنب.... وتفّاح.... وبهارات.... ومثلّجات.... وسجائر.... مستوردة.... بلى مستوردة.... مونتانا..... ونستن.... مارلبورو....& HEDGES BENSON.... عندي صابون.... عندي مستحضرات تجميل.... الخبز إذا أردت اتّصلت بالمخبز الجديد فيجلبون لك ما تريد.... الشّاي.... القهوة.... وكلّ ما تحتاجه من زيت وعصير وفاصولياء وبقدونس، وكلّ شيء، عند بانو ترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد....
.والحليب هل عندك حليب؟!.... أريد حليبا، يا بانو!
أرتج عليه.... كان يريد أن يقول شيئا، ولكنّ حلقه لم يسعفه بغير همهمات غير مفهومة.... انحاز قليلا.... سدّ الباب بجسمه الضّئيل حتّى يمنع أيّ اقتحام غير متوقّع لدكّانه شبه الخالي.... بلى، كان دكّانه شبه خال، والسّيّارة لم تأت بعد.... مدّ يده إلى الدّاخل، فأطفأ ذبالة النّور.... غرق المكان في عتمة مطبقة.... غرق الكون كلّه في عتمة مطبقة!!
.هل عندك حليب، يا بانو؟!
.....
.لماذا لا تتكلّم؟! أجب، يا بانو!
.السّيّارة....
.أيّة سيّارة؟

.سيّارة التّموين!

.وما لها سيّارة التّموين؟؟!

.لم تأت بعد!

.ومتى تتوقّع مجيئها؟

.بعد يوم أو يومين على الأكثر!

وغرق المكان في صمت جديد.... تراجع بانو إلى داخل الدّكّان.... في حين انسحب الصّوت الّذي كان يحاوره منذ قليل!!

***

....على مبعدة.... في الطّرف الآخر من المدينة الغافية.... كانت الأمواج الغاضبة الّتي تضرب الشّاطئ الرّمليّ دون توقّف، تردّد، فيتجاوب صدى كلماتها في المدى الّذي لا يكاد يبين:

أنا عمياء!

أنا عمياء!

أنا عمياء!!

٤. عن الحـزن والتّباريـح
(صور في ٢٠٠٢/٠٢/١٨)

[صباح الاثنين،
الثّامن والعشرون من شهر تشرين الأوّل (٢٠٠١)]

إلهي! ما أفظع هذا الإحساس الّذي ينتابني اللّيلة!!...
وما أمضّ هذه الوحدة القاتلة الّتي تحاصرني من كلّ جانب!!...
الخواء يعتصرني.... يقتلني، ولكنّي لا أستطيع حياله أيّ شيء سوى التّسليم، والاعتراف له بالغلبة.... الهباء.... الخوف من شيء ما قد يداهمني في أيّة لحظة، ربّما هو الموت أو صورة الموت البشعة المرهبة.... أو شيء آخر غير الموت يختلف عنه في المظهر، غير أنّ له نفس القدرة على.... ماذا؟؟! الكلمات ذاتها تتلاشى من ذاكرتي، والحروف، والألوان، وكلّ ما تعلّمته من ذي قبل أجده الآن يتهاوى بداخلي كما تتهاوى أوراق ذابلة عن شجرة هرمة.... إلهي ما أفظع اللّيلة، وما أفظع الإحساس الّذي ينتابني هذه اللّيلة!!

[ليلة الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأوّل (٢٠٠١)]

ذلك الإحساس الغريب.... الرّوع المؤرّق الّذي قلب كياني خلال الأيّام السّبعة الماضية بدأت حدّته تخفّ شيئا فشيئا، إلاّ أنّه لم يتلاش تماما.... أن تعيش مع الموت، أو بالأحرى أن تعيش مع فكرة

الموت، أن تكتظّ في داخلك بآلاف الأشياء الغريبة عنك، وعن عالمك السّابق، أن تكون محاطا بعشرات الأصدقاء الّذين تعرّفت إليهم في هذا البلد القصيّ النّائي، وتعيش الوحدة كأعنف ما تكون الوحدة، ليس ذلك بالأمر الهيّن قطعا.... أن ترى نفسك، بأمّ عينيك، موشكا على النّهاية الّتي لا مناص منها.... كثيرا ما ساءلت نفسي في الأيّام الأخيرة الماضية كيف عشت السّنوات العشرين الأولى من عمري وحيدا مقطوعا به.... استغربت كيف كنت أحسّ بتلك اللّذة الّتي تكاد تصل إلى حدود المازوكيّة حينما أكون بمفردي.... ذلك الإحساس بدأ يخفّ شيئا فشيئا، إلاّ أنّي أشعر الآن بحزن كبير لنفس ذلك السّبب.... نخاف من الأشياء المقلقة، نخاف منها كثيرا، إلاّ أنّها بمجرّد أن تخفّ وطأتها، أو نتخلّص منها، نشعر لذلك بأسى وشجن ليس لهما ما يبرّرهما سوى أنّنا مجبولون على المأساة...!!

[صباح الأوّل،
شهر تشرين الثاني (٢٠٠١)]

ماذا هناك في السّقف؟! أيّ شيء ترمقه بعينيك اللاّئبتين.... أيّ ذهول؟!... حتّى الخيط الرّقيق الذّي كان يربطك بدنيا النّاس تفقده الآن، مرّة، وإلى الأبد، يتكلّمون فكأنّك لا تفهمهم رغم أنّك تتحدّث نفس اللّغة الّتي يتحدّثونها، ويمعنون في الحديث بينما يرمقونك من طرف خفيّ، فلا تلقي إليهم بالا، وليس ذلك من باب التّجاهل أو اللاّمبالاة، وإنّما هو ذلك الخاطر الّذي كان داهمك منذ الأيّام السّبعة الماضية يلاحقك الآن من جديد.... لاشيء.... لا شيء على الإطلاق، سوى هذا الشّعور المتميّع بالعطالة، لا شيء غير الصّمت بداخلك، ذلك الصّمت الّذي لا تحسّ حياله بأيّ شيء، ولا حتّى بذلك النّزق المشاكس....

اليوم قدم زائر جديد، غير أنّك في قرارة نفسك تشعر أنّك أنت ذلك الزّائر الجديد، قال كلاما كثيرا عن «لا أدري ماذا»، داعب فيك وتر الاهتمام إلاّ أنّك ظللت كما أنت، صخرة جلمودا، وجودها مثل عدمها، لا تنفع في كثير أو قليل.... إلهي، حتّى الشّعور، حتّى الإحساس بالقرف، أصبحت غير قادر عليه.... سأضطرّ الآن إلى التوقّف، لأنّي لم أعد أمتلك الكلمات الكافية القادرة على التّعبير عن هذا الهمّ الكبير الّذي أحمله بداخلي، لكن ربّما أعود إلى الكلام فيما بعد، فإلى ذلك الحين أستودعك همّي، فلا تنس أن تتذكّرني...!!

[الخميس الثّاني من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّادسة وتسع وأربعون دقيقة]

بالأمس قرّ عزمي على أن لا أزعجك بثرثرتي، وكنت سعيدا ربّما للمرّة الأولى لأنّي سأجنّب أحدا الانغماس في حزن شبيه بالحزن الّذي أحسّ به، هنا، داخل الغرفة الصّغيرة، الّتي اخترتها منفى لكلّ ما أستشعره من مأساة.... لكن، وكما يقولون: ما كلّ ما يتمنّى المرء.... (وأنت دون شكّ تعرف الشّطر الثّاني من البيت).... عندما انهرت، ولفّني اليأس، لم أفكّر في غيرك، ولم يتبادر إلى ذهني سواك، لأبثّه حشاشة نفسي!! للمرّة الأولى، وعلى امتداد الشّهور الماضية، كانت هذه البلاد، وهذه المدينة. ابنة الإبرة. لغزا بالنّسبة إليّ، إلاّ أنّي تفاجأت أمس.... تفاجأت لأنّ أحدا من أهل هذه القارة قد توجّه إليّ بالحديث، وأنّ هذا الشّخص لم يكن في الحقيقة سوى امرأة.... أجل، إنّها امرأة!!... ربّما تستغرب ذلك لما سمعته منّي عن عادات النّساء في هذا القطر المقطوع، إلاّ أنّ ما ذكرته لك هو الحقيقة.... سمراء، تضرب سمرتها إلى الغموقة، ربّما تكون تجاوزت العقد الخامس من عمرها، إلاّ أنّ بها بقيّة من جمال متوحّش

آسر.... سافرة، ويبدو أنّها لا تجد حرجا في سفورها، بل إنّها سلّمت على بعض الرّجال، بادرتهم بالتّحيّة، ثمّ مدّت إليهم يدها، وهي تبتسم تلك الابتسامة الحلوة الّتي ربّما لم أجد مثيلا لها فيمن تعرّفت إليهن من نساء هذا البلد، وهنّ قليلات، على كلّ حال؛ وقد يشطّ بك الخيال بعيدا، فتعتقد أنّ العلاقة الّتي أحدّثك عنها هي علاقة «فيها ما فيها»، على حدّ تعبير بعض أصدقائنا، فأقول لك حتّى لا تذهب مذهبهم إنّ هذه العلاقة لا تتعدّى حدود النّظرة الأسيانة العابرة لهؤلاء النّسوة اللّواتي يلفّهنّ سواد الملاءات الملغزة القاتمة....

نزلت من المقعد الخلفيّ للسّيّارة، وهي تحمل شيئا في يدها، وسلّمت عليّ بلهجة أهل البلد، وحاذتني، دون أن يكون لها أيّة فكرة عن إسمي أو جنسيّتي.... (بعض هؤلاء النّاس لا يهمّهم من أنت، بقدر ما يهمّهم قربك منهم)... ربّما كنت في نظرها هنديّا من هؤلاء الهنود الوافدين، أو بنغاليّا، أو مصريّا، أو أيّ شيء آخر.... إلاّ أنّ سؤالها عن موعد فتح مكتب الفواتير والتّحصيل، لم يكن يشي بأيّ تغطرس أو شعور عدوانيّ.... كانت أحيانا تنظر إلى الأرض.... كنت على يقين أنّها تنظر إليّ رغم أنّي لم أرها تفعل ذلك.... وقفت مرّتين أرقب المكتب، وفي كلتا المرّتين، كانت تسألني: هل فتحوا؟

.... في الرّابعة، جاءوا، الهنديّ أو الباكستانيّ صاحب المفتاح، والعاملان المحلّيان الآخران.... سبقتني إلى الباب، وفي الطّريق مرّت بشيخ في خريف عمره.... ثرثرت معه قليلا، ضحكت معه.... كنت أتبعها دون قصد، سوى شعور ما بالارتياح إلى وجودها قريبة منّي....

[صباح الثّالث من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة العاشرة وستّ وثلاثون دقيقة]

أنا مسكين جدّا!!

قد تتساءل بإلحاح شديد أو إلحاح أقلّ لماذا أخاطبك أنت بالذّات رغم كونك لا تعرفني، ولم تكن عيناك قد وقعتا عليّ البتّة: ذلك التّساؤل. على وجاهته ومشروعيّته بالنّسبة إليك .. فإنّه لا يعني لي شيئا.... ما يعنيني أكثر من أيّ شيء آخر هو ذلك الإحساس الّذي أشعر به كلّما رأيتك مارّا من أمامي، هو تلك النّظرة الأسيانة الّتي تكاد تخترقني من رأسي حتّى أخمص قدميّ، تلك النّظرة. لو تدري. تذكّرني بشيء كنت قد فقدته منذ سنوات.... لا أذكر عدد تلك السّنين، ولكنّي أذكر بالقطع ذلك الشّيء العزيز النّادر الّذي فقدته خلالها.... براءتي!! ربّما تستغرق في الضّحك، ربّما تسخر منّي، إذا كتب لك أن تقرأ هذه المذكّرات الحزينة، إلاّ أنّ هذه هي الحقيقة أرمي بها إليك على علاّتها.... إطراقك الحييّ، خطواتك الهادئة / الثّابتة، وأنت تعبر المجاز الضّيّق في حيّك المتواضع إلى السّوق أو المقهى القريب، كلماتك المقتصدة، وأنت تدلي برأي أو تجيب عن سؤال، كلّ ذلك كان يأسرني ويضاعف من حزني وانسحاقي!!... أنا مسكين. ببساطة شديدة. لأنّي افتقدت كلّ تلك البراءة، ولا أستطيع أن أستعيدها حتّى ولو حاولت ذلك.... (بعض الحكماء يقولون: المحافظة على الشّيء أصعب من الحصول عليه).... المعذرة، سأضطرّ الآن إلى الانقطاع عن الكتابة، فليست لديّ القدرة على المواصلة إزاء هذا الكمّ الهائل من المشاعر المتضاربة.... الغرفة مغلقة.... المكيّف يزفر زفراته المتألّمة.... وكاظم الرّائع يثير فيّ شجنا لا يوصف وهو يردّد في حزن أعمق من حزني: بفكّر في اللّي ناسيني.... فهل تملك دموعي إزاء ذلك إلاّ أن تنهمل، وتنكأ جراحي القديمة والجديدة....

(صديقتي العزيزة الرّائعة:
كنت مخطئا جدّا حين اعتقدت أنّي تخلّصت منك
/ مرّة
وإلى
الأبد!!!!!!؟؟؟؟؟!!!!)

[مساء الثّالث من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّادسة وستّ وعشرون دقيقة]

لا أعرف لماذا صرت عجولا هكذا، ما أكاد أستقرّ قليلا حتّى يطيف بي هاجس الحديث إليك؛ ألأنّك الشّخص الوحيد الّذي أعرفه؟! أمّا هذه فلا أستطيع الجزم بها، وأمّا أن تكون الشّخص الأثير لديّ فهذا حقّ....

كنت منذ ساعة عند صديقين تعرّفت إليهما في هذه المدينة، كانا مشغولين بتحضير غدائهما، وكنت في حال لا أحسد عليها فاضطررت إلى الانسحاب إلى الصّالة، حاولت النّوم فلم أستطعه، من داخل المطبخ انتظرت أن أسمع صوت صديقي «ع»، ولكنّي لم أسمع شيئا سوى الأصوات المعتادة الرّتيبة تتخلّلها فترات سكون ممضّة، اعتقدت أنّه آثر الصّمت سيّما وأنّه كان يبدو عليه الغضب والقهر، وخامرتني رغبة العودة إلى المطبخ، إلاّ أنّي اخترت في الأخير أن أفتح المذياع.... القسم العربيّ في إذاعة طهران.... (خلال فترة الصّيف أدمنت الاستماع إلى هذه الإذاعة.... كنت وحيدا تماما.... عاد الأصدقاء خلال الإجازة إلى البلد الجاثم وراء أمواج البحر، وتعطّل جهاز التّلفزيون فلم يبق لديّ إلاّ مشاكسة المذيعين تأتيني موارية ساخرة من المذياع)..... حوالي السّاعة الواحدة أو الواحدة والنّصف دخل صديقي الثّاني «ح» إلى

الصّالة، وكان يبدو عليه عدم الارتياح.... عندما دخل في المرّة الأولى، كنت متعبا جدّا، وغير قادر حتّى على مجرّد الكلام، فتناومت.... سألته عن «ع»، قال إنّه ذهب إلى شقّته ليكلّم زوجته على التّلفون.... لم يزد على ذلك، كان متأثّرا من شيء ما، ربّما هي العدوى أو الإحساس بالمشاركة.... صديقاي «ع» و «ح» من يراهما يتبادلان الشّتائم والألفاظ النّابية يحسبهما أعدى الأعداء على الإطلاق، غير أنّ الواقع خلاف ذلك تماما، وأكبر دليل على ذلك اشتراكهما في كلّ شيء، المأكل والمشرب، وحتّى أشيائهما الصّغيرة.... فجأة، دخل «ع».... كان يبدو عليه أنّه يحمل همّا.... كان ذلك باديا على وجهه.... سألته ما به، إلاّ أنّه تجاهلني، حمل المنفضة من على الطّاولة، باعد ما بين الأشياء الموضوعة فوقها، خرج ثانية، عاد يحمل صحنا عليه بطّيخ.... سرعان ما حضر «ح» أيضا يحمل في يديه آنية الغداء.... التأم شملنا صامتا.... أكلنا، وأعتقد أنّنا كنّا جميعا نتحسّب من شيء ما....

[مساء الثّالث من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّابعة وأربع عشرة دقيقة]

مينيرفا الشّوق، تكريس النّبع لترنيمة عشق أولى، الرّماد العاثر مأثرة لسبل الصّمت، مدى آخر، أطياف متعالقة من زمن الشّرود، جلجامش جائع، أنامل الشّوك تنغل بين اللّحم والعظم، وأزمنة السّفر لازورديّة الأنين، سلسبيل هو الحزن الجاثم في صمت الآلهة على الأرائك والحشايا، الأمواج محصّلة خوف أثيل آت من خلف سراب غير البحر....

[صباح الرّابع من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة العاشرة وخمس وثلاثون دقيقة]

مياه البحر الحريريّة الملمس تحملها خمائل السّوسن على أجنحة السّنونو الصّغيرة المسافرة إلى أزمنة اللاّحدّ، وأزاهر «التّوليب» من طينة الأرض النّفحة، تغريد تصوغه الأيادي الإلهيّة بأصابع العازفة على أوتار «الهارب» في أبهاء الأولمب الزّيوسيّ، من المرامي، خلف الأبعاد، بين اغتيال المسافات، على وجع النّبع المسافر، تتميّع الأشياء، وتنطفئ الأسماء، اللّغز الشّارد، أحاجي الزّمن الغابر ذات الرّائحة المزكمة، والنّفس الجنائزيّ، والمراتيج السّبعة من بين شغاف القلب تزرع مأتم الميّتين الرّاحلين إلى منابع الزّهو الخفيّ.... موت يقلع بأظافره الرّحيمة سويداء الفكرة الملول، فتنبعث العنقاء من أغشيتها الميّتة منذ انقراض الإنسان الأوّل، ومبعث الأرواح في عالم البرزخ....

[صباح السّادس من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة الثّالثة وسبع عشرة دقيقة]

« جباليا »، مكنونة الرّوح، من بريق اللّمعات المرجانيّة تطرّز قفّاز الشّوك، وتحملها أثيريّة الأجنحة إلى الأبهاء ذات الصلصلة، جرس الحبر مرايا، تتمزّق خلف الصوت، ومسوح الرّاهب تنتظر آخر المكرّسين لتحتفل بوثنيّة الخطيئة، الأب توما كان ينوي أن يقول شيئا، وحين رأى «جباليا» المرجانيّة، أوصد كلّ النّوافذ والأبواب، وأطفأ كلّ الشّموع، ونام حتّى من قبل أن يقول «تصبحون على خير» للجميع....

[مساء السّادس من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّادسة وثلاث وأربعون دقيقة]

تمنّيت لو كان لي أخ مثل صديقي «ع» !!

صديقي «ع»، الفتى الساحليّ الملغز، أراه مختلفا بجميع المقاييس.... حين قابلته أوّل مرّة لم يبد لي كذلك، بل إنّي حتّى لم أكلّف نفسي عناء التعرّف إليه، كنت أراه إمّا في المقهى الصّوريّ الجاثم في عزلة المساء، أو في المركز مع طلبته.... كان يشدّني إليه شيء ما رغم ذلك، كان ذلك الشّيء مستبدّا إلى حدّ الفتنة، ربّما هو اللّحظة الفاصلة، أو هو التّمهيد لتجربة القرب والتّماهي.... كنت أسمع كلاما طائشا من هنا وهناك، وحديثا ينتقل خفيّا من فم لفم عن أشيائه الصّغيرة الحميمة الّتي كانت تنتهي به، بين الفينة والفينة، في أحد الفندقين بالمدينة.... الأصدقاء والأعداء يتحدّثون عنه دون استثناء، الأصدقاء بدافع خفيّ لا أعرفه، والأعداء يمعنون في النّيل منه للتّشنيع عليه والانتقاص منه، لأنّه، بكلّ بساطة، أكثر منهم شجاعة وأنظف يدا من أيديهم القذرة.... أنا كنت متحفّظا قليلا ليس لأنّه يشرب، وأنا يحرجني أحيانا منظر الّذين يشربون، بل كانت تلك عادتي مع كلّ الّذين أتعرّف إليهم أوّل مرّة.... أريد أن أحافظ دائما على تلك المسافة الّتي تجعلني أعيد حساباتي قبل الإقدام على شيء ما، أمّا إذا تمكّن الودّ واستحكمت العشرة فلا شيء يمنعني على الإطلاق من بذل كلّ ما أملك لمن عركت ودّه وعشرته..... صديقي «ع» أحد أولئك القلائل الّذين لو طلبوا أيّ شيء مهما بلغت صعوبته أو استحالته لبذلت الرّوح دونه راضيا مطمئنّا.... حين أراني جوازه لأوّل مرّة، ورأيت صورته، لا أدري لماذا انتابني إحساس غريب أنّي أعرفه، وربّما كنت رأيته في مكان ما، أين بالضّبط، ومتى، هذا ما لم أكن متحقّقا منه،

الملامح الرّقيقة الهادئة، الفتوّة البادية قبل أن تهدّه السّنوات الثّماني في هذه المدينة المقطوعة، لمّا أخبرته أنّ صورته تبدو مألوفة لديّ رفّت على شفتيه ابتسامة عذبة تنمّ في مجملها عن عجب واستغراب، وقال: «أين تعتقد أنّك رأيتني؟»، أجبته: «لا أدري تحديدا، غير أنّ الملامح تبدو مألوفة جدّا لديّ!!»

[السّادس من شهر تشرين الثّاني. بداية اللّيل.
السّاعة التّاسعة وتسع وثلاثون دقيقة]

اليوم فقط، بعد ما يقرب من السّنة وبضعة أشهر، أكتشف أنّي خلال كلّ تلك الفترة الماضية، كنت أفتقد شيئا ما، قطعا ليسوا الأصدقاء الّذين لا أنكر أنّي افتقدتهم كثيرا، وافتقدت أكثر من ذلك جلساتهم الحميمة بالمقهى بالقرب من محطّة السّكة الحديد، في موعدنا الّذي لا يتغيّر، كلّ يوم، على السّاعة الخامسة مساء، موعد يعقبه موعد آخر، اعتدناه ربّما من باب التّسلية، وقد نبّهنا إليه صديقنا الرّائع دوما، أستاذ الفلسفة، الصّديق «ي»، موعدها، لا نعرف إسمها، غير أنّا تشربّنا ملامحها لكثرة ما كانت توالي علينا روحاتها إلى الدّكان القريب، قطعا جميلة، بل فاتنة، وربّما هذا ما كان يشدّنا إليها أكثر، كنّا نشعر لاإراديّا أنّها ملك للجميع، وأنّه إذا تطلّع إليها أحدنا فإنّه يفعل ذلك بالنّيابة عن الكلّ....

ما افتقدته كان فوق الأصدقاء، كان باختصار فوق الأسماء!!

وما ضاعف إحساسي بهذا الفقدان الجدب الّذي لا برء منه، ههنا، وسط هذا الرّكام الشّنيع من الهيولى المقيتة، حيث لا شيء غير الشّعور الفظيع بالفراغ، أو المعالم الّتي إن أحالتك على شيء فلا يمكن أن تحيلك على غير معالم تعود إلى بدايات التّشكل الفوضويّ

لعصر البداوة الدّابر.... أذكر الآن أنّ صديقا من أصدقائنا لخّص المأساة الّتي نعيشها في بضع كلمات، رغم نثريّتها، فهي معبّرة بشكل لا يقبل الجدال، قال: «تصوّروا خيمة، وشيخا بدشداشته وعقاله، تصحبه راحلة وعبد بنغاليّ!!»

افتقدت «مدن الملح» .رغم أنّي قرأتها مرّتين على الأقلّ، فلا تزال لديّ الرّغبة في إعادة قراءتها....

«حنّا مينة»، ندمت كثيرا أنّي لم أجلب معي بعض رواياته .خطأي الكبير أنّي رسمت صورة أسطوريّة لمدينة صور، ما أعرفه عنها كان كفيلا أن يورّطني في مثل هذا الخطأ.... من لم يسمع عن أحمد بن ماجد، من لم يقرأ عن هذا الجزء القصيّ من الجزيرة في كتب الرّحّالة والمؤرّخين، محمّد بن جرير الطّبريّ، المسعوديّ، بن الأثير، وكثيرين غيرهم.... التّاريخ!! يا اللّه، أين ذلك التّاريخ الآن؟!

صوت محمود درويش، يأتيني متباعدا . متدانيا، وهو يهدهد وحدتي وعزلتي!!

وصوت فيروز الملائكيّ!!

والفاتنة على الدّوام:

سيّدة الرّوع والرّوعة

((أمّ كلثوم))

[السّابع من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)

السّاعة السّادسة وثلاث وأربعون دقيقة مساء]

تمدّدني على كفّ الهبأة المهذار سوسنة الرّيح، ومن سفر الأزمنة، في أتّون الحندس، تتلقّفه كلمات الشّيخ لحظة شطح، تتجاذبني الأقطاب، فأنتثر، اللّون الحائل المنبعث من كون الفرقة والتّصافي

يمتزج عفوا بالأشواق، فأرى، ذاك الخطف، وشطحي، كان الكلّ يتبعّض في الجزء، والجزء يكاثر في الكلّ أحابيل الرّؤيا، هل كنت رأيت، وذلك شيخي من هرم الكلمات يعتّق لغة الإشراق، يحاور في الملأ أسرار السّيرورة والصّيرورة، كان الواحد إذ مدّ يديه إلى العرش فمادت من بين أكنافه كلّ الأحرف، وتساوت أرض الفتنة بسماء الكشف، وكان جميع ما خطّت أنفاس اللّه على اللّوح وماء الغبش الظّنّيّ....

شيخي أراني جناحي، كان جناحي مكسورا، قال تعذّب فالشّوق خاتمة الأحزان، ومال عليّ فتعتّقت أنفاسي من أرج الأزمان، ووجدت لخوفي لذّة التّواجد وسموّ الصّوفيّين، قلت أيا شيخي، كيف أتعذّب إذا رمت الكشف ولم يأت الحزن، قال يا ولدي ابحث في النّفس عن الصّبر، واسأل قلبك هل يحمل حملين، حمل الخوف وحمل الأسفار، اسأل قلبك عن مغزى الشّوق، ومعنى الأسرار، ثمّ رأيته شيخي يسبح بين ماء ونار، وتمنّيت لو كانت لي مقامات الشّطح جميعا فأسافر في الحزن كي أرقى إلى نسمات الفيض وأسرار البوح الفيوضيّ....

[الثّامن من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة الواحدة وثلاثون دقيقة صباحا]

لم أكن أفكّر قبل الآن في عدد السّنوات الّتي تمرّ في غفلة منّي، كنت مطمئنّا إلى رسوخ الأرض تحت قدميّ، وثبات الأشياء من حولي، هذا بالرّغم من بعض المنغّصات الّتي كانت تجيئني من بعض الأشخاص الّذين أعرفهم في شكل أسئلة فضوليّة شكسة، حين يسألونني عن عدد أطفالي، وعندما أجيبهم أنّي لم أتزوّج بعد لأنجب أطفالا، يسألونني عندئذ ذلك السّؤال المستهلك غير المرغوب فيه، هو مستهلك لأنّه كذلك فعلا، وهو غير مرغوب فيه ليس لأنّي من أولئك

الّذين يستنكفون عن ذكر أعمارهم إيثارا للسّلامة، حيث أنّهم يمنّون أنفسهم بالشّباب الدّائم، ولكنّي أربأ بنفسي عن الخوض في أشياء لا تستحقّ عناء الحديث فيها.... «كم عمرك الآن؟» أو «كم سنّك؟!».... رغم تذمّري كنت أجيبهم، وبكامل الصّراحة والوضوح اللّذين عرفتهما في نفسي.... الآن، إذا أجريت عمليّة طرح بسيطة، بحذف سنة الميلاد من السّنة الحاليّة كان الحاصل: ثلاثا وثلاثين سنة وستّة أشهر وأربعة عشر يوما بالتّمام والكمال.... سؤال آخر كنت أرغب لو سألونيه على ما فيه من نفس فلسفيّ صعب ومحيّر: «كم عمرك الحقيقيّ؟!!»

.. سادتي، عمري الحقيقيّ شهران وعشرة أيّام لا تزيد يوما ولا تنقص يوما!!

***[حكاية]

(السّاعة الخامسة وعشرون دقيقة مساء)

تيسير حامد، أحد الّذين حرمتهم الحياة كثيرا، واضطرّتهم الظّروف إلى الهجرة حتّى يجرّب حظّه خارج بلده.... رمت به المقادير إلى أرض غير الأرض، وأناس غير النّاس.... عمل كلّ شيء.... وانتقل بين مدن عدّة، إلاّ أنّ كلّ مدينة كان يحطّ رحاله فيها لا يجاوز فيها حدودا رسمها لنفسه، هي معالم الطّريق الّتي كانت تقوده إلى مقرّ عمله وتنتهي به في ذلك المسكن البائس الّذي أجّره له أحدهم مقابل مبلغ زهيد.... كان يكلّف نفسه جهد طاقتها وفوق طاقتها حتّى يجمع «فلسا على فلس»، كما كانوا يقولون، عاش الحرمان والجوع والخصاصة، حتّى تمكّن في النّهاية من جمع ثروة لا بأس بها كانت كافية أن تجعله يعيش البقيّة الباقية من عمره منعّما في البلد الّذي كان فارقه فقيرا عريانا محروما، وفي الوقت الّذي حزم فيه أمره، ونوى العودة أخيرا إلى مسقط رأسه،

نصحه بعضهم قائلا:

.أنت، يا تيسير، عشت في هذا البلد كالخيال، لم تعرف فيه شيئا غير المسكن الّذي كنت تسكنه ومقرّ عملك، وقد ابتسم لك الحظّ أخيرا، فأكرمك اللّه ببعض الثّروة، فلم لا تستمتع قليلا.... هذه الميادين أمامك، والمتنزّهات، ودور الأوبرا، والفنادق، والمسارح، وغير ذلك كثير لا يحصى ولا يعدّ. ألق بنفسك بين أحضان الحياة الخضرة النضرة، ولو لبعض الوقت، حتّى إذا ما سألك أهلك عن البلد الّذي عشت فيه زهرة شبابك وهزيعا من كهولتك الفانية، عرفت، على الأقلّ، كيف تجيبهم، دون أن يبدو منك تقصير أو حيرة...!!

اقتنع تيسير أخيرا، ولم يكن أمامه إلاّ أن يقتنع!!... زار أماكن عدّة، ألمّ ببعض دور المتعة، جازف بفضلة من بعض ماله لشرب بعض كؤوس من البيرة المحلّية، تعرّف إلى بعض رفقاء العمل الّذين خالطهم لأكثر من خمس وعشرين سنة، ولكن على السّطح فقط....

ومن المضحك المبكي، أنّ خاتمة مطافه كانت بإحدى المقابر على تخوم بعض الكنائس القديمة، وقد لاحظ أثناء جولته شيئا غريبا لم يجد له تفسيرا مقنعا، وكان عليه أن يسأل الحارس الّذي يعمل هناك عنه.... كانت الكتابة الّتي قرأها مخطوطة على شواهد القبور توحي له أنّ أولئك الأشخاص الّذين منهم من عاش حتّى بلغ أرذل العمر لم يعيشوا في الحقيقة إلاّ بعض الدّقائق، وعلى الأكثر بعض الأيّام الّتي لا تكاد تعتبر في حساب الزّمن.... كان ذلك شيئا لا يصدّق بالنّسبة إليه وهو الّذي اعتاد أن يحتسب سنّه من يوم أن قذفت به ظلمة الرّحم إلى العالم الواسع الرّحيب.

قال يسأل الحارس:

.كيف يعيش الرّجل الدّقيقة والدّقيقتين وهو الّذي تشير التّواريخ أنّه قد بلغ كذا من العمر؟

تطلّع إليه الحارس مبتسما ابتسامة فيها من السّخرية بقدر ما

فيها من الشّفقة:

. نحن، هنا، نحتسب عمر الرّجل بما انتهبه من أويقات صفاء ومتعة، وهؤلاء الّذين اطّلعت على شواهد قبورهم، لم يعيشوا في الحقيقة إلاّ الثّواني أو الدّقائق القليلة الّتي اغتصبوها من عمر الزّمن!!

وعاد تيسير أخيرا إلى وطنه، ولم يلبث إلاّ قليلا حتّى تبدّدت ثروته الّتي جمعها طيلة سنوات كدّه وضناه على أيدي أبنائه.... كان ذلك أكثر من أن يحتمله، فألمّت به الأزمة الّتي كانت فيها وفاته، ولكن قبل أن تفارقه الرّوح، سأله أبناؤه عن رغبته الأخيرة، فقال بحسرة لا تخفي نكبته ومرارته:

. شيء واحد، لا غير، أريده منكم.... إذا أهلتم عليّ التّراب، واكتنفتني ظلمة القبر، اكتبوا على الشّاهدة: «هنا يرقد الفقيد تيسير حامد، من الفرْج إلى القبر!!؟!!»

[التّاسع من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّابعة وثماني دقائق مساء]

.... وامتدّت بيني وبيني صروح العشق، فذكرت شيوخي، وتحاملت على بقاياي إذ زادت بي صبواتي، انتظرت السّاقي ليهرق في القلب كنف التّغبير، ويعطي لساني أولى كلمات النّزع إلى الرّوعة والتّرويع، في شطحي سمعت شطحات الصّوفيّة، وبدا لي شطحي أشبه بالسّكنات بلا قلب يكنف قلب السّاعين إلى خبز الرّفد القيّومي، ذكرت أولى الأحرف قالها شيخي: وصعدت إلى الملأ، فابتدرتني ملائك ربّي، قلت أنا أنت، وأنت أنا، إذا حللتَ حللت-، وإذا حللت- حللتَ، وتناظرت مع

مولاي فصرنا، لا فرق ما بيني وبينه، أقول فيعطي، ويقول فأعطى كلّ ما بين كان الكون ونونه....

[العاشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّابعة وثلاث وأربعون دقيقة]

وتجلّت لعينيّ المراقي، فذابت نفسي، وسال القلب مـــــن(....)
حرّ التّلاقي، أيا ربّ تدانيت تدانيت فما لي عندك مـــــن (....)
رفد الممسوسين برقياك، ومالي في كينونة إنّيتك العليـــــا(....)
من الإسباغ الممزوج بخمر المفضين إليك ساعة شطح، ما(....)
بيني وبينك بين القرب، فيا ربّ امدد إليّ حبل وصالك (....) كي أرقى وأعتنق العشق هوى فيك وإليك وكي(....) يهديني القلب إلى ذوب فيك، وما أشهى أن يفتضّ(....) العاشق عشق المعشوق، ذكرت الصّحبة والإخوان، ومن(....) سكروا إبّان النّفحة من طلاّب ومن جلاّس، ومن عشّاق(....) ومن سيّاح صوفيّة، فامتلأت نفسي، ورغبت أيا ربّ بأن(....) تعطيني ساعة لقياك بعض أحايين الكشف وسرّ الإعتاق(....) النّورانيّ، فأمتدّ إليك بهم من كلّ الأقطاب السّتّة، ونعلن(....) آيات الحبّ، وشوق السّيّاح إلى الإحلال وموتنا فيك....

[الحادي عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّادسة وثلاث عشرة دقيقة مساء]

كتبت التّاريخ، وحدّدت السّاعة، وكنت على وشك تدوين بعض الملاحظات، إلاّ أنّ الأفكار خانتني، والخواطر لم تواتني، فقرّرت حفظ

مدوّناتي . خصوصا وأنّي أكتب مباشرة على جهاز الكمبيوتر. وإغلاق «وورد»، لكنّ الطّريف في الأمر أنّ الجهاز أعلمني بوجود خطأ ما، وبالتّالي تعذّرت المغادرة، فكان لزاما عليّ أن أكتب شيئا ما، ولو كان هذا الشّيء مجرّد إعلام بما حصل لي....

[الثّالث عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة الثّانية عشرة واثنتان وعشرون دقيقة صباحا]

«إذا أعوزك الصّمت، فلا أقلّ من أن تعتنق الجنون!؟!»

من قال ذلك؟ من جازف بقول ذلك، على الملأ، ودون تحفّظ؟! أعتقد أنّ الّذي تجرّأ على قول ذلك، قد يكون قال ما قال وهو وحيد، معزول، مستوحش، لا عزاء له من رفقة تؤنسه، أو صحبة تسرّي عنه؛ في لحظة من لحظات اللّيل الّتي لا تكاد تأتي إلاّ وهي مجلّلة بهالة من هالات الفتنة والإلغاز!!... كثيرا ما تخيّلت حياة لا ليل بها ولا كنّ، وكثيرا ما تساءلت: «ماذا لو ينعدم اللّيل؟ ماذا لو تستحيل الحياة، كلّ الحياة، إلى مجرّد نهار مستديم، تسفعه سياط الشّمس اللاّهبة!!»... قد يجد البعض تساؤلاتي ضربا من ضروب العبث واللاّمعقول، وقد يرى فيه البعض الآخر شيئا لا جدّة فيه ولا طرافة، أو بمعنى من المعاني تحصيل حاصل، لعلمهم بوجود بعض المناطق الّتي لا تعرف اللّيل، وهي إن عرفته فلا يكون ذلك إلاّ لفترة محدودة.... أن تجنّ، هو أن تفقد الإحساس بالأشياء، كما يحسّ بها بقيّة النّاس، أن يكون لك إحساس من نوع آخر تنعدم فيه الفواصل والحدود والأبعاد والمسافات، أن تسمّي الأشياء وفق ما ترغب أنت، لا وفق ما يراه الآخرون، أن تكون ببساطة في كفّة، وأن تكون البقيّة، كلّ البقيّة، في الكفّة الثّانية، أن تقول في نفس الوقت، آمنت ولم أؤمن، أن تقول أنا

الإنسان وأنا الهذيان، أن تقول الصّمت الّذي لا يقال، وأن تحتجب وراء الكلام لتفرز صمتا جديدا، هو صمت الإمكان والكينونة، وصمت العدم والفردانيّة، أن تجنّ هو أن تكون داخل مؤسّستك الخّاصة، حيث لا قيود على ما تقوله وما تفعله، هو أن تصوغ مفهوما جديدا لأشيائك وأسماء الآخرين، أن تفرح وأن تحزن، أن تقسو وأن تتأثّر، أن تشكّل مفاهيمك الخاصّة عن كلّ شيء، عن الكون والإنسان، عن أنطولوجيا العالم، عن الطّبيعة والقيم والقانون، أن تنسف بضربة واحدة كلّ شيء، لتبني « كلّ شيء عاقلا. مجنونا!!»، أن تجنّ أن تبرأ من عقلانيّة الآخر الخرائيّة غير المجدية، ببساطة أن تعقل حين تبرأ من جنون الآخر غير العقلانيّ!!

[الثّالث عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّابعة وخمس وثلاثون دقيقة مساء]

أحيانا يقول الصّمت ما يعجز كلّ الكلام عن قوله، يقول الصّمت بصمت ما لو اجتمع كلّ الكلام ليصوغه في كلمات لما قدر على غير همهمات مبهمة لا تجدي شيئا؛ ترى من أين للصّمت بهذه القدرة على الصّخب السّاكن؟! من أين للصّمت بهذه الطّاقة المدمّرة على تحطيم قيود مواضعات الكلام الّتي لا تزيد على أن تكون مجرّد رياء القصد منه تشويه حيويّة قوى الباطن...؟! الصّمت وحده من شأنه أن يحفظ للإنسان تلك المسافة الّتي تخوّله أن يكون هو، في لحظة ما، دون رتوش أو أصباغ، أن يمارس فعل الوجود الأصيل الّذي لا يقبل بأيّ حال القسمة إلى أكثر من «واحد»، العدد السحريّ، وحدة العالم، وحدة الكون، بكلّ بساطة وحدة الإنسان، الّذي هو أصل كلّ شيء، ومبدأ كلّ شيء....

كان الصّمت، كان الهيولانيّ، في منابع الظّلمة الأبديّة، محتجبا، ينتظر لحظة البزوغ والإشراق، وكان الكون سديميّا، نقطة الصّفر نقطة الاتّحاد ما بين الأقطاب، ولحظة البدء لحظة خلق، ما بين النّاريّ المتأصّل في ناريّته، والهوائيّ الّذي ينزع إلى ترابيّة آخذة بعلائق الماء، نحت الصّمت على صدر الكون آيات السّكنات الأولى، فانزلقت من بين ضبعيه الرّاسيات من الجبال، وانفلقت من شعب الماء كلّ الأنهار، وبحار الجزر الأولى، وانسابت من بين الكفّ اليمنى، وتجاعيد اليسرى بقايا ما كانت حملته سفينة نوح من طير الجوّ، وحيوان الأرض، وحين انطلقت أنفاس الصّمت من الحبل السّريّ النّاتئ كان الإنسان، لم يطلق لحظة سقطته إبّان مخاض غير استنساخ من بعض حروف لم تكتب، لم تقرأ، لم يجرؤ أحد أن ينطق منها ولو جزءا، الصّمت يقول عنّا ما نخجل منه، يحتضن فينا ملايين الأسماء، ويكنف آلاف الأشياء، الصّمت رسول اللّحظات الأولى، وما الإنسان سوى قبس من خفض الصّمت، لا شيء سوى حرف لم يخلق بعد، وقد يحتاج دهورا كي ينطق...!!

[***حكاية]

[السّاعة العاشرة وثماني وعشرون دقيقة صباحا]

لم تكن رائحة السّجائر تزعجني من قبل كما هي الآن...!! منذ ما يقرب من ستّ سنوات تقريبا، لم أكن أتصوّر أنّي سأنقطع عن التّدخين، كما لم أكن أتصوّر أنّ حياتي يمكن أن تستقيم أو تحلو دون ذلك الأرج المحبّب الّذي أحسّ به يغزو كلّ خليّة من خلاياي كلّما أمسكت بالسّيجارة بين شفتيّ فأشفط منها أنفاسا منهومة متتابعة، وأنا أخطّ في بعض أوراقي سطورا من قصيدة، أو بعض الصّفحات من

أقصوصة أو رواية.... وحتّى عندما أقلعت عن التّدخين في الثّالث من أيلول سنة خمس وتسعين وتسعمائة وألف. هذا التّاريخ أتذكّره جيّدا كما أتذكّر كلّ حادثة في سجلّ حياتي المأسويّ .... قلت وحتّى عندما أقلعت عن التّدخين لم تكن رائحته لتزعجني إذا صادف أن كنت بصحبة بعض المدخّنين من أصدقائي الخلّص، بل على العكس من ذلك، كانت ترجع بي الذّاكرة إلى الوراء، إلى تلك الأويقات الأثيرة الّتي كانت السّجائر فيها. بالنّسبة إليّ. تعادل الحياة بأسرها.... لا أدري ماذا حصل على وجه التّحديد؟! لا أدري ماذا طرأ عليّ خلال الشّهر الأخير؟! لا أدري أيّ بلاء أصابني؟!... لقد صارت السّجائر بلاء مبينا، بعدما كانت قرينا مقيما، وصارت رائحتها تبعث فيّ من التّقزّز بقدر ما كانت تبثّه في داخلي من لواعج الفتنة وأسباب الاستئناس والطّمأنينة!!؟!

[***تتمّة الحكاية]
[السّاعة السّابعة واثنتان وأربعون دقيقة مساء]

ابتليت بصديقي «ح»، ولم أكن أعرف أنّي سأبتلى به بمثل هذه القسوة الفاجعة!!... في هذه المدينة الزّئبقيّة الفاجرة، قلّما تنام، فإذا نمت فنوم ذلك الباحث عن السّلوان من الحرارة القاتلة، والفراغ الّذي يطاردك أنّى حللت أو توجّهت، ولكن مع ذلك تظلّ في حاجة إلى النّوم حتّى تصحو ثاني يوم. مهدود الحيل. كيما تنضبط بقواعد دوام ليس له ما يبرّره سوى أنّ هؤلاء النّاس هنا يروق لهم أن يروا كلّ وافد من هؤلاء الوافدين، سواء القادمين من وراء عباب المحيط، أو أولئك القادمين من تلك البلدان القابعة في النّصف الغربيّ من الوطن الكبير، يتكأكأون تحت حمل أعبائهم اليوميّة، ليضحكوا منهم ما شاء اللّه لهم أن يضحكوا، ويشمتوا بمعاناتهم الّتي لا تنتهي، في منتديات

فراغهم، وهم مجتمعون حول فناجين القهوة الصّغيرة، والحلوى المحليّة.... خلال أشهر الصّيف الثّلاثة الماضية، اضطررت قسرا إلى تغيير الرّوتين اليوميّ لحياتي، حيث كنت وحيدا، بلا رفيق يؤنس وحدتي، ولا أنيس يخفّف عنّي مؤنة السّكون والصّمت.... كنت أسهر إلى حدود السّاعة الخامسة أو السّادسة صباحا، ثمّ آوي إلى الفراش لأستيقظ في حدود السّاعة الواحدة أو الثّانية بعد الظّهر.... لا أنكر أنّ صديقي العزيز «ح» قد وضع تحت تصرّفي كلّ شقّته الرّحبة، بما فيها، كما أنّه قال لي، وهو يغادر إلى المطار، في السّاعات الأولى من الفجر، بعد أن تعانقنا ذلك العناق الّذي لا يعرف سرّه إلاّ أولئك الّذين يقضون عاما كاملا بعيدا عن الزّوجة والأبناء والأشياء الحميمة الأخرى، في ذلك البلد القابع في سراب عزلته المستحيلة: «اعتبر نفسك في شقّتك، كلّ ما تحتاجه ستجده هناك، في الثّلاجة أو الدّولاب، لا تخجل، فنحن أصدقاء قبل كلّ شيء!!»...

الآن، أشعر أنّ صديقي «ح» قد غدا عبئا آخر من الأعباء الكثيرة الّتي تثقل صدري، بنزوعه إلى التّدخين المفرط، والإمعان في السّهر إلى السّاعات المبكرة من الفجر.... يظلّ السّاعات الطّوال، في شقّتنا، أمام التّلفزيون، بيده جهاز التحكّم عن بعد، وهو ينتقل من قناة إلى قناة، دون هدف محدّد على وجه التّحديد، سوى التخلّص من ذلك الأرق المزمن الّذي أصبح يطارده منذ حلّ بهذا البلد القصيّ.... (أنا لا أستطيع النّوم، في مثل هذا الجوّ المشحون، الأصوات، أيّ صوت، يقلقني، يزعجني، وحتّى إذا كنت نائما، فإنّ أيّ ضجيج .ولو كان يسيرا . من شأنه أن يقتلعني اقتلاعا من لذاذة النّعاس ومملكة النّوم، أضف إلى ذلك رائحة التّمباك القويّة الّتي كانت تتسرّب إلى غرفتي من تحت الباب، عانيت كثيرا، وما زلت إلى الآن أعاني، دون أن أجرؤ على مصارحة صديقي «ح» بما يجول في خاطري، كنت آمل أن يتفطّن .

بإحساسه المرهف . إلى سبب بلائي، سيّما وأنّي أصبحت أتصرّف حياله بطريقة فيها بعض الجفاء الّذي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يخفى على أحد، في الرّدّ الجافّ على تحيّته، في تفادي النّظر إليه، في الانقطاع عن زيارته بشقّته.... لكن، من دون جدوى!! ضاع كلّ الجهد هباء، وظلّت المأساة تتكرّر في كلّ ليلة، حيث الهروب القسريّ من الشّقّة إلى حدود السّاعة الثّانية والنّصف صباحا في بعض الأحيان، والغضب المكبوت في الخارج على مقعد الحديقة الخشبيّ.... كنت أريد أن أنفّس عن غضبي بالكلام، كنت أريد أن أخاطب صديقي «ح»، كنت أريد أن أشرح له الأمر، كنت أريد معاتبته ومصارحته، ولكنّ الكلام . الكلام الخرائيّ . لا يطاوعني.... كنت أجأر، كان كلامي مجرّد أنين أشبه بالخوار، مجرّد همهمات بلا معنى، تتدحرج من بين شفتيّ مسكينة مقهورة!!)

صديقي «ح»:
إليك تلوّمي،
وتقبّل اعتذاراتي!!؟!

[الخامس عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة الخامسة وستّ وثلاثون دقيقة]

شيخي، شط بي المزار، وتقطّعت بي سبل النّجـاء(....) فلمن أجأر بالضّراعة، ولمن أكل أمري، ولمن أفضي بحشاشة نفسي(....) ومن يستخفّ حملي، وقد ناء به كاهلي(....) القلب مذ فارقتموه خواء، والرّوح من يوم ما سلوتموها عفاء(....) فهل يطمع الظّمآن في جرعة من شربكم، وهل يأمن الحيران في رحبكم (....) يا شيخي، نبذني الأحباب، وتغيّر عليّ وجه الأقران والصّحاب(....) فلم يكل المحبوب محبوبه إلى

غير طيب ملتقاه، وهل يسلو النّسيب نسيبه(....) قد ألجأني اليأس إلى طلاب غيركم، وطرقت جميع الأبواب، وتوسّلت بما يتوسّل به المريدون إلى ساداتهم أهل الكرامات، كانت الأبواب من دوني . شيخي . مغلقة، والأستار كثيفة الطّبقات حالكة، والأصوات أصواتا، إلاّ أنّ ما بها لا يسكن جوعا، ولا يطفئ غلّة، فترفّق . يا سيّدي .، هذا مريدك قد ضوى جسمه، واكتنفه السّقم والاعتلال من خمصه إلى صدغه، وتضعضع حاله، وتسربل بالبلاء رحله ورحاله، أقعدني الضّرّ، ونبت بي المضاجع، حتّى ما أعي من دهري ليلا أو نهارا، ونابذني العشير، وافتقدت من حولي جليسا راحما أو أنيسا مشفقا، ولا شفيق عطوف يهوّن وحدتي، ولا زوجة تستروحشتي، ولا ولد أرى فيه دابر أيّامي، فهل يرضيك أن أشقى، وأن ترى ما بيني وبيني، وتسمع ما يهجس به روعي إلى أضلعي، ثمّ أنت من بعد ذلك تسلو، وتعجز حيلتي(....)

أدر الكأس في جنح الظّـــــــلام
واسقني من خمرة تشفي السّقـام
خمرة في دنّها قد عتّقـــــــــت
قد سقيها كل صبّ مستـــــــهام

(***) البيتان الأوّل والثّاني لحسين بن منصور الحلاّج

[السّادس عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّادسة وثلاث وثلاثون دقيقة]

أنا لم أنسك، ولم يدر في خلدي، ولو للحظة واحدة أن أتجاهلك، أو أمنّي نفسي بسلوّك والنّبوّ عنك؛ ولعلّك عاتب عليّ لبعض تقصيري، فالصّفح الصّفـح...!!

أمس، بحثت عمّن أبثّه دخيلة نفسي، وكان المكان شبه خال، فطرقت كلّ الأبواب الّتي أعرفها، وأمعنت في اللّجاجة، ولكن .(فقد أسمعت لو ناديت حيّا // ولكن لا حياة لمن تنادي)..... غادر الأصدقاء جميعهم، لا أعرف إلى أين، وبقيت والصّمت، عدوّين لدودين متواجهين متناظرين..... كنت أشعر برغبة قاهرة في أن أفضي، في أن أتقيّأ أفكاري، على مرأى ومسمع من شخص ما، من أحد ما، من شيء ما، ولمّا أعيتني الحيلة، لا أعرف كيف نبتت صورتك في ذهني، وأينعت، بدوت لي بكلّ فتنتك الماضية، وبراءتك، وخيّل إليّ للحظة، أنّي أمسك بالعالم أجمعه بين يديّ..... فيما مضى، كنت أعتقد أن لا شيء على الإطلاق يمكن أن يشدّني إليه، أو أن يسترعي انتباهي لأكثر من يوم، أو بعض يوم، ولكنّي اكتشفت أمس، أنّي كنت مخطئا؛ أنت، أو بالأحرى صورتك الآسرة، سرّ لم أجرّبه من قبل، شيء أشبه بالسّحر الّذي لا فكاك منه، لا شكّ أنّك خلاف جميع من عرفتهم، لا ريب أنّك لغز من الألغاز الكثيرة الّتي طالما بحثت لها، من قبل، عن مفاتيح لاستكناه خباياها، ولكن عبثا...!!

(المهمّ، لنؤجّل لحظة المكاشفة إلى وقت آخر، فلديّ السّاعة ما هو أبلغ من البوح، وأجدى من المكاشفـة....)

[*** سرّ]

هو سرّي، بلا ريب، حملته دهرا حتّى نؤت به، وتهالكت تحت ثقله حتّى كاد يفنيني ويقصم ظهري!!

الحنين، هذا الّذي يحسّه الجميع، ويتعذّب به الجميع، فلا يكاد أحد من النّاس يتحلحل عن مواطنه، ومنابت صباه، حتّى ترقّ روحه،

وتهافت نفسه، فيذكر الدّيرة والأحباب، والأطلال والدّيار، هذا الحنين لم أجرّبه، بل إنّي لا أكاد أعرفه؛ فهل تراني شاذّا؟! هل أنا شخص غير سويّ؟! أم أنا بكلّ بساطة كائن فوق الأمكنة، وكلّ الأزمنة؟! هل خلقت لأكون مختلفا عن الجميع؟! أم أنا بكلّ بساطة كائن مسكين منذور للمأساة والموت؟!... (ص/ ع/ ش)، الفتى. بل الشّابّ المكتهل، الّذي لم يعش عمره، وتداولت عليه المحن والإحن، حتّى لم تدع فيه عظما لمصمص، أو قطميرا من لحم لدود الأرض، الّذي لا شكّ أنّه يتلهّف شوقا إلى الجثّة المتهالكة النّتنة!!. لا يعدو أن يكون مجرّد طيف، خيال غير متجسّد، ولا يطمح، في يوم من الأيّام، أن يتجسّد، يفضّل العتمة، ويتمنّى لو تتاح له فرصة أن يختلي إلى الأبد بالسّكون السّرمديّ الأبديّ، تستهويه الأبواب الموصدة، والأنوار المطفأة، والسّتائر السّميكة الكامدة، والمفاتيح الصّغيرة، الصّغيرة جدّا، الّتي لا يعجزه أن يدسّها في جيب بنطلونه مطمئنّا إلى أنّ أحدا لا يمكنه بأيّ حال من الأحوال أن يكتشفها ليسرقها منه...!!

(ماذا يعني لي انتمائي؟! الأرض؟! المكان؟! العلاقات؟! لا شيء على الإطلاق، مجرّد كلمات بلا معنى، مجرّد أصوات بلا جرس مميّز!! أخجل. إلى حدّ الموت. أن أتلفّظ بإسمه، (...)، أحاذر أن لا ينزلق إسمه بين شفتيّ، كأنّه عدوى مرض مزمن، أو وباء، أو ذكرى طاعون، ألمّ بأرض فحصد أخضرها ويابسها، تستهويني أسماء أماكن أخرى، أحنّ إلى أراضي الصّقيع الدّائم، والجليد المقيم، أتعاطف مع من ليسوا من نفس جلدتي، تغزوني رغبة كافرة في الطّيران، في الانسلاخ عن جلدي، ولكن أصطدم بصخرة الواقع الصّلدة الجلمود، تتحالف كلّ الأشياء ضدّي، لتذكّرني بانتمائي. بانسحاقي. وبموتي!! (ص/ع/ ش) لا شيء!!

[يوم الاثنين،
التّاسع عشر من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة السّابعة وستّ وأربعون دقيقة مساء]

شيء بداخلي يهجس لي أنّ من هو مثلك أبعد ما يكون عن الشّماتة والتّشفّي والتّلذّذ بعذابات الآخرين؛ وأنّ من هو مثلك، لا شكّ إذا صادف وأن قابل أحد المتألّمين المجدودين مثلي، سترقّ نفسه وتذوب روحه رحمة وإشفاقا!!... أجل، إنّي أتألّم، وألمي الّذي يطيف بي الآن فوق كلّ الآلام والعذابات!! أجل، إنّ الألم الّذي أحسّه يجلّ عن الاحتمال والوصف!!

أيّها الصّديق . يا من يحلو لي أن أخاطبه بكلّ هذه الحميميّة، ولم أتوصّل بعد إلى معرفة إسمه:
*** إذا عنّ لك أن ترى المأساة منطبعة بكلّ صرامة وقسوة على ملامح أحد ما.... إذا راق لك أن تحاصر مكامن اللّوعة، وتسبر معاني الألم والخوف، وتضع يد سطوتك على أغوار الجروح المنكوءة، وحدود الفجيعة، فما عليك إلاّ أن تتأمّل جيّدا في هذا الوجه المبذول أمامك اللّيلة.... ما عليك إلاّ أن تسير قليلا حتّى تقترب من مصدر الضّوء الشّحيح في نهاية الشّارع المؤدّي إلى رحابة المكان، حيث أجرجر قدميّ المتعبتين، دون هدف محدّد على وجه الدقّة.... في تلك اللّحظة، كانت تحضرني مقولة الفيلسوف الرّئيس، كنت مسكونا . كنت محاصرا ومدمّرا . بجملة ابن سينا، ولا أدري لماذا: «إذا كان المرض خفيّا في الباطن، استحال البرء منه، وكان الهلاك!!» بلى، كنت مريضا إلى حدود الإرهاق، وكانت تنتابني أكثر الصّور فظاعة، وأشدّها قسوة، وكنت أشعر كأنّ العالم، كلّ العالم المحيط بي، ينهار دفعة واحدة،

ويتحوّل إلى مزق صغيرة، قميئة.... لم أكن عدوانيّا في تلك اللّحظة، لم أكن ناقما، ولم أكن أحسّ تلك المشاعر الّتي أحسّ بها عادة تجاه من لا يروقني، كنت فقط أتألّم، وكنت أحسّ إحساسا غريبا باللّذة، وأنا أتألّم.... كنت أحاول أن أفلسف ذلك المرض الّذي أحسّه. وعادت بي الذّاكرة القهقرى إلى سني اليفاعة، والطّفولة المتقدّمة، إلى ضجّة الفصل، في السّنة النّهائيّة من التّعليم الثّانويّ، وإلى مدرّس العربيّة، وذلك الشّيخ(***) الّذي كان ينتقل بنا بين الحصّة والحصّة إلى عالم أبي هريرة السّحريّ الغرائبيّ، وفاتنته الملغزة ريحانة المحيّرة دائما.. كنت في تلك اللّيلة أبا هريرة، وكنت في قمّة مرضي قبل الإبلال، وكنت أحسّ. كما كان يحسّ. أنّه لا بدّ من بعض المرض، حتّى يرتدّ الإنسان إلى دخيلة نفسه، ليخاطب بداخله أطيافا لم يكن يجد الوقت الكافي لمخاطبتها ومحاورتها إبّان إقبال حظّه واكتمال صحّته وعافيته!!

[...استطرادات]

*** استطراد أوّل:

دخلت إلى المكتب.... جلست على المقعد.... انكفأت على نفسي، مطأطئ الرّأس، وقد حملتني أفكاري، بعيدا، بعيدا جدّا، إلى عالم آخر، عالم غير منظور، ليس له من عالم المكتب إلاّ الإطار الكامد المطموس.... دخل.... أحسست به.... أطلق السّلام.... رددت تحيتّه دون أن أرفع إليه رأسي.... لم أعن. في البداية. بتحديد هوّيته، وكان لديّ إحساس غامض أنّه ربّما يكون رئيس القسم.... كان عمر، «ابن الإنسان»، «الرّجل. الطّفل»، كلّ الهدوء والسّكون، التّعزيّة الوحيدة في هذا الفضاء الذّي لا تطالعك فيه سوى صور العطالة واللاّمبالاة.... أنت لا تعرف عمر، وأنا لست مستعدّا السّاعة للحديث عنه.... ربّما

يكون لديّ متّسع للحديث عنه في وقت آخر!!

عمـر: كيف حالك، يا أستاذ؟
أنـا: ليس على ما يرام.
عمـر: لماذا، يا أستاذ؟
أنـا: إنّي أتألّم كثيرا.
عمـر: لا، لا، يا أستاذ، أرى أنّك بخير.
أنـا: هذا ماتراه في الظّاهر فقط عمر.... ولكنّي في داخلي أتعذّب!!
عمـر: كيف، يا أستاذ؟!
أنـا: الألم أكثر من أن أحتمله، فهل تعرف لي من دواء؟!
عمـر: لماذا لا تسافر، يا أستاذ؟!
أنـا: لا أستطيع، يا صديقي!!
عمـر: لماذا؟
أنـا: لا تسألني عن السّبب.

في هذه اللّحظة، دقّ الجرس، التفت إليّ عمر، وقال:
.أستودعك الله، يا أستاذ.

ثمّ بعد قليل، وهو ينحني بقامته الطّويلة حتّى بلغ فمه أذني:
.هل تسمح لي بالذّهاب إلى الجامع إذا استأذنتك في ذلك.
.لك ما تريد.

*** استطراد ثان:

حملت أمتعتي القليلة، الكتاب والدّفترين . دفتر الغياب ودفتر تحضير الدّروس ، واتّجهت صوب الفصل، حانت منّي التفاتة إلى

الافريز الخلفيّ، كان ناصر يقف هناك، يتأمّل البحر في غفوته الصّباحيّة، تجاهلته، ولكن يبدو أنّه قد رآني فجاء يسعى ورائي، فتحت الباب، أضأت الأنوار، شغّلت المكيّف، ووضعت أشيائي فوق الطّاولة، ثمّ انصرفت إلى الخارج، سرحت بطرفي في الجانب الآخر من مبنى المركز....

ناصر: تبدو غاضبا اليوم، يا أستاذ!!
أنا: لا، لست غاضبا، ولكنّي متعب.
ناصر: لا تحاول مغالطتي، يا أستاذ، فأنا أعرف متى تكون غاضبا.
أنا: أقسم لك أنّك مخطئ.
ناصر: فماذا بك إذن؟!
أنا: إنّه ذلك الشّعور الّذي يحسّه من يقترب من نهايته المحتومة، يا صديقي.
ناصر: أرى أنّك متشائم جدّا اليوم، يا أستاذ.
أنا: إنّه الإحساس الّذي أشعر به، وإحساسي لا يكذبني أبدا. فما عليكم إذا كانت النّهاية وهي لا محالة آتية. إلاّ أن تبحثوا لكم عن مدرّس جديد....

وما عتم أن أقبل بقيّة الطّلبة، فتبادلنا التّحيّات الصّباحيّة المعتادة، وفجأة التفت إليهم ناصر، وقال:
عظّموا أجر الأستاذ، أيّها السّادة.
فقالوا بصوت واحد مشفقين مستغربين:
فيمن؟
فأجابهم:

.في شخصه، فهو يحسّ أنّ نهايته قد اقتربت.
فما هي إلاّ أن علت ضحكات رفيعة رنّانة في المكـان، ودخلنا . جميعنا . إلى الفصل!!

[يوم الثّلاثاء،
العشرون من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)
السّاعة الواحدة وستّ وثلاثون دقيقة صباحا]

(***) الشّيخ الّذي أعنيه هو الأديب والرّوائي التّونسيّ محمود المسعدي صاحب:
..«حدّث أبو هريرة قال ...»
..«السّدّ»
..«مولد النّسيان»

[يوم الثّلاثاء،
الواحد والعشرون من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)، الموافق للرّابع من شهر رمضـان (١٤٢٢) ،
السّاعة السّادسة وثمان وثلاثون دقيقة مساء]

أدرك جيّدا أنّه لن يفوتك . وأنت صاحب العين اللّمّاحة والبديهة المتوقّدة . أن تجبني بملاحظتك المقلقة المتحديّة، وهي أنّه لماذا منذ بدأت في تدوين هذه المذكّرات لم ألجأ إلى التّقويم الهجريّ إلاّ في هذه المرّة، أو على الأصحّ، في هذا اليوم بالذّات؟!! وربّما تكون قد تساءلت بينك وبين نفسك: هل هي بداية وعي ينبثق من القلب والوجدان ليغمر

الفكروالعقل جميعا؟! أم هي مجرّد نفحة من نفحات الحنين إلى شيء ضائع منسيّ قد عجزت كلّ قوى العالم عن استنقاذه، فتبادر إلى ذهنك التّاريخ . حتّى لا أقول شيئا آخر فأتّهم بتلك التّهمة الّتي تعرفها جيّدا، وتعرف عقوبتها الّتي لا يمكن أن تقلّ عن طلبة الدّم والحياة . كآخر وسيلة للظّفر بالسّكينة وهدأة البال؟!... سوف لن أدعك لحيرتك طويلا، كما سوف لن أروم مشاكستك، على غرار المرّات السّابقة، فأنا اليوم . وخلافا لكلّ الأيّام الّتي ولّت ومضت . أرغب في إنهاء هذا الحديث، أو المناجاة، بأسرع ما يمكن، وبأسرع ما أستطيع، وليس ذلك رغبة في مقاطعتك، أو الضّجر بصحبتك وأنسك، ولكن لظروف طارئة لا يعلم هولها وحدّة وطأتها إلاّ الله تعالى.... وقد فكّرت اللّيلة أن أخلد إلى الرّاحة، وأؤجّل الحديث إليك في يوم آخر، إلاّ أنّ نفسي لم تطاوعني، ووجدتني، دون إرادة منّي، أتحامل على نفسي رغم مرضي وقلّة حيلتي، وأنهض إلى موقفي المعتاد أمام الحاسوب، لأفرغ إلى صحبتك ولولبعض الوقت، الّذي أعرف أنّه، في الحقيقة، لا يغني شيئا غير مزيد من التّوجع والآلام، على بعد الشّقّة، وشطط المزار....

(حين قرأت رواية «بول وفرجيني» للكاتب الفرنسيّ الشّهير برناردين دي سان بيير، معرّبة بقلم الأديب الفاضل مصطفى لطفي المنفلوطي، وقرأت مقدّمته للرّواية، الّتي قرأت من ضمن ما قرأت من سطورها، أنّه حين صدور هذه الرّواية لم يبق أحد في كلّ فرنسا إلاّ ذرف الدّموع سخينة على الفتيين اللّذين عاشا حياة البساطة والطّهارة والبراءة، ثمّ قدّر لحبّهما في النّهاية أن تذروه الرّياح نتيجة الشّرور المتأصّلة في الطّبيعة الإنسانيّة، ولعلّ مصير الفتيين لم يسلم منه الجميع، أي الوالدتان، وحتّى الخادمان الوفيّان، والشّيخ الجليل الّذي قابلوه كلّهم، في عاصمة جزر الموريس «سان لوي».... استغربت كثيرا كيف لعمل أدبيّ . مهما بلغت قوّته وتأثيره . أن يجعل وطنا بأكمله

يبكي، ويذرف الدّموع، في حين أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد نفحة من نفحات الأدب، لا تبعد أن تكون من تأثير خيال شعريّ ملهم، حتّى قرأت الرّواية كاملة، وأتيت على آخر فقراتها، حينئذ وجدتني . لا شعوريّا . أذرف الدّموع مثلما ذرفوا، وأيقنت أنّ الوطن شأنه شأن الأفراد، يبكي لبكائهم مثلما يبكون، ويضحك مثلما يضحكون؛ وهل الوطن . في نهاية المطاف . إلاّ الشّجرة الفرعاء الّتي لا يمكن أن تزهو إلا بأفراح بنيها وأتراحهم، أحزانهم وآلامهم، بأويقات شقوتهم وأويقات صفائهم؟... ولعلّي لا أعدو كبد الحقيقة إذا أخبرتك أنّ الأمر قد تكرّر في كلّ الرّوايات الّتي قرأتها إلى حدّ الآن:

..«في سبيل التّاج»

..«الشّاعر (أو «سيرانو دي برجراك»)

***إيضاح:

أرى أنّي قد أضللتك، وضلّلت نفسي، فما بدأ بمناجاة وتساؤلات قد انتهى إلى ضرب من هلوسة الأدب لا أعرف لها سببا سوى أنّي كنت إلى حدّ هذه اللّحظة مسكونا بالتّأثير الّذي خلّفته في نفسي النّهاية المؤلمة المؤسية لرواية «الشّاعر»، ومصير سيرانو دي برجراك....

الآن، سوف لن أقول لك شيئا سوى أمر واحد، ربّما قد يقتضيك بعض الوقت حتى تلمّ بخبيئته وتكتنه باطنه:

.. إذا كنت مجدّا في طلب تفسير ما لسلوكي الّذي كنت أبلغتك عنه في بداية الحديث، فما عليك إلاّ أن تتصالح مع نفسك لحظة مرضك.... //

فالسّرّ دائما في المرض، يا صديقي!!

[يوم الخميس،
الثّاني والعشرون من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)، الموافق للسّادس من شهر رمضان(١٤٢٢)،
السّاعة السّابعة وسبع وأربعون دقيقة مساء]

اللّوحة الأولى:
الوقوف على الأطلال

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل

*** لعلّ غيري يكون طالبا للشّهرة والشّرف، ولعلّه أيضا لن يعدم الوسيلة الملائمة لتأثّر ما يظنّه حلم أحلامه، والفخار الّذي سيتوّج به أواخر حياته، وما تبقّى له من ثمالة السّنين الّتي سوف لن يصحبه فيها . إذا قدّر له . إلاّ ذلك الوسام الّذي وهبه، سواء عن استحقاق أو غير استحقاق.... ولعلّه قد يبذل في أحايين كثيرة بعض ماء وجهه، وقد يتوسّل بكلّ الوسائل، ويداهن ويتزلّف، ويوادد ويماحك، ويريب ويستريب، ويشكو ويسعد، كلّ ذلك في سبيل ما رسمه أمامه من الأمنيات المشرقات، والدّرر الّتي ستغدو يوما ما طلولا دارسات؛ أمّا من كان مثلي . في شذوذي ووحشتي، وسوداويّتي ويأسي، وجنوني وتطرّفي . فلا يحقّ له شيء من ذلك، سيكتفي بما ارتضاه لنفسه؛ حتّى هذه الكلمات اليسيرة الّتي أخطّها إليك، وقد لا يقدّر لك أن تقرأها أبدا، فسوف لن أكون آسفا إذا لم تر النّور، ولا حتّى إذا لم يلق إليها ملق بالا، أو ينظر إليها راث بعين الشّفقة والتّعاطف، لأنّي بذات البّساطة الّتي حدثّتك عنها من قبل لا يروق لي شيء مثل وحدتي وانعزالي، ولا يحزّ

في نفسي شيء أكثر من إحساسي بأنّ أحدا . مهما كان هذا الشّخص . يريد أن ينغّص عليّ هذه العزلة، ويحرمني بعضا من حرّيّتي، أو حرّيّتي كلّها، وهو يعلم ذلك حقّ العلم، فلا يرضيه إلاّ قتلي، ثمّ الذّهاب بعد ذلك، وراء تابوت نعيي، إلى حفرة لحدي....

اللّوحة الثّانية:
وصف الرّحلة:

....لعلّها أشبه بالحلقة الّتي رسمتها الآن، هذه الرّحلة، وقد تكون مثلها أيضا منغلقة على انغلاق، لا مخرج من بين ذرّاتها المستحكمة، إلاّ بقضاء النّحب وطلوع النّفس؛ بلا ريب، سيحملك التّصريح أو الإيحاء، إلى رحابة القصائد العربيّة القديمة، وإلى نغمة الحادي الشّجيّة الرّتيبة، وإلى دويّ الأسماء وتلاطم الكلمات الّتي كان جرسها يمتزج بعناصر الطّبيعة الثّائرة من ليل ونهار، وقرّوحرّ، وهزيم رعد ووميض برق، وثغاء شاء وجعير ناقة أو بعير.... تلك صحراء العرب، تلك المرابع والمراتع، أفق الجزيرة، كما رآها الشّاعر الجاهليّ القديم، أو كما هي في الواقع أيضا.... امرؤ القيس . الشّاعر ذو القروح .. الأعشى، قيس بن ميمون، عنترة العبسيّ، عمرو بن كلثوم، الحارث بن حلّزة، زهير بن أبي سلمى، الشّاعر الحكيم، حاتم الطّائيّ، كريم العرب شعرا وضيافة، عن كرمه تحدّث القاصي والدّاني، وبفضله أشادت الرّكبان.... و(أنا) . هذا القميء كحشرة، المنفوخ كجلد طبل . لا أدّعي فخارا كفخارهم، ولا شأوا مثل شأوهم، ولكنّي أشهدك أنّي . مثلهم . عبرت من مبتدأ الرّحلة إلى منتهاها، لا على جسر من الكلمات والحروف، ولكن على ممرّ من الشّوك، والعذابات والآلام، فاشهد لي في موطن لا تغني فيه غير شهادة الأخلاّء الأوفياء....

اللّوحة الثّالثة:

[فلتكن مزيجا من كلّ المدح الهجّاء، وفخر ورثاء، أو داء ودواء، أو كيد ودعاء]

.... «سقى الله أطلال الأحبّة بالحمى....»

وسقاني معهم، في مجمع شملهم، وملتقى ألآفهم، لا يلذّ لي شيء مثل لقياهم، ولا أطيب لي من نفح هو نفحهم.... كنت أعتقد أنّي أستبدل الآن بصحبتهم صحبة خيرا منهم، وأستعيض عن صداقتهم بصداقة هي على القلب أخفّ، وللرّوح أروح، ولكن، خاب ظنّي .والله ، وكذبت أمانيّ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله....

(يقول شيخي أبو النّجدات الهمام، المزاحم في مواطن الحرب الضرغام، الملمّ العارف، المطّلع على آثار الدّابرين والعارفين، النّجيب في مواطن النّجابة، العالم العلاّمة، والطّلعة الفهّامة....

بسم اللّه الرّحمان الرّحيم، وبه نستعين على كلّ معتد أثيم، منّاع للخير زنيم.... أمّا بعد، فإنّي محدّثك عمّن سألتني عنه، وتكبّدت المشقّة للإلمام ببعض سيره وأخباره، من أحسنت إليه فعضّ بفمه يد إحسانك، وتكرّمت عليه، فلم تجد عنده ذكرا للتّكرمة والمعروف، ووا ددته فنابذك، وتقرّبت إليه فنافرك، وجافاك من بعد ذلك، وشتمك عند نامّين عليك متربّصين بك كلّ متربّص، لا همّ لهم إلاّ ثلبك، والزّراية عليك، كريمهم كلئيمهم، لا يصطنع عنده المعروف، ولا تسخو منهم النّفوس.... كنت سألتني .عافاك اللّه ورعاك .عن خبيئة نفسه، وهل هو سيّء النّيّة، أو سليم الطّويّة، فاعلم أنّه ما صفا لك يوما، ولا تقرّب

إليك تقرّب محبّ، وهو منطو على أثرة يطول دونها كلّ درب، لا يوفّر في باطنه إحسانك، لا تكاد تمدّ إليه كراعا إلاّ وطمع في ذراعك، يبيت ليله يعدّد سيّئاتك، ويحصي ما ظفر به منك من المعروف الّذي منحته متكرّما راجيا للمثوبة من صاحب الأجر والمثوبة تبارك في علاه.... ثمّ اعلم. رحمك اللّه. أنّه يعلم ما في نفسك فيتعامى ويتصامم، وكلّ همّه إغاظتك وفقء مرارتك حتّى تموت إذا متّ حسرة وكمدا، ناقص عمر غير مأسوف عليك، يتظاهر بالإحسان وهو مسيء، لا يعتقد الحقّ حقّا إلاّ إذا أخذ بالقوّة والسّطوة، ولا يهمّه بعد ذلك إذا كان ما أخذه ملكا له أو ملكا لغيره، يحسب على النّاس أنفاسهم، ولا يرضى أن يكون في لحظة محلّ الحساب، تحيّرت. واللّه. في أمره، ولا أعلم أهو من العقلاء أم من المآفين الجهلاء، وليت شعري لو اهتديت إلى ما يريد، أو ما ينقم عليك فأستهدي اللّه له وأسترشده علّه إلى نفسه يثوب، وعلى ما فرّط من أمره الماضي يتلوّم ويتوب....

ثمّ اعلم أنّه يتربّص بك، ويتحيّن منك موطن غرّة ليثب عليك كما يثب اللّيث على الفريسة، يبغي بذلك كيلك الدّين دينين، والحساب حسابين، مظنّة منه أنّه صاحب الفضل عليك، وباذل الإحسان إليك، ذلك ما سوّلته له نفسه بغير وجه الحقّ، ولكنّ الله سيجزيه عن وقاحته أسوا جزاء، ويقيد منه.... وأقول لك ربّما تكون مرّت به أويقات لام فيها نفسه وحاسبها، واعتذر إليك بينه وبينها، لكنّ خيلاءه أبى عليه إلاّ أن يسقيك كأس الحسرة حتّى ثمالتها غير عابئ بشيء غير لذّة نفسه ومتعتها.... فيا ليت شعري، وددت لو ساءل نفسه: ماذا جنيت أنت وماذا جنى هو؟! ومن صاحب اليد الأولى على صاحبه؟! وأليس من الأجدر لو كنت صاحب إحسانه بدل أن تكون محلّ زرايته وسخطه؟!

رحمك اللّه. عجبت للطّارئ كيف يكون هو صاحب الملك مطلق

التّصرّف فيه، وكيف يصير المالك مجرّد شيء من أشياء هذا الملك يطأه برجله متى يشاء دون شفقة أو رحمة، كأنّك قد خلقت له من جملة ما خلق له من متعة وشهوات، فمتى يعقل ويراجعه عقله؟ ومتى يدرك أنّ اللّه ما خلق الخلق إلاّ وهو محاسبهم عن كلّ كبيرة وصغيرة ولو كانت مثقال حبّة من خردل؟!! ومتى يزنك بميزان حلمه. إن كان له من الحلم شيء. ليعرف لك أياديك البيضاء، الّتي أقلّها السّكوت عن قتله إيّاك بالحياة قبل الممات؟!! ورحم اللّه العزيز الجبّار من قال ويقول:

«إذا كان حبيبك عسلا فلا تأكله كلّه!!»

والسّلام ختام)

[يوم الجمعة،

الثّاني والعشرون من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)، الموافق للسّابع من شهر رمضان (١٤٢٢)،

السّاعة السّابعة وخمس وثلاثون دقيقة مساء]

***.... ليس لديّ مخطّط واضح عن الحديث الذّي أريد أن أنقله إليك، ويشفع لي في ذلك الوصب الّذي يجتاحني هذه السّاعة، والتّعب المضني الّذي أحسّه ينغل في كلّ جارحة من جوارحي، تضاف إليهما السّوداويّة القاتلة الّتي بدأت أحسّ أعراضها منذ ما يقرب عن الشّهرين أو الثّلاثة.... لا تسألني عن الأسباب الآن. هذه الأسباب الّتي أظنّك ألممت بطرف منها من خلال ما كنت كاشفتك به في الأيّام الأخيرة الماضية.. ولكن كلّ رجائي إليك أن تحتمل تبرّمي وتأفّفي، ولو إلى حين، وتمنحني بعضا من حلمك علّني أستطيع إلقاء بعض من الحمل الّذي يجثم دون رحمة على كتفي....

[أمّا حالي فسيّئة كيفما قلّبتها، فالدّنيا لم تواتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب عليّ لأكون من العاملين لها.]
(أبو حيّان التّوحيدي)

*** انطباعات:

هذه المرّة الأولى الّتي أكتب فيها إليك دون أن أقفل جهاز التّسجيل.... في المرّات السّابقة، كان ينتابني إحساس أنّ الأصوات التّي تصدر منه . مهما كان خفوتها. من شأنها أن تشوّش أفكاري، وتعيق تسلسل ما كنت أودّ الإفضاء به إليك.... اليوم كسرت حاجز العادة، ووجدت في نفسي رغبة ملحّة في الاستماع إلى أمّ كلثوم، وهي تشدو بذلك الصّوت الآسر الّذي قاوم الزّمن ردحا، وسيظلّ يتحدّى الزّمن، كلّ الزّمن، والأصوات الّتي ذهبت، وستذهب مع الزّمن.... «عوّدت عيني على رؤياك»، ترى من كان يقصد السّيّد أحمد رامي بالإسناد الّذي أورده في النّواة الإسناديّة المتكوّنة من مسند ومسند إليه «عوّدت»، ومركب اسمي «عيني»، ومركّب حرفيّ مفعول به يتركّب من حرف الجرّ «على» واسم مجرور «رؤياك»؟! هل كان في ذهنه، قبل أن يكتب، ثمّ وهو يكتب، ثمّ وهو يرمي بالقلم أخيرا على النّضد الذّي لا شكّ أنّه كان يكتب عليه، شخص بعينه كان يودّ أن يخاطبه بتلك الأحرف الجميلة الّتي انتظمتها تلك الكلمات الّتي انتظمت بدورها في عقد من الجمل الفريدة الّتي لا يملك قارئها إلاّ أن يتمعّن فيها إجلالا، ثمّ لا يملك بعد ذلك إلاّ أن يستمع إليها، وقد انتشى طربا، منغّمة وموقّعة على أصوات الآلات الصّادحة والصّوت الّذي يعتبر السّيّد رياض السّنباطي. في جزئه الأكبر . مهندسه ومكتشف مكنوناته السّريّة ومغاليقه المستعصية....

(«عوّدت عيني على رؤياك وقلبي سلّم لك أمـــــري
أشوف هنا عيني في نظرتك ليّ
وألقى نعيم قلبي يوم ما التقيك جنبـي
وإن مرّيوم من غير رؤيـاك ما ينحسبش من عمـــري
قربك نعيم الرّوح والعيـن ونظرتك سحر وإلهـــام
وبسمتك فرحـة قلبـــي عايشين على الأمل البسّام
وإن غبت يوم عنّـــي أفضـــل أنا وظنّـــي
يقرّبك منّـــي ويبعدك عنّـــي
وأحتار في أمري معاه ومعاك»)

*** اعتذارات:

إليه، وحده، صديقي فؤاد.... أنت لا تعرف صديقي فؤاد، ولو عرفته لأحببته كما أحبّه، من هناك. مثلي. من المناطق القصيّة، مناطق الظلّ والعتمة، مناطق العرق والتّراب، حيث لا شيء يغنيك عن شيء، ولا أمل يغنيك عن ألم، اللّيل كالنّهار، سيّان هما، لا تسكن في أحدهما لتسعى في الآخر، ولكن تسعى في كليهما، ومع ذلك، تظلّ «اليد. مثلما يقولون . قصيرة والعين بصيرة!!» والله، فوق الجميع، يرى ويسمع، وربّما ينظر إلينا بعين رحمته، ولكن يؤجّلها لحكمة هو مريدها.... أنا أعتذر الآن، وسأعتذر في كلّ حين، إليه، صديقي فؤاد، لأنّي لا أريد أن أخسره، فمثله أحرى أن لا يخسر، في زمن الضّآلة والرّداءة، هذا الخلّب القلّب.... أعتذر إليه.... (وسأعتذر إليه!!) لأنّي كدت أرتكب في حقّه اليوم الجريمة القاتلة الّتي لا فكاك منها. وهذا خطأي، خطأي أنا وحدي!! ..... بلى، فكّرت في المقاطعة، في الهروب، لأنّ القطيعة تقترن في ذهني دائما بالهروب، والهروب، في جميع حالاتي، هو إفراز مرضيّ لعقدة الصّمت، والصّمت بداخلي كمّ هائل من التّطرّف الغامض

الّذي لا يعرف الاعتدال، هو الموت، الانتحار، القتل، الرّدّة، الإرهاب المغالي، الّذي لم تحدّده القواميس، ولا الأعراف، ولا الإيديولوجيّات، إرهابي أن أسحق في صمت، أن أحكم بالموت على من لا أحبّ في صمت، أن أجتاز في صمت، أن أفقد في صمت، أن أموت في صمت، أن أتعذّب وحدي في صمت، أن ألتذّ بهذا العذاب في صمت، أن أنسحق في صمت، أن أفقد واحدا لأفقد الجميع في صمت، هذا هو الإرهاب الّذي أعرفه، والإرهاب الّذي لم أستطع التّخلص منه، دائما أتحسّب من هذا الهروب، دائما أخشى المواجهة، لأنّي أدرك دائما أنّ المنهزم الوحيد فيها سوف لن يكون أيّ أحد سواي أنا، وإذا انهزمت سأخسر واحدا، وسأخسر من بعده الجميع.... وهذه هي مأساتي. بكلّ بساطة!!... عزائي الوحيد أنّ صديقي فؤاد قد يقرأ هذه المذكّرات يوما ما فيعرف كم كنت أحبّه، فإذا لم يقرأها قد يعثر بها وهو يبحث في المستندات على الحاسوب!!

إليه أعتذر....

إليه وحده!!؟!!

*** إهداء أوّل:

هذه ليلتي وحلم حياتـــــي
بين ماض من الزّمـــــان وآت
الهوى أنت كلّه والأمانـــــي
فاملأ الكأس بالغرام وهـــات
بعد حين يبدّل الحـــبّ دارا
والعصافير تهجر الأوكـــــارا
وديارا كانت قديما ديـــــارا
سنراها كما نراها قفـــــارا

(جورج جرداق)

***إهداء ثان:

أبنيّتي لا تجزعـــــــي كلّ الأنام إلى ذهـــــــاب
نوحي عليّ بحســـــــرة من خلف سترك والحجـاب
قولي إذا كلّمتنـــــــي وعجزت عن ردّ الجـــواب
زين الشّباب أبو فـــراس لم يمتّع بالشّبـــــــاب

(أبو فراس الحمداني)

[يوم السّبت،
الرّابع والعشرون من شهر تشرين الثّاني (٢٠٠١)، الموافق للثّامن من شهر رمضان (١٤٢٢)،
السّاعة السّادسة وعشر دقائق مساء]

(....) سقيا لقلبي إذ تواريه الجروح، وتضنيه القروح(....) وسقيا لحرف الحروف أطلبه فيشكل في تجاويفي، وينطوي طيّ السّجلّ(....) سقيا لعيني والدّموع هوامل(....) خدّي يدبّج من صريم حروقها عقدا(....) فيأبى عليّ العقد إلاّ انتثارا(....) ويغدو من بعد انتظام والتئام محض انكسار(....) اللّيل. كلّ اللّيل. أسهره على ضيّ الشّموع أرقب أوبة الغادين(....) متى أراهم فأشتفي من فقدهم (....) أبلّل الأرض الّتي فيها مشوا(....) وأمرّغ الخدّ مليّا كي أراهم سادتي(....) لا أريد غير القرب(....) شوقي زائد(....) فأسبغوا من فضلكم(....) إنّي فقير محبّة(....) ومحبّتي لو تعلمون ما لها حدّ(....) ولا عدّ(....) ما لها قبل ولا بعد(....) وما لها في وطن الأسماء إسم(....) ولا لها في عالم الأحياء صنو ولا ندّ(....) بعدي زائد(....) قربي زائد(....) وشوقي . لو

تدرون . مدّ زائد(....) فامنحوني عطفكم(....) ردّوا عليّ ما انتهى من وردكم(....) من قطعكم(....)

*** تغبير:

الحبّ خمر كلّـــــــــــها راح
والرّاح عشق مستبـــــــــاح
والخمر تجدي في اطّـــــــراح
الودّ من بعد اصطبـــــــاح

****

كم تمنّيت اعتناق الرّوح ودّ الأصفيـاء
وسكبت العبر من دمّ ومـــــــــــاء
وسألت القلب عن عهد الإخـــــــاء
هل يخون الصّبّ في شرع الوفـــــاء

****

يا سادتي ردّوا عليّ أحرفـــــــــي
ومدامعي كيما أروّي أضلعـــــــي
أنتم خلاقي واتّساق جوارحـــــــي
في حبّكم، فمتى تلبّى حاجتـــــي

*** لوعة:

اللّيل إذا لم توافوا ليل، والكلام إذا أعجزه ذكركم صمت صموت، والنّهار لا تشرق فيه غير طلعتكم، فإذا تصرّمتم، فلا النّهار نهار، ولا الضّياء ضياء، لا الشّمس شمس، ولا الجلاء جلاء، اللّيل من بعدكم

ليل أليل، والسّكون سواكن لا تسكن، والدّمع جاف للخدود، والفراش مجاف للجنوب، القلب خفق، والكبد حرّى، والدّمع سكب، والضّنى مضن، والإقدام إحجام، والحلم كابوس وهذيان، اللّيل كوامن تتلى، وما منها كامن إلاّ وهو جارح، وما منها جارح إلا وهو مدم، وما منها مدم إلاّ وهو سمّ زعاف لا يترك ذا العلّة إلاّ قتله، ولا ذا الخلّة إلاّ وراه، وأنا العاني وصاحب الحاجة والخلّة، فالمدد المدد، يا أهل المدد، إنّ النوم مجانبي، والرّاحة رائحة بي إلى هلكتي، مدد مدد، يا أهل المدد!!؟!!

[صـور في: ٢٤ تشرين الثّاني٢٠٠١]

٥. عن الهجـر والوصـال [أوبريت عايدة]
شتاء ١٩٩٧

الفصل الأوّل

المشهد الأوّل

قالت: كفى!!

(جلست . تمدّدت الأصابع . ضاعت الكفّان عطرا آسرا.)

قال الفتى: في الحبّ أفنى قاتلا... في الحبّ أحترف الجريمة والتّواطؤ... لا أبالي بالمخاطر!!)

(ثمّ ارتمى في حلقة العطر المهيّج . مدّ كفّا كي يوشّح خدّها بالياسمين . لم تشأ أن تستكين لفورة حبّه قبل التّأكّد من نقاوة قلبه.)

قال الفتى: هل تذكرين . حبيبتي ... هل تدركين بداية الأشياء؟! هل... هل تعشقين ولادة الأسماء مثلي؟... حبّنا بدء لبذر الكون، وإسم للولادة والتّجلّي... حبّنا بدء لعشق لم يلد بعد...!!

(جثا . كان الكلام يغافل الشّفتين . وقلبه يهفو إليها. ودّ لو يصحو على ألق الضّفيرة... لو يقول لها: أحبّك، ثمّ ينأى كي يكون السّاحر

المنذور... كي يحي الورود بنفخة المزمار؛ كي ينسي الدّموع سقوطها ألما، ويحيا الحبّ في الأسرار من فرح الدّموع على الدّموع...)

قال الفتى: هل... تسمعين...

(لم يكمل الجمل الأخيرة . ألجمت شفتيه نظرتها الشّريدة . أين تمضي هكذا؟ ماذا بها؟ ولمن يبثّ حنينه، إن لم تكن عينا تعاين وجده؟! ولمن يبثّ هيامه، إن لم تكن أذنا تسارق نبره وضرامة الأشواق... آه، الحبّ أنهكه الفتى!! قال الكلام بلا حدود . صاغ من ألم الصّبابة آيتين . جثا... تصلّبت الدّموع على الجفون، نأى . وبعد دقائق، كان المسافر يستعيد حضوره... هبّت لواعجه، فأسلم قيده، ومضى إليها؛ قبّل الأرض الّتي داست عليها.)

قال... هل...

قال الفتى: هل تشعرين . حبيبتي . إنّي حزين... هل تشعرين...

قالت: بلى، الحزن المراوغ زارني، إنّي أنا الحزن المقدّس؛ هل عرفت الحزن... هذا الحزن؟! لا... أبدا يكون الحزن حرفا في انكفاء الحرف! لا... أبدا يكون الحزن صوتا نائما في مقلتيك! أبدا يكون الحزن لفظا عائرا! فالحزن من قلبي الجريح قد انكفأت ألمّه، صار الحزانى ورود مملكتي، وصار الدّمع ماء...! لا... لا تقل، إنّي الحزين، فأنا السّجينة، وأنا الجريحة، وأنا الحزينة، وأنا الفناء!!

(قام الفتى، فتدافعت في نفسه الكلمات، لكن لم يجد حرفا يبعثره على الشّفتين؛ هل يبكي إذن؟ هل يستحيل الشّوق موتا؟ والهوى لهوا؟ وهل... هل يستبيح الحزن مملكة الشّجون؟ وهل تصدّق أنّه الحزن الّذي لم ينتم؟ هل ينتمي حزن لذات الحزن؟ هل... هل يستفيق...؟!)

قال الفتى: أنت الحزينة... لا أناقش صرخة الوجدان. لا... لا

أدّعي أنّي الحزين موحّدا... متوحّدا. لا أبتغي منّا عليك . حبيبتي . فأنا الحزين!!

قالت: بلى، صدّقت هذا الاعتراف، حفظت معناه الخبيء، دسسته في القلب، لكن لا أرى للحبّ معنى في يدك... وفي يديك معاقل الرّهب المنيع؛ وفي يديك ملامح السّجّان؛ في... في مقلتيك قباب أحلامي محطّمة؛ في حاجبيك مدافن العشّاق. فاصمت!! لا تقل إنّي الحزين... أنا الحزينة؛ ليتني متّ، ومات الحبّ قبلي في يديك!؟!

(نفر الفتى بدموعه، وتهاوت الأحداق في شؤبوبه، لثم الثّرى، قادته أحلام الصّبا حيث انتحت في ركن زاوية غريقه... كاد يحترف الجنون، مضت يداه إلى يديها، عبّ من أرج العبير وما انتشى... عبّ العبير مرارة!! كانت فتاة لم يرفيها فتاته.)

قال: هل...

قال الفتى: واحسرتا! أشقى وتتّهمين حبّي... إنّني حقّا حزين... هل تذكرين . حبيبتي . ألق المروج، وتذكرين سنا الرّبيع، وغابة اللّبلاب... هل... هل تذكرين مساءنا ببحيرة الغار المكلّل بالأريج. وهل... هل تشعرين بأنّني الآن حزين؟!!

(سجبت يديها، حارت الأهداب بين دموعه وكلامه؛ لم تستطع صبرا، وخافت أن تذوب صبابة في لحنه الغافي، تمدّد ساعداها، مالت الخطوات خلف رحابة الأسر الّذي قد خطّه، ومشت بطيئا، ثمّ كانت حذو نافذة تضيق على الطّريق، جلت سوادا في السّتارة، عالجت إضمامة المصراع، شدّت في ثبات كلّ عالمها إليه... لترالمدى... هذا الفضاء أمامها، هذي العصافير الّتي قد زقزقت كي تنتمي للعشّ

ثانية، وكي... كي يستعيد الماء لون الماء، كي... كي يستعيد الحبّ ضوع الياسمين؛ لترالمدى... والسّور ممشى غافيا، والسّور أشجارا تهسهس حزنها، لترالتماع الشّمس في طيّاتها قلبا يهدهد جرحه... قد يستكين!! بلى، استكن، يا أيّها القلب الغريق؛ بلى، استكن كي أرفض الضّعف المروّع... كي أسمّي. دون خوف. إسمها الأشياء. آه، سأعتنق الحقيقة كي أقول: الغدر غدر، والهوى أبدا يكون مباءة، وأنا الحزينة!! إنّني... إنّي أنا الحزن المقدّس. يا حبيبي. هل سمعت؟!!)

قالت: أراك نسيت يوم عناقنا ذاك المساء على الغدير؛ نسيت تحمل لي هديّة أوّل القبلات... صرت مماطلا!! فلم تخون وأغفر الذّنب الصّريح؟! لم تخون...؟!

قال الفتى: أبدا، وحقّ الحبّ لم أنس... وحقّ القبلة العذراء...
قالت: بلى...

(ثمّ استدارت. حبّذا لو لم يكن وجه الحبيب مضرّجا بحيائه؛ يا حبّذا لو صدّقت! هذا الكلام كلامه. هل يستبيح لسانه الكذب القبيح؟!)
. ما اليوم في أيّامنا؟

(نظرت إليه، فمال وجهه؛ لم ترالعينين والصّدق المؤمّل.)

قال: هل... هل تشعرين. حبيبتي. أنّي حزين؟! اليوم يوم الحزن؛ ضمّيني، فهذا القلب أشلاء تودّ. صراحة. لو تستريح!!!
قالت: كفى كذبا عليّ؛ كفى... أحاول أن أصدّق أنّ حبّا لا تدنّسه الأكاذيب الّتي قد صغتها أرجا. أحاول أن يكون القلب قلبي من جديد

كي أمهّد . يا حبيبي . ساحة للعشق؛ كي أنسى قليلا، أدّعي أنّي نسيت شقاوة العشّاق...

قالت: كفى... ما اليوم في أيّامنا؟!

(رفع الفتى وجها حييّا صامتا. لم يقترف في الصّمت أشياء محرّمة... بلى، عيناه قالتا، لكن القلب المشاغب: ما له لا يستريح ولا يريح؟ نأى الفتى في البعد، غامت مقلتاه، ولم يرغير التّوجّس والحنين... اليوم...!! ما اليوم في أيّامنا؟! عيد الميلاد تراه أو بدء الهوى؟! ما اليوم في أيّامنا...؟! لو يستطيع بأن يمرّغ أنفه في بركة الأسرار! لو يجلو الحقيقة! لو يوسّع طاقة الغيب القصيّ ويحكم الإفلات في نزق الطّريق!... اليوم! يا ربّ التّجلّي جلّني، كي أعرف الأسماء؛ يا ربّ التّجلي جلّني كي أفرش الأشياء بستانا لعينيها؛ ويا ربّ التّجلّي جلّني كي أجلو الألغاز، كي... كي أقتفي صخب الجنون وأعتلي همس الجفون..!!)

قال الفتى: هل تقصدين...

(قطع الكلام فجاءة متأمّلا متوجّسا أن يخطئا.)
قالت: تكلّم؛ قل بحقّ الحبّ، واصدقني الحديث.
قال الفتى: هل تقصد... ين أنا وأنت؟!
قالت: بلى، أنت الّذي...
قال الفتى: أنت الّتي تيّمتني، وتركتني في الحبّ أحترف الحياء أو الجنون!!
قالت: بلى، أنت الّذي صدّقتني، وغدرت بي... ما اليوم في أيّامنا؟!
قال الفتى: هل تشعرين . حبيبتي . أنّي حزين؟! اليوم يوم الحزن؛ ضمّيني، فهذا القلب أشلاء تودّ. صراحة. لو تستريح!!!

(لفّ المكان سكونه . بدأت تسافر في الزّوايا نسمة مخضلّة بطراوة المدن الشّهيّة، والطّريق مواربا في هدأة الحلم المسائيّ الّذي لا ينتهي . جاءت نجيمات السّماء فنضّدت في اليهو ألسنة من النّور العتيق، ومهّدت بدء الحنين . وكانت الأشجار تلبس لونها من طلعة الغسق المفاجئ، والسّواد؛ من الثّرى، من كلّ شيء خبّأته الأغنيات، من النّوى، من شطحة للحبّ، من قيثارة، من لوعة الأحباب، من أشيائهم، من شوقهم، والشّجر، واللّقيا لها طعم التّوقّع والتّوجّس والمجيء... تهدّلت في ردهة الممشى روائح جمّة، وتشابكت في اللّيل أصوات التّفرّد: لم ترفي النّخلة العذراء ذاك النّور! لم تنأ بعيدا كي تكون ولا تكون!!... تهدّلت في ردهة الممشى، تداعت رحلة الأرواح، والأشياء والأسماء؛ مملكة المسيح تمسّحت، لم يبق في الصّلبان غير الطّفل، والقيد الموشّح بالخزامى؛ مملكة النّخيل تسامقت!! هذي يديّ تطالها، لا تستطيع مرامها! هذي يديّ أدقّها وأهابها، أرمي بها للّيل، ما جدوى اليدين إذا انتفت لغة النّخيل!!... تركت لشال في نطاق ذراعها أن يسقطا، وتلفّعت باللّيل رغم البرد . كانت تنتمي للآمسمّى لحظة انتبهت إليه وراءها، يستنشق الشّعر البليل، ويغرق الجيد الشّهيّ بوابل القبلات...)

. آه، ماذا تفعل؟!

. ما ترين! قال الفتى.

إنّي انتبهت إليك في فيض التّجلّي فلم أطق صبرا... لثمت الجيد، لاطفت الغزير الأسود الرّقراق... هل...

صمت الفتى زمنا قصيرا، ثمّ قال:

. ترى أكون قد انتهكت قداسة، واجتزت مملكة الحدود؟!

قالت: بلى... للّيل حرمته، وللحزن العميق حداده.

قالت: بلى... للّيل حرمته، وإنّي أبغض الإفراط!

(أولت ظهرها.)

قال الفتى: إنّي رأيت الحبّ ينتحل الوداد ويرفض الأعذار...
قالت: لا تسئ للحبّ...
قال: أراك تتّهمينني؟!
قالت: لماذا؟
قال: لا أدري!
فقالت: لا تسئ للحبّ كيما يستبدّ الوجد، ينعقد الوصال!!
فقال: أقسم أنّني ما كنت يوما خائنا! ما كنت يوما أبتغي في الحبّ ملهاة، وما كنت المسيء ولا المرجّي في الغرام خيانة!
قالت: بلى، صدّقت هذا الاعتراف، حفظت معناه الخبيء، دسسته في القلب، لكن لا أرى للحبّ معنى في يدك... وفي يديك معاقل الرّهب المنيع؛ وفي يديك ملامح السّجّان؛ في... في مقلتيك قباب أحلامي محطّمة؛ في حاجبيك ملامح العشّاق. فاصمت! لاتقل إنّي الحزين... أنا الحزينة؛ ليتني متّ ومات الحبّ قبلي في يديك!!؟
قال الفتى: واحسرتا! أشقى وتتّهمين حبّي... إنّني حقّا حزين... هل تذكرين . حبيبتي . ألق المروج، وتذكرين سنا الرّبيع، وغابة اللّبلاب... هل...
قالت: بلى...
. ما اليوم في أيّامنا؟

(نظرت إليه، فمال وجهه، لم تر العينين والصّدق المؤمّل.)
قال: هل... هل تشعرين . حبيبتي . أنّي حزين؟! اليوم يوم الحزن، ضمّيني، فهذا القلب أشلاء تودّ . صراحة . لو تستريح!!!

(الصمت ثانية... نأت في اللّيل، لم تره الخريطة في سياج بهائها، في لكنة المطر الموقّع نغمة حرّى، وفي القمر المواربِ خلف أقبية السّحاب... سحبت سجائرها... تناولت البياض، وأشعلت من شمعة

عود الثّقاب؛ تأمّلت البياض يكون نارا، ثمّ نارا، واحمرارا كاحمرار الوجه يسكبه الحياء... شفطت وعبّت من دخان كالدّخان ولا دخان؛ آه لو يدري الغبيّ لما أحبّته، وقد قتلت من العشّاق في بدء التّدلّه ألف ألف؛ كم أحبّت أن تعدّ جمالها ليرى الرّجال بأنّ الحبّ مملكة النّساء، وأنّ تاريخ الغرام مزوّر ما لم تكن فيه الغواني محجّبات قاتلات... آه لو يدري الغبيّ لما أحبّته، وكم ستحبّه لو لم يسئ للحبّ! لكن، لا يصدّق أنّها تابت، ولا يتصوّر الغرق الأخير على يديه...!! الصّمت ثانية، رأت في هالة القمر المضيء بداية الأشياء من لاشيئها المعتاد... أحبّت القمر المضيء، وعندما انكبّ السّحاب عليه يطمسه، غزتها رحلة أخرى، وكادت أن تجنّ... أحسّت المطر المسافر في يديها، في أتون الشّعر، في الجفن الموشّى، في الجبين، ولم ترد أن تسحب الخطو البطيء إلى الوراء؛ أحسّت المطر المسافر في يديها، في أتون الشّعر، في الجفن الموشّى، في الجبين، ولم ترد غير البقاء إلى النّهاية في الفراغ... وآه، لو يدري الغبيّ لما أحبّته، وكم ستحبّه!!)

قالت تخاطب نفسها: اللّيل يعلكني، وأجهد أن أقاوم. لو فقط، أمتدّ خلف الانفلات إلى الفنا أزلا، أكون بداية من كلّ شيء، أقتفي أثر الرّحيل إلى الرّحيل... اللّيل يعلكني كشرنقة رماها البحر خلف البحر، لا رمل الشّواطئ ظلّها، لا اللّيل نفسه، لا المنارة، لا الخواء... اللّيل يعلك خطوتي، ويحاور الأشياء في أقصى الفناء، يحاور الأشياء في بدء التّشكل، في أتون الاختفاء... يا ليل! يا ليل الجميع، وليلي المعبود وحدي إذ أضيق على البدابة والنّهاية والحكاية والمساءات البعيدة والرّجاء... يا ليل، مهلا! كي أراك وكي تراني! يا إله الصّمت، مهلا كي أعاقر فيك أحزاني وكأسي، كي أقول بأنّني في الحبّ أعتنق المحال، وكي أقول لمعشر العشّاق عبّوا من لذيذ الاصطباح، وبادروا للكأس؛ في الكأس الأخيرة ترتوي الأشواق...!!

قالت عندما نظرت إليه: بلى، أريدك، أشتهي أن أصطلي في ساعديك، وأشتهي أن أعبر الشّريان في حرّ الوجيب، وأضغط القلب المرنّق بالنّوايا؛ أرقب القلق الشّفيف وأعبر العينين بحرا من نسيج الياسمين...

رنا إليها...

قال: ضمّيني إذن؛ أو فاسمحي أن أحرق السّفن الضّليلة، أو أقامر بالمسافة بيننا، كي نستفيق، وكي نريق الحبّ خمرا مشتهاة...

قاطعته بنظرة شزراء.
قالت: لا تسئ للحبّ ثانية، وكن شريكي في احتراف الصّمت والأحزان.

قال: بلى أكون، فسامحيني ربّما أتعلّم الإنصات والحزن العميق.
قالت: بلى تحتاج صبرا فاصطبر.
قال الفتى: هل تشعرين . حبيبتي . أنّي حزين؟!... اليوم يوم الحزن، ضمّيني، فهذا القلب أشلاء تودّ . صراحة . لو تستريح!!!

(وخطا بعيدا... ما لها؟ أيّ النّساء هي العنيدة؟ كيف لا تمتدّ فيه ولا تضيع؟! سيحاول الإفلات منها، من خرير الشّعر، واللّيل الموارب ظلّها!! فلتبتعد في صمتها؛ اللّيل لعبته، سيلعب كيفما شاء الهوى. هذي النّساء نساؤه، فليمتط الأشواق صهوة عشقه؛ ولتبق للأمل الأخير، فلن يجيء، ولن يقبّل جيدها، لن ينحني للشّعر، للعينين، لن ينأى بعيدا كي يزيد الشّوق، لن... هذي النّساء نساؤه: بلقيس، أنس،

مراجل، حبّابة، سلمى، وليلى... ما لها؟ أيّ النّساء هي العنيدة؟ هذه الأشياء تنأى خلفه: الباب، والسّور العتيق، وغابة اللّبلاب، والممشى، وكلّ الشّعر والقمر المضيء! سيحمل الأشياء، سوف يريقها في أوّل الطّرقات، ينسى إسمها... لا، لا يريد رضى العبيد، وأن يظلّ بلا سبيل واضح: إمّا الوصال، فإن تعذّر فالفراق ولا رجاء.)

قالت: تحاول أن تفرّ كما الصّغار، تهدّد الصّرح المنيع؛ فهل تريد صراحة أن تخرجا؟!

قال الفتى: لم تقبلي لغة الحوار ولا الخيار.

قالت: وتقدر أن تروح ولا تعود؟

قال الفتى: أو ربّما أنسى!

فقالت: هل تروح ولا تعود؟!

(خطت، وأولت ظهرها للصّمت، لم... لم تنتظر ردّا؛ سيكذب مرّتين ومرّة، لن يستطيع بأن يعود بلا وعود، لن تحاول منعه. فليذهب الغرّ الغبيّ إذا أراد.)

قال الفتى: هل نلتقي؟

قالت: تريد بأن تروح ولا تعود، تهدّد الصّرح المنيع؛ فلن أبالي، هذه الأقدار محرقة الأماني... هل تروح و لا تعود؟!

(هذا الفتى يمضي وحذو الباب قال:

. هل تشعرين . حبيبتي . أنّي حزين؟!... اليوم يوم الحزن، ضمّيني، فهذا القلب أشلاء تودّ . صراحة . لو تستريح!

(ينسدل السّتار.)

المشهد الثاني

(واها لهذا القلب...!! أعدمت الهوى بيديّ... أعدمت المرايا فانتفت حتّى الشّظايا... لم أرد هذي النّهاية... لم أردها... لم أشا للصّمت أن يغتال أسئلتي... ولم... لم أستطع أن أسكت الجرح العميق... أنا القتيلة مرّتين ومرّتين... أنا الجريحة في انتظاري... في انكساري جزت أزمنة التّذكّر... أنهك الحبّ القديم معاقلي... جاءت جيوش الحزن... أرست في امتدادي... كنت أعرف أنّني مقتولة... في... في انتظاري كنت مؤمنة به... عيناي تمتدّان في أرج الطّريق... وفي يديّ أهدهد الشّوق العصيّ... وفي فؤادي يبذر الكلف الحريق... فهل أغامر في انتظاري؟... هل أقول بأنّني أحببته؟ أعدو إلى رأس الطّريق؟ ألملم الغسق المخبّأ في خطاه؟... وهل أقول بأنّني عشت الحياة قتيلة قبل التّغلغل في ذراه؟... ألا انتظرني...!!)

(ثمّ تخطو، تفتح الباب المواربـ... في الظّلام رأت ظلام السّلّم المنفيّ... خافت أن تسافر في الظّلام إلى الظّلام...)

** المشهد الثالث**

صوت أوّل:

قفا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل
بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمـــــأل
ترى بعر الأرآم في عرصاتهـــــا
وقيعانها كأنّه حبّ فلفـــــــل
كأنّي غداة البين يوم تحمّلـــوا
لدى سمرات الحيّ ناقف حنظـــل

صوت ثان:

لخولة أطلال ببرقة ثهمـــــد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي عليّ مطيّهـــم
يقولون لا تهلك أسى وتجلّـــد
كأنّ حدوج المالكيّة غـــــدوة
خلايا سفين بالنّواصف مـن دد
عدوليّة أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاّح طورا ويهتـــدي

صوت ثالث:

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلّـــــم
بحومانة الدّرّاج فالمتثلّـــــم
ودارلها بالرّقمتين كأنّهـــــا
مراجيع وشم في نواشر معصـــم
بها العين والأرآم يمشين خلفـــة
وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجشـم
وقفت بها من بعد عشرين حجّة
فلأيا عرفت الدّار بعد توهّـــم

صوت رابع:

عفت الدّيار محلّها فمقامهـا
بمنى تأبّد غولها فرجامهـــا
فمدافع الرّابان عرّي رسمهـا
خلقا كما ضمن الوحيّ سلامهـا
دمن تجرّم بعد عهد أنيسهـا
حجج خلون حلالها وحرامهـا
رزقت مرابيع النّجوم وصابها
ودق الرّواعد جونها فرهامهـا

صوت خامس:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الأندرينـــا
مشعشعة كأنّ الخصّ فيهـا
إذا ما الماء خالطها سخينـا
تجور بذي اللّبانة عن هـواه
إذا ما ذاقها حتّى يلينـــا
ترى اللّحز الشّحيح إذا أمرّت
عليه لما له فيها مهينـــا

صوت سادس:

هل غادر الشّعراء من متـردّم
أم هل عرفت الدّار بعد توهّـم
يا دار عبلة بالجواء تكلّمـي
وعمي صباحا دار عبلة واسلمي
فوقفت فيها ناقتي وكأنّهـا
فدن لأقضي حاجة المتلـوّم
وتحلّ عبلة بالجواء وأهلنـا
بالحزن فالصّمّان فالمتثلّـم

صوت سابع:

آذنتتا ببينها أسمـــــــــاء
ربّ ثاويملّ منه الثّـــــواء
بعد عهد لنا ببرقة شمّـــــا
ء فأدنى ديارها الخلصـــاء
فالمحيّاة فالصّفاح فأعنـــا
ق فتاق فعاذب فالوفـــاء
فرياض القطا فأودية التّـــر
بب فالشّعبتان فالأبـــلاء

الجوقة:
(لوحة أولى):

ما للقلوب تراقص الأحزانـــــــا
ولها بها أم ترتجي الإدمانـــــــا
كم مرّة نكأ الفؤاد قريحتـــــــي
فاسترحمت لمّا اكتوت ندمانـــا
هذا الهوى ودماء قلبي فوقـــــه
زهر الهوى عطّرته خلاّنـــــــا
هل يشتكي من لم يحرّق قلبـــــه
شمع الصّبابة قد ذوى ريّانـــا
لست الصّبا إن ينتهي عهد الصّبا
إنّي رجاه وبابه الأسيانـــــــا
البحر زرقته سفائن عينـــــــه

والبحر طيف قد مضى سكرانا
البحر حزن الحزن شوكة زهـــره
يا قرّة أودعتها نيسانـــــــــا
حبّان حبّك والهوى إلف الهـــوى
سأريقه، فلينثن وسنانـــــــا
سأهاب بحرك حينما تخفينـــه
تمّا لبدرك يستبي شطآنـــــا
وأظلّ أعشق برعما ألقيتـــــه
مرساة عشق سربلته سمانـــا
وأنادم البين المسدّد سيفـــــه
في كلّ ضلع خلته حيرانـــــا
واها لصحراء الرّماد تلفّنـــــي
فتثير في حان الجروح قيانـــا
واها لصحراء ألفتها مسكنـــــا
سيكون في وهن الشّجى نسيانا

(لوحة ثانية):

خمر القلوب تأوّه في عبـــــــرة
مسكوبة تتجاذب الأحزانـــا
ونشيش سورتها عتاب جلّـــــه
ليلاء تعزفه شذى ألحانـــا
هل بعد عتبى اللّيل شطآن الأسى
من بحرها تستعبر الأوزانـــا
هل في نتوء الصّمت تحجم فكرة

فتقاسم اللّيل البعيد هوانـا
هل... هل هواك مقدّر بحرائقـي
هل هواك يحاور الأزمانـــا
هذي السّماء وذي مرابع حرقتـي
كم أجهشت ولها بك وحنانـا
هذي تباريح الفؤاد ورحلـــــة
سيعبّها الكأس الهتون أمانـا
ويخبّ في أوتارها رمق الصّـــدى
ولهان يتّخذ الهوى أوثانـــا
خمرا شربناها وما كان ارتـــوا
ء ليلك مدّت له أحضانـــا
فليفتح الباب الّذي واربتـــه
طيّ السّنين مضمّخا أشجانـا
فلعلّي الحان القديم أعبّـــه
من مقلتيك سفائنا. شطآنـا
وأسامر القمر الّذي أوحشتنـي
في ثغره القزحيّ شعرا خانـا

الفصل الثاني

(الجوقة):

نرثي لأنفسنا
ونرثي للهوى...
كان الهوى نورا بلا شمع يضيء،
وكانت الأسماء تألفنا،
ونألفها...
ويمضي فجأة أحبابنا:
.نبكي،
ونرجو للحبيب بأن يعود...
وتعود أوقات التّصافي،
كي نقول لها:
.هنيئا...
عاد وطّاء الفؤاد إليك؛
كي...
كي نقول لها:
.هنيئا، يا مبعثرة الحنين،
بعودة العشّاق والأشواق!!

المشهد الاول

هذا النّهار. بلا ضجيج . يستبيح حصونه... يذوي، يسافر في رحيل الشّمس؛ والصّمت المعفّر بالغموض، جيوشه جرّارة، تغزو المكان... تشاكس الحيطان تلقي ظلّها خلف الأرائك، تمتطي أرج المناضد والسّتائر... المدى، هذا المدى لا نور يحجبه؛ الظّلام تعمّد الآن المجيء إلى معابره القصيّة كي يوالي حبسه بين الدّعائم والرّتاج... لا شيء يحيا هنا، لا شيء يوحي بالحياة، ولا ببعث قد يعيد البيت بيتا، والمدى القزحيّ للفرح القديم... لا شيء ينأى هنا، لا شيء يأتي من هروب الشّمس غير الظّلّ/ غير الصّمت/ والسّفر الّذي لا ينتهي... هبّت نسيمات رقاق... داعبت شجر الحديقة... حرّكت في الموت جارحة النّشيد... تباعدت... وتفرّقت... حطّت على السّور البعيد، ووشوشت بعض الحروف لظلمة اللّيل المرنّق بالنّجوم... في الأفق لاحت هينمات البرق، . ومضته الهيّة .. عفّرت وجه السّماء سحائب الهرب الأخير، وهسهست فوق المدينة رعدة المطر الحيّ... تسربل الكون المفاجأ بالهزيمة، واحتمى في طيّه الرّعد المعمّد بالرّنين وبالمجون... مطر... مطر... غمر الرّذاذ مرابع الصّمت الحزين... سقى الشّجر.

كانت أمام البيت سيّدة تنوء بعبء وحدتها الممضّة... كانت ابنتها الوحيدة بوحها، أحزانها، والحلم يأتي في خريف العمر؛ كانت كلّ ما انتظرته، ما أفنت سنيها تقتفيه، ولم تجد أثرا لمقدمه السّعيد؛ وكانت ابنتها أخيرا: ما لها تناى بعيدا؟ توصد الأبواب؟ يحجبها الحداد؟ وتنتمي للصّمت؟ للطّيف البعيد وللظّلال؟... كانت أمام الباب سيّدة، وفي الدّرج الأخير تعثّرت خطوات مكتهل، براه الدّهر، والبرد الّذي يأتي

بلا إذن؛ تناهى في الفراغ صدى سعاله... هكذا هو دائما، لم تكتشف فيه النّقيض، ولم يكن غير الشّريك المنتمي للصّمت... يسعل... يختفي خلف الدّخان... يعانق الأشباح... يحتضن الجريدة... لا يكدّره السّكون ولا الضّجيج؛ وكانت ابنتها الوحيدة حلمها... كانت صبيّا لم تجد أثرا لمقدمه السّعيد...

جلست قبالته... رأت في وجهه أملا بعيدا، رحلة تنأى ويعلكها الدّخان.
قالت: يداعبنا الشّتاء...

(مجّ الدّخان، رنا إليها، لم يقل شيئا، وعاد يهادن الصّمت العميق.)
قالت: يداعبنا الشّتاء، فنكتوي بالبرد... يهجرنا الصّغار...

(وتمهّلت بين الحروف، عساه يسأل من عنت؛ لكنّه أبدا يجازف بالكلام عن الظّلال، وينتمي للحرف... ليت الله يلهمه الحضور، وليتها تدني النّوافذ من متاه الرّوح، كي تمتدّ في أفيائه بيتا، وتسأله الكلام فيستجيب...)

(قامت، خطت نحو الفراغ، فأغلقت كلّ النّوافذ، أسدلت كلّ السّتائر، ثمّ لفّت شالها...)

قالت كأنّ بها حنينا للشّرود: ترى لماذا الحزن يأتي في بريد البرد... يهصرنا الفراغ، فندّعي لغة الهروب، ونعتلي ألق الوداع؟

(جلست قبالته...)
وقالت: كيف تمسي سيّدا في الصّمت؟

قال: لأنّني رجل يضيع مع السّراب.
قالت: وتنسى أنّك الأب والسّلالة والعبير؟
قال: انطفأت، وليتني متّ... انتهيت!!
قالت: وتطعنها وتطعنني؟!
فقال وعينه اليسرى ترفّ، وأنفه يفضي إلى الوهن المضمّخ بالدّخان: ومن هي الأخرى؟
فقالت: ويلتي، ونسيتها ابنتنا الوحيدة؟!
قال: ردّيني إليها، أو إليّ، فإنّني رجل حزين...!!

(الجوقة):

آه تبعثرنا الخطى؛
نشكو مليّا حزننا،
ونباعد الخطو العنيد،
ترى نأت أطيافنا،
والصّمت مزّقنا...؟!
رأيناها القرى تجتاحنا،
والبحر،
والصّحراء،
والقمر الشّريد؛
رأيناها القرى تشتاقنا.
دهرا،
ونشتاق القرى...
نشتاق كأس الشّاي،
نعتنق الدّخان،

ونرتضي سفر الزّمان...
ليت المكان مكاننا
ليت الزّمان زماننا
والحبّ يألفنا.
ونألفه...
وليت الحبّ/
يختصر الطّريق إلى الطّريق؛
ليت الأحبّة إذ يوافي شملهم،
تنهار أطياف السّكون،
وتمّحي مدن التّخثّر،
يختفي وهم المضيق...!!

** المشهد الثاني**

الأمّ قالت: إنّها ابنتنا الوحيدة لفّها الصّمت المباغت... أسلمت للموت جنّتها الشّريدة. آه، لو أدري بما يجتاحها!
قال الأب المسكين: ابنتنا...!!

(وقام... تهدّلت شفتاه، أخنقه الدّخان.)
قال: الهوى...
الأمّ قالت: الهوى... ما للهوى وبنيّتي؟!

(لم يلق بالا للسّؤال... تأمّل الباب المغلّق والنّوافذ، ثمّ انزوى بين الأرائك.)
قال: ليس سوى الهوى...

(واستسلمت شفتاه للصّمت المحبّب في الدّخان، سعت يداه إلى الجريدة.)
قال: لا... لا تقلقيها؛ واسألي هذا المساء بأن يكون بنا رحيما؛ واسألي هذا الشّتاء بأن يقينا البرد، يمنحنا البداية والنّهاية، يستضيف الدّفء، يقرئنا السّلام.

الأمّ قالت: لا أريد الدّفء... يكفيني بأن أشتاقها... أمضي إليها... أستظلّ بظلّها، فأرى الشّتاء يكون صيفا، والبرودة دفئها... يا دفئها، خذني إليها... قل لها: انسكبي حنينا، واكسري سور الظّلال، فإنّني

أشتاقها... أشتاقها... أشتاقها...

(وجثت على الأرض الفسيحة، لملمت أحزانها في دمعها... نظرت إليه، فكان يقرأ حزنها، يرثي للوعتها الأسيرة، غير أنّه عاجز... لا يستطيع بأن يقول لها استريحي أو أريحيني... هي ابنته الوحيدة... إنّها ابنتها الوحيدة...)

قال: ردّيني إليها أو إليّ...
فقالت الأمّ: انتظرني لحظة...

(وطفا السّتار.)

الفصل الثالث

(الجوقة):

حيران يحرق وجده في الخمر،
يحترف البداية في الضّياع وفي الغناء،
ويقتفي أثر اللّذائذ...
يختفي كالخلد،
يرقص ساعة بين الجواري...
«أعطنيها كأسي الأخرى،
وهاتي خصرك الموتور أعطيه انكساري...
أعطنيها هاته العين الحبيبة؛
أعطنيه سجف هذا اللّيل؛
مزّق غربتي في العود،
في الطّنبور،
في النّاي الحزين...»
.حيران...
يا حيران،
هل تنسى؟!
.ويا حيران،
هل تسلو؟!
.ويا حيران،
هل تصحو على حبّ جديد؟!

المشهد الأوّل

قال الفتى: هاتي...
فقالت: إنّني رهن لأمرك، فاستمع...

يا راكبا إنّ الأثيل مظنّـــــة من صبح خامسة وأنت موفّـق
أبلغ به ميتا بأنّ تحيّـــــة ما أن تزال بها النّجائب تخفـق
منّي إليك وعبرة مسفوحـــة جادت بدرّتها وأخرى تخنـــق
هل يسمعنّ النّضر إن ناديتـه إن كان يسمع هالك لا ينطـق
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشـه لله أرحام هناك تشقّــــــق
صبرا يقاد إلى المنيّة متعبـــا رسف المقيّد وهو عان موثـــق

رقصت... تثنّت: كان خصرها ناحلا، والرّيق معسولا، وعيناها سفائن تستريح على الشّواطئ والمرافئ والحدود... وخدّها، يا طيب هذا الخدّ! ما أحلى نعومته!... تثنّت مرّة أخرى، فسافر شعرها: لثمت حدود حضوره، فانتشى...

قال الفتى: هاتي...
فقالت فلقة كالصّبح: هذي ليلتي ولك النّشيد...

أمحمّد ولأنت نسل نجيبـــة في قومها والفحل فحل معـرق
ما كان ضرّك لو مننت وربّمـــا منّ الفتى وهو المغيظ المحنـق
أو كنت قابل فدية فليأتيـــنّ بأعزّ ما يغلو لديك وينفـــق
والنّضر أقرب من أخذت بزلّة وأحقّهم إن كان عتق يعتـــق

...ثمّ انثنت تختال كالغصن الدّقيق بكأسه، وتناولت من زقّه، ثمّ انحنت تجتاحه؛ رشف الرّضاب، وراقص الخصر النّحيل... تمدّدت في كونه، فتمازجت كلّ العصور، وسافرت كلّ الأيائل للغدير...

قال: اسقني...

(حيث انتشى.)

هاتي...

فقالت غادة هيفاء: سمعا ثمّ طاعة... فاستمع:

قال الخليط غدا تصدّعنا ... أو بعده، أفلا تشيّعنا

أمّا الرّحيل فدون بعد غد ... فمتى تقول الدّار تجمعنا

لتشوقنا هند وقد علمت ... علما بأنّ البين يفزعنا

عجبا لموقفنا وموقفها ... وبسمع تربها تراجعنا!

ومقالها سر ليلة معنا ... نعهد فإنّ البين فاجعنا!

قلت العيون كثيرة معكم ... وأظنّ أنّ السّير مانعنا

لا بل نزوركم بأرضكم ... فيطاع قائلكم وشافعنا

قالت أشيء أنت فاعله ... هذا لعمرك أم تخادعنا؟

بالله حدّث ما تؤمّله ... واصدق فإنّ الصّدق واسعنا

اضرب لنا أجلا نعدّ له ... إخلاف موعده تقاطعنا

قال الفتى: اسقني... ثمّ اسقني... ثمّ اسقني؛ فإذا شفيت، فهاتها خمرا تعلّمني الهروب من الهروب؛ وهاتها خمرا تقول لي الوداع...

فقالت الأولى: انتظر...

قال الفتى: هاتي اسقني، يا حلوة العينين؛ واقتربي أرتّب قلبي المسكين في... في جانحيك، لأستريح من السّكون ومن نجوم اللّيل تأخذني إليها... إنّني أشتاقها... إنّي أريد لنارها أن تنطفي ورمادها... هذا الحريق، حريقها، يغتالني... يشتقّ من كينونتي كلّ الحروف .

حروفها... يغتالني... أشتاقها... يرتادني... إنّي أغالب غصّتي/ أغتالها... هاتي اسقني في الشّعر...

قالت: . قصّتي هذي وروح الخمر صنوان، فلو زيد الغناء تراقصت كلّ الحروف، وأزهرت كلّ البساتين الّتي أودعتها سرّي المرنّق بالنّشيد... وتمايلت، قالت: بخ...

ليس السّواد بناقصي ما دام لي
هذا اللّسان إلى فؤاد ثابـــــــت
من كان ترفعه منابت أصلـــــه
فبيوت أشعاري جعلن منابتـــــي
كم بين أسود ناطق ببيانـــــــه
ماضي الجنان وبين أبيض صامت
إنّي ليحسدني الرّفيع بنـــــاؤه
من فضل ذاك وليس بي من شامت

(شقّ القميص . قميصه ،. فحص البساط برجله، واخضلّت الشّفتان بالدّمع السّخين وفضلة الخمر الّتي يهريقها من كأسه... صرخت جوارحه جميعا: هاتها خمري، وهاتي دولة الشّعر العتيقة... هات لي زرياب، إسماعيل... معبد هاته، والعود، والطّنبور، والنّاي الحزين...)

قالت سعاد: سنحتفي...
ومراجل: وسننسى...
وعنيزة: أنت الّذي علّمتنا أن نشتكي...

حتّى إذا ما اللّيل جنّ ظلامـــه
ونظرت غفلة كاشح أن يغفـلا
واستنكح النّوم الّذين نخافهـم
وسقى الكرى بوّابهم فاستثقلا
خرجت تأطّر في الشّباب كأنّهـا
أيم يسيب على كثيب أهيـــلا

قالت دنانير: وهذه نوبتي...

ويقول إنّك قد علمت بأنّكـــم
أصبحتم يا بشر أوجـه ذي دم
فكّي رهينته فإن لم تفعلـــــي
فاعلي على قتل ابن عمّك واسلمي
فتضاحكت عجبا وقالت حقّـه
ألاّ يعلّمنا بما لم نعلـــــــم
علمي به .والله يغفر ذنبـــــه
فيما بدا لي، ذو هوى متقسّـــم
طرف ينازعه إلى الأدنى الهــوى
ويبتّ خلّة ذي الوصال الأقدم

(الجوقة):

غادرنه...
غادرنه...
لا صوت إلاّها يطارحه الهوى،
لا صوت بعد الخمر يبقى غير صوت .

يستعيد حروفها/
وكلامها.
فإلى متى تنأى؟
متى تشتاقها وتريدها؟
وتودّ أن تغتالها!؟
لا صوت إلاّ صوتها.
لا بوح إلاّ بوحها.
لا صورة تشتاقها/
غير الّتي هرّبتها،
وأعدتها في الخمر،
ثمّ نشرتها.
كي تمّحي أسماؤها،
لكنّها. أبدا. تزول حروفها،
وكلامها يبقى وشيشا ملغزا.
فاهرب من الخمر الّتي أضرمتها،
واغنم بهاء اللّيل،
سافر.
كي توحّد حدّكا في حدّها.

المشهد الثاني

للّيل نغمته الفريدة، والنّجوم لآلىء تلتفّ في كلّ الحديقة؛ كانت الأشجار ترقد في مخابئها الظّليلة، والنّوافذ مشرعات في حدود النّور، ترقب أوبة المنسيّ... لاح تجلّل الأسرار طلعته، خطا متمهّلا؛ فاستقبلته نسائم البيت الشّريدة... لم يطق صبرا، فصاح مهرولا:
.إنّي ندمت حبيبتي...

قالت: ندمت!!

فقال: أقسم أنّني...

قالت:(وقد مدّت إليه أناملا كالمسك.) لا تقسم حبيبي...

قال: قد أقسمت أنّ النّار تحرقني، وأنّي أبتلى بالموت لو رامت جوانحي العليلة غيرودّك والوصال...)
(نامت يداه على يديها...)

قال: هذا اللّيل يشهد أنّني أحببتك... أحببتك... أحببتك...

قالت: وهذا اللّيل يشهد أنّني في مقلتيك أكون دوما عالقه... إنّي أريدك، أشتهي أن أصطلي في ساعديك، وأشتهي أن أعبر الشّريان في حرّ الوجيب، وأضغط القلب المرنّق بالنّوايا؛ أرقب القلق الشّفيف وأعبر العينين بحرا من نسيج الياسمين...

(رنا إليها...)

قال: ضمّيني إذن...

(نامت يداه على يديها، قاربت شفتاه خدّيها، فضاع اللّيل بالنّسرين، وارتدّت بدايات الكلام إلى السّلام!!)

-انتهى الجزء الأول.

صور (سلطنة عمان) في: ٢٠٠١/١١/٢٥
: ٢٠٠٤/٠٥/٢٤
كوبيك (كنـدا) في : ٢٠٢٠/٠٥/٢٠

يتبع..

الجزء الثاني/
حكاية المملوك الحر

الجزء الثالث/
بوابات المواجيد